

الجامعة الأردنية - عمان
كلية الدراسات العليا - الماجستير
قسم اللغة العربية وآدابها

٢٠٠٠٧٦

(دراسة في أدب أحمد فارس الشدياق، وصورة الغرب فيه)

إعداد :

أحمد عرفات * حامد حسن الضاوي

إشراف :

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

(قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجستير فـي
تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية)

١٤٠٩ هـ — ١٩٨٨ م

الإهداء

إلى زوجتي مريم ، لقاء ما بذلته من عون وتشجيع
إلى أولادي رانية ونسرين ورامي ولؤي ، لقاء صبرهم
وتضحياتهم ، أهدى هذى الرسالـة .

— شكر وتقدير —

هذه الرسالة مدينة لكثيرين ، وعلى رأسهم الاستاذ الدكتور محمود السمرة
فقد شمل صاحبها بالرعاية والتوجيه ، منذ ولد عنوانها . كما هي مدينته
للدكتور خالد الكركي ، الذي فتح قلبه وبيته ومكتبته لصاحبها . والدكتور
خليل محمد الشيخ ، الذي بذل جهودا متواصلة لإزالة عثرات الباحث
وتوجيهه . لذا أرجو أن يتقبل أساتذتي شكري الجزيل .

كما أن الباحث يتوجه بالشكر ، إلى كل من أسهم في تقديم
المعونة ، ويخص بالذكر : أحمد هيك ، إنصاف قلمجي ، عبدالله رضوان
كاميليا صويص ، نزيه محمد عبد الكريم .

مقدمة

البحث : أهدافه ، منهجه ، مصادره .

من أهداف هذا البحث تحليل أعمال الشدياق الأديبة ، وهي " الساق على الساق في ماهو الفارياق " و " كشف المخبا عن فنون أوروبا " و " الواسطة في معرفسة أحوال مالطة " والمقالة الشدياقية في الجوائب ، اعتقادا على ما جاء في " كسز الرغائب في منتخبات الجوائب " ، تحليلا أدبيا ، يتناول الجوانب الفنية ، والعناصر الأساسية التي وردت في هذه الأعمال ، ويعود اهتمام الباحث بهذا الجانب ، لعدم وجود دراسة متكاملة ، لكل عمل أدبي من هذه الأعمال ، إذ أن الدراسات التي تناولتها ، غالبا ما لجأت إلى الانطباعات العامة ، وتناولت جزئيات متفرقة من العمل الواحد ، باستثناء " الساق على الساق " الذي نال اهتماما كبيرا ، إلا أن هذا الاهتمام لم يتناول الكتاب كاملا بالتحليل والنقد من جميع الجوانب .

ومن مقاصده أيضا ، تكوين صورة عامة عن الحضارة الغربية ، في مرحلة خطيرة من تاريخ العرب ، وذلك من خلال رؤية الشدياق ، والمعاصرين لهذه الحضارة ، وقد تتم اختيار الشدياق ليكون المنطلق في تكوين هذه الصورة ، لأنه أمضى زمنا طويلا في مالطة التي كانت آنذاك مستعمرة انجليزية ، حيث اتاحت له الفرصة أن يتعرف إلى الانجليز خارج وطنهم ، كما أمضى زمنا طويلا في إنجلترا وفرنسا ، وفي معظم الوقت الذي قضاه في كل من البلدين ، لم يكن لوجوده صفة رسمية ، مما أعطاه فرصة كافية للتنقـل والتعامل مع مختلف الفئات والشرائح والطبقات ، فانعكس ذلك كله على أعماله الأدبية زخما من المعلومات عن أوروبا بشكل عام ، وإنجلترا وفرنسا بشكل خاص ، وانسحب هذا الانعكاس على صفحات الجوائب في مقالاته الكثيرة ، فإذا ما أضيف إلى ذلك كله ضخامة أعمال الشدياق ، وتعدد مواهبه ، في النثر والشعر ، واللغة ، والموسيقى وخصوصيته في تناول القضايا ، وخطورة الفترة التاريخية التي حددت شكل تعامله الشرق مع الغرب ، فإن البحث في هذا الموضوع ، تصبح له خصوصية وخطورة بالمستوى نفسه ، خاصة وأن الشدياق ، كان قادرا على رسم صورة الغرب ، من الناحيتين الإيجابية والسلبية ، إذ ظهر هذا عنده جليا أكثر من ظهوره لدى معاصريه ، الذين رأوا فسي

الغالب ، ينظرون إلى الجوانب الإيجابية للحضارة المغربية ، ومن أجل ذلك عمد الباحث إلى إظهار الاختلاف بين رؤية الشدياق ورؤى بعض معاصريه ، في نظرته إلى المغرب وذلك من خلال ما ورد في أعمال الشدياق : " الساق على الساق " ، " وكشف المخبا عن فنون أوروبا " ، و " الوسطة في معرفة أحوال مالطة " ، والمقالة ضمن " كنز الرغائب " وما ورد في " تخلص الإبريز في تلخيص باريز " لرفاعة الطهطاوي ، و " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " لخير الدين التونسي ، و " رحلة باريس " لفرنسيس فتح الله مرآش و " صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار والأقطار " لمحمد بيرم التونسي ، و " السفر إلى المؤتمر " لأحمد زكي و " الدرر البهية في الرحلة الأوروبية " لمحمود الباجوري وقد ظهر الشدياق من خلال هذه المقارنة أقل انبهارا ، وأدق ملاحظة .

قام الباحث في مدخل هذا البحث ، بالحديث على التقاء العرب بالغرب ، منذ القرون الوسطى وحتى بداية القرن التاسع عشر ، هذه العلاقة التي ظلت تراوح بين مد وجزر ، ونهج في هذا المدخل ، إلى جميع العناصر المشتركة ، التي وردت عند الرحالين ، والجغرافيين والبعثات السياسية ، ومقابلتها ، فكان الحديث عن شرق أوروبا ثم عن غربها من خلال الوثائق المتوافرة ، وذلك برسم الملامح العامة الشاملة ، دون الدخول في التفاصيل ، إذ كان القصد من هذا المدخل ، التمهيد حول علاقة العرب بالمغرب تاركا للباحثين الآخرين ملاءمة هذه الفجوات بدراسات أخرى ، هذه الفجوات التي لم تغطيها أخبار الجغرافيين والرحالين والبعثات السياسية ، مما يجعل من الصعب التنبؤ بما حدث خلالها من اللقاءات ، وبخاصة ضمن مدخل تمهيدي .

اعتمد الباحث في جميع عناصر المدخل بشكل أساسي ، على " رسالة أحمد بن فضلان " و " آثار البلاد وأخبار العباد " للغزواني ، و " الأعلام النفيسة " لابن رستم و " رحلة ابن بطوطة " ، و " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي ، و " المسالك والممالك " للأصطخري ، و " المطرب من أعمار أهل المغرب " لابن رحية ، و " طبقات الأمم " للقاضي صاعد بن أحمد ، و " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للإدريسي وفي الفصل الأول من البحث ، نقد وتحليل لأعمال الشدياق الأدبية ، وقد تسبم فيه رسم الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ، وكان " الساق على الساق " ذات خصوصية ، إذ تناول فيه الشدياق الأحوال نفسها في الشرق والغرب ، ثم انتقل الباحث ، فتناول هذه الأعمال بالنقد الفني ، وقد خيس " الساق على الساق "

بنصيب كبير من الاهتمام ، لخصامته من جهة ، ولتنوع الفنون فيه ، من نشر وشعر —
ولغة ، ومقامة ، وسيرة ذاتية ، وفي الفصل الثاني ، كان الحديث عن الشدياق والأدب
الغربي ، إذ تم رصد الملامح والإشارات ، التي تشير إلى تفاعل الشدياق مع هـذا
الأدب ، وتم رصد هذه الملامح مما ورد في أعمال الشدياق الأدبية المختلفة ، ثم
انتقل الباحث للحديث عن دور الشدياق في الترجمة عن الأدب الغربية ، ودوره فـي
نقل صورة المسرح الغربي ، ثم تأثره بالأسلوب والأفكار الغربية في الكتابة ، وانـمكـسـاس
ذلك على أعماله ، كما تم رصد العلاقة الفكرية بين الشدياق والمفكرين في الغرب ، فـي
مجالات الدين ، والسياسة ، والحرية ، والمساواة ، ومدى تأثره بالحركة
الرومانتيكية . وكان الفصل الثالث من البحث مخصصا للحديث عن الصورة فـي
الغرب من مختلف الجوانب كما رسمها الشدياق ، وفي الفصل الرابع والأخير ، كان مدار
الكلام عن الرؤى المختلفة للشدياق ومعاصريه ، وقد اعتمد الباحث في هذا الفصل
على العناصر الأساسية التي طرحها الشدياق ، بحيث كانت هي محور المقارنة ، معتمدا
على الترتيب التاريخي في طن آراء الرءالين ورواهم ، وتمثلت العناصر الأساسية ، فـي
الجوانب الاجتماعية ، والدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والعلمية
لأوروبا في القرن التاسع عشر .

وقد اهتم الشدياق إلى وجود دراسات سابقة ، لها علاقة برؤية الشدياق
للغرب ، ومنها ، " الرءالون العرب وحضارة الغرب " لـنـازك سـابـا يـارـد ، تناولت
فيها الصراع الذي عاشه الرءالون في القرن التاسع عشر ، إزاء رؤيتهم للغرب ، بما فيهم
الشدياق ، وقد وصلت مؤخرا إلى مكتبة الجامعة الأردنية ، صورة عن رسالة دكتوراه
قدمت من محمد علوان في جامعة انديانا الأمريكية عنوانها —
Ahmad Faris Ashidyaq and the west (١) ، وقد انصب جل اهتمام الباحث
فيها على كتاب " الساق على الساق " وكان نصيب الأدب الغربي من الاهتمام أكثر من
الجوانب الأخرى المتمثلة بالغرب ، وجاء نصيب " الواسطة " و"كشف المخبا " والمقالة
الجوابية متواضعا ، مما يجعل هذه الدراسة ، قاصرة عن الالمام بجوانب الموضوع
الذي يتصدى هذا البحث له ، وهناك دراسة بعنوان صورة الإنجليز في أدب أحمد
فارس الشدياق ، لخالد الكركي ، نشرت في مجلة دراسات ، تناولت الجانب الحضاري

Mohammed Bakir Alwan, Ahmad Faris Ashidyaq and the west, (١)
Ph.D. Indiana University, 1970.

الإنجليزي فحسب ، ولم تتطرق إلى الجوانب الأخرى المتعلقة بالفرب .

استطاع الباحث أن يرسم صورة متكاملة للشذياق الأديب الرحالة ، —————
خلال دراسة مكثمة لأعماله الأدبية ، وقد وضع الباحث يده على علاقة ملقطة للنظـــــــر
بين الشذياق والمفكرين الفرنسيين ، في مجالات الدين ، والسياسة ، والحرية ، والمساواة
وكان تأثير الشذياق بكل من فولتير وروسو واضحا ، بالإضافة إلى تأثيره بالحركة الرومانتيكية .

وقد تضمنت هذه الدراسة ، بالإضافة إلى المدخل وهذه المقدمة ، والفصلـــــــول
الأربعة ، خاتمة توجز نتائجها ، وثبتا بالمصادر والمراجع ، التي اعتمدها الباحث
في تتبعه لقضايا رسالته الأدبية والفكرية ، وقد حمله هذا التتبع ، إلى مصادر تراثيـــــــه
ومصادر معاصرة ، ومؤلفات ، ودوريات باللغتين العربية والإنجليزية ، وبمعيـــــــض
المواد غير المنشورة ، مثل الرسائل الجامعية .

مدخل

التقاء العرب بالغرب منذ القرون الوسطى وحتى بداية القرن التاسع عشر

- | | |
|----------|----------------------------|
| أولاً : | التقاء العرب بشرق أوروبا . |
| ثانياً : | التقاء العرب بغرب أوروبا . |
| ثالثاً : | تعليق . |

مدخل

التقاء العرب بالإفرنج ، منذ القرون الوسطى وحتى بداية القرن

التاسع عشر

هذا المدخل الموجز محاولة لرسم صورة عامة ، لعلاقة العرب بالغرب ، منذ مرحلة انطلاق الحضارة العربية الإسلامية بعد مدّ الفتح ، إلى مرحلة الضعف العربي ، أمام الضغط الغربي ، الذي كانت واجهته في الأندلس وجنوبي أوروبا ، في الفترة الأولى العباسية الأموية ، ثم في فترة الحروب الصليبية .

ربما يكون من الصعب فصل الجهود الجغرافية عن جهود الرحالة ، خاصة في الفترة الواقعة بين القرون الوسطى وبداية القرن التاسع عشر ، لأن الجغرافيين المسلمين " لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافية بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين ، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره . " (١) وإذا كان هناك فرق بين كتب الرحلات وكتب الجغرافية ، فهو يتمثل في أن " مؤلف الرحلة يذكر فيها ما يتعلق بنفسه . " (٢) بينما يكتفي الجغرافي غالباً ، " بذكر المسافات ، ووصف البلاد التي يمر بها من الناحية الزراعية والتجارية ، ويصف أحوال الممالك السياسية والعمرانية ، ولا يتعرض لنفسه إلا في ما قل . " (٣) ، ويظل هناك قدر مشترك بين دوافع الجغرافي والرحالة ، والوسائل المتبعة في جمع المعلومات ، وبذلك أصبحت كتب الجغرافية في هذه المرحلة " كتباً أدبية . " (٤) . أما البعثات السياسية ، وبخاصة تلك التي خلفت أثراً مكتوباً ، فقليلة ، إلا أن " ما خلفه لنا أولئك السفراء من وصف لأوروبا يعطينا صورة أكثر وضوحاً من الصورة التي تركها الجغرافيون العرب . " (٥) وتظل الصيغة الأدبية مشتركة بين آثار الرحالة والمبعوثين السياسيين والجغرافيين الذين كان علمهم " لم يستقل بعد تماماً عن فن الرحلة . " (٦)

- (١) شوقي ضيف ، الرحلات ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ٥٥ .
- (٢) محمد بن عثمان المكناسي ، الأكسير في فكاك الأسير ، الرباط ، ١٩٦٥ ، ص ٦٥ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
- (٤) الرحلات ، ص ١٢٠ .
- (٥) محمود السمرّة ، أول سفير عربي إلى بلاط ملوك أوروبا الغربي ١٥١٠ ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٤ .
- (٦) الأكسير في فكاك الأسير ، ص ٦٥ .

وعلى هذا الأساس يمكن دراسة الآثار الجغرافية في إطار الرحلات التي هي جزء من الإنتاج الأدبي.

التقاء العرب بشرق أوروبا

اللقاءات الأولى :-

تعتبر سفارة أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد، المشهور بابن فضلان^(١) (٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) أول سفارة للعرب لدى البلغار منذ عشرة قرون، حيث تمت هذه السفارة بناءً على طلب ملك الصقالبة، الذي طلب المعون من الخليفة المقتدر العباسي (٢٨٦-٣٢٠ هـ)، حيث لبى الخليفة هذا الطلب، وملك الصقالبة بالمال والمعون والحماية والنصرة^(٢) من خلال بعثة "دينية سياسية ضمت فيما ضمت أحد الروس وآخر من الترك وثالثاً من الصقالبة"^(٣)، وعلى الرغم من أن الوجهة الأساسية للبعثة كانت إلى ملك الصقالبة، المشرب بلطوار، إلا أن "رسالة ابن فضلان" في كثير من جوانبها أشارت إلى الترك والخزر والروس والصقالبة^(٤)، وتتمثل أهمية هذه الرسالة في أنها تحتوي على "إشارات مهمة لمستوى الحضارة الذي وصل إليه الروس والصقالبة، وهو فسي مقياس ذلك العصر العباسي مستوى متدني"^(٥).

كانت علاقة الصقالبة بملك الخزر اليهودي، علاقة عداوة مستمرة، وكان "على ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته"^(٦)، وهذا يرجح أن تلك العلاقة القهرية، كانت السبب في طلب ملك الصقالبة، عون المقتدر بالله، ليتخلص من

(١) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، طه حسين، دار

١٩٦٥/١٤، ٢١٣/٢٠٧٣٣، ٤٣٦/٢٠.

(٢) انظر سامي الدهان، "أول سفارة للعرب لدى الروس منذ عشرة قرون، العربي

٣، ١٩٥١، ص ٢٣.

(٣) المرجع نفسه، ٣، ١٩٥١، ص ٢٣.

(٤) انظر أحمد بن فضلان، رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق

١٩٥٩، المقدمة.

(٥) خالد الكركي، صورة الإنجليز في أدب أحمد فارس الشدياق، دراسات، ٣،

١٩٨٥، ص ٢٣.

(٦) رسالة ابن فضلان، ص ١٤٥.

وشعبه من التسلط الخزري ، الذي تمادى إلى درجة أن يكون ابن الملك الصقلي "رهينة عند ملك الخزر". (١) ولم تكن حالة الحرب والكراهية بين الصقالبة والخزر فحسب بل كان هناك ممالك أخرى ، "بين ملوكهم قتال" (٢) مما يشير إلى أن حوض نهر الفولجا أو بلاد الروس لم تعرف الاستقرار السياسي والعسكري ، وكان التفوق العسكري لملك الخزر اليهودي في تلك الآونة ، سببا أساسيا في تبادل البعثات السياسية بين الصقالبة والخلافة العباسية ، وهذا أمر طبيعي لأن الصقالبة كانوا قد اعتنقوا الإسلام (٣) .

أما علاقة الملك الصقلي بشعبه فيظهر أنها "كانت علاقة أبوية وديمقراطية". (٤) وهذا واضح في قول ابن فضلان : "كل من زرع شيئا أخذه لنفسه ، ليس للملك فيه حق غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور ، وإذا أمر سرية بالفارة على بعض البلدان كان له معهم حصاة". (٥)

وكان جيرانهم الروس ، يعيشون أوضاعا سياسية واقتصادية مختلفة ، فهم كما يقول ابن رسته (ت ٢٩٨ هـ) . "ليس لهم مزارع ، إنما يأكلون مما يحتملونه من أرض الصقالبة". (٦) وذلك بالتجارة التي تعتمد أسلوب المقايضة مع البلغار ، حيث يتم ذلك بطريقة غريبة لا يرى التجار من الطرفين بعضهم (٧) ، وأما بالغزو فهم قسود تعودوا غزو الصقالبة (٨) ، وقد لعبت الطبيعة القاسية من برد شديد ، وثلوج كثيفة دورا كبيرا في تحديد أسلوب حياتهم ، ولهذا السبب ، كانت حياتهم بدائية تعتمد على الصيد ولأجل ذلك "ليس لهم عقار ولا قرى ولا مزارع ، إنما حرفتهم التجارة فلي السمر والسنباب ، وغير ذلك من الوبر". (٩) كما أفاد ابن فضلان .

-
- (١) رسالة ابن فضلان ، ص ١٤٥ .
 (٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ص ٦١٢ .
 (٣) انظر سامي الدهان ، العربي ، ٣ ، ١٩٥١ ، ص ٢٤ .
 (٤) زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، مصر ، ١٩٤٥ ، ص ٢٨ .
 (٥) رسالة ابن فضلان ، ص ١٢٩ .
 (٦) أحمد بن عمر بن رسته ، الأعلام النفسية ، ليدن ١٨٩١ ، ٧ / ١٤١ .
 (٧) انظر ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ، رحلة ابن بطوطة — تحقيق المنتصر الكتاني ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٣٧٥ .
 (٨) الأعلام النفسية ، ٧ / ١٤٥ .
 (٩) رسالة ابن فضلان ، ص ١٦٥ .

ان قسوة الطبيعة ، وانحصار الأرزاق بهذه الدائرة الضيقة لدى الروس جعلهم محاربين أشداء ، يعتمدون على قوتهم العسكرية ، وهذا يستدعي منهم ضرورة الالتفاف حول ملكهم فهم " يموتون بموته ويقتلون دونه " (١) ، أما عاداتهم فليست أقل بدائية من طبيعة حياتهم ويظهر ذلك جليا في قول ابن فضلان ، أن ملكهم " يطأ الجاريه أمام حاشيته ويبول في طشت أمامهم " (٢) أيضا . وأغلب الظن أن هذه الصفات لا تنسحب على جميع الروس ، لأنهم كما يقول الاصطخرى (ت ٣٤٦ هـ) " ثلاثة أصناف فضنف هم أقرب إلى بلغار وملكهم يقيم بمدينة كويابة " (٣) ، وربما كان هذا المنصف أكثر احتكاكا وتفاعلا مع البلغار ، وهذا أتاح للبلغار التعرف الى صفاتهم وأسلوب حياتهم كما أتاح لابن فضلان أن يعرف جانبا من هذه الصفات من خلال شعب البلغار فيذكرها في رسالته .

والصنف الثاني " يقتلون من ويلي أرضهم " (٤) ، ومثل هؤلاء يصعب التعرف الى حياتهم وظروفهم ، وربما كان هذا الصنف هم الذين يتاجرون بجلود الحيوانات دون أن يراهم التجار والذين وصفهم ابن بطوطه (ت ٧٧٩ هـ) بالفموض ، إلى درجة أن من يقايضونهم لا يعلمون أهم " من الجن أم من الانس " (٥) .

وأما الصنف الثالث فهم يسمون الصلاوية . (٦) ، ولم يتحدث الجغرافيون أو الرحالة بما في ذلك ابن فضلان عن الروس منصفين ، وإنما تحدثوا عنهم معممين ذلك على الروس كافة ، مما يجعل من الصعب التعرف على حياة كل فئة ، وإن كان هناك قدر مشترك بين هذه الفئات ، ومن الواضح أن الصورة التي يرسمها الرحالة والجغرافيون لهؤلاء الأقوام سلبية تماما على الصعيد الحضاري ، وهم بذلك يستشعرون الغموض الحضارية الواضحة بين ما وصل اليه العالم الاسلامي من تحضر ، وبين ما تعيشه هذه الأقوام من بدائية .

- (١) رسالة ابن فضلان ، ص ١٦٥ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .
- (٣) ابراهيم بن محمد الاصطخرى ، المسالك والممالك ، مصر ، ١٩٦١ ، ص ١٣٢ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
- (٥) رحلة ابن بطوطه ، ص ٣٧٥ .
- (٦) المسالك والممالك ، ص ١٣٢ .

أما عن البلغار، فقد كانت لهم حياة مختلفة عن الروس، فقد كانت لهم قوانينهم الخاصة، التي تتصف بالشدة والفراية، فالقاتل عمدا يقتل ومن قتل خطأ، يجعل فسي سندوق مسمر ويترك فيه مع قليل من الزاد والماء ويعلق بين السماء والأرض حتى يبلى (١) وأما الزاني فيربط في سكك من أطرافه الأربعة ويقطع بالفأس، كما يقتل السارق بالطريقة نفسها (٢) وإذا رأوا انساناً له معرفة وعلم قتلوه شنقا بحجة أن "حقه أن يخدم ربنا". (٣) كما يقولون، وأضاف القزويني (ت ٦٨٢ هـ)، أن "أحدهم إذا تعرض للجارية الغير أو ولده، أخذ منه جميع ما يملكه". (٤)، والمدين لغريب يقضي دينه حتى لو باع أهله وولده ونفسه. (٥)

أما في قوانين الروس، فالطوك هو الذي يحكم بين المتخاصمين، فان رضيا بحكمه نفذ الحكم وإن لم ينفقا على قوله أمر أن يتحاكما بسييفيهما. (٦)، وفي هذه الحالة فان القوة هي التي تحسم الأمر، وإن كان ذلك على حساب الحق والعادل وأما المواريث فيجعل مال الميت "ثلاثة أثلاث، فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثيابا وثلث يندون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاهما". (٧)، وهذه الطقوس تقود المرء للحديث عن الأديان، والملاحظ أنها لا تمت إلى الأديان السماوية بصلة، وهي أقرب إلى الوثنية، صحيح أن البلغار كانوا أهل كتاب قبل إسلامهم فقد كانوا يهودا (٨)، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة مقدار انتشار اليهودية في البلاد فالاصطخري يرى أن "بلغار اسم المدينة، وهم مسلمون، وفيها مسجد جامع". (٩) ولكن هناك فئة منهم في باب الأبواب "الغالب"

٢٧٠٠٠٨

- (١) انظر رسالة ابن فضلان، ص ١٣٢.
- (٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٣٢.
- (٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٦١٥، ٦١٦.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٦١٥، ٦١٦.
- (٦) الأعلام النفيسة، ١٤٦/٧.
- (٧) رسالة ابن فضلان، ص ١٥٦.
- (٨) أحمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريسل ١٩٠٦ ص ٣١١.
- (٩) المسالك والمعالك، ص ١٣١.

عليهم النصارى. (١) ، فالبلغار على هذا الأساس أكثر من فئة ، ولكل فئة عقيدتهما .
وأما الدين عند الروس - إذا جاز التعميم - فإن طقوسهم في إحراق الموتى
من الملوك والخاقانات (٢) دليل على وثنيتهن ، وقد شك حسين فوزى في كتابه حديث
السندباد القديم بهذه الطقوس ، وقد رأى أن ابن فضلان انتفع بما قرأه أو سمع به
من عادة الهندوس في إحراق الزوجة مع جثمان زوجها ، وأضاف أن ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ)
في معجم البلدان ، قد ألقى على ابن فضلان عهدة ماحكاه ، مما يشير إلى شك ياقوت
أيضا بصحة هذه الرواية (٣) . ولكن من جاء قبل ابن فضلان مثل ابن رسته ، قد قالوا
ما يشبه قول ابن فضلان فالزوجة قد تدفن أيضا حية مع زوجها ، بعد أن توضع
معهما أشياءهما الخاصة من الأواني والحلي (٤) ، والمعروف أن ابن رسته قد ألف كتابه
الأعلاق النفيسة سنة (٢٩٠ / ٩٠٣ م) ، أى قبل أن يكتب ابن فضلان رسالته بعشرين عاما .
بيد أن البلغار ، كانوا متقدمين حضاريا على الروس ، فالبلغار كانوا يعيشون
على الزراعة حيث كانت لهم مزارع كثيرة. (٥) بينما الروس " ليس لهم مزارع. " (٦) بل
" ليس لهم عقار ولا قرى. " (٧) ، وقد أضاف ابن فضلان ما يشير إلى تخلف الروس عن
البلغار ، فقال فيهم : " أقدر خلق الله ، لا يستججون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من
جنابة ، ولا يغسلون أيديهم من الطعام بل هم كالحمير الضالة " (٨) ولعل هذا المنصف
من الروس ، وهو غير العنصر الذى قال فيهم ابن رسته أنهم شعب نظيف في طلبه ، بكرمون
أضيافهم ويحسنون للفقراء الذين يلوذون بهم . (٩) .

-
- (١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٣١١ .
(٢) انظر ما كتبه ابن فضلان عن طقوس إحراق الموتى من ملوك الروس ، رسالة ابن فضلان
ص ١٥٦ - ١٦٥ .
(٣) انظر حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .
(٤) انظر الأعلاق النفيسة ، ١٤٦ / ٧ ، ١٤٧ .
(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٣١١ .
(٦) الأعلاق النفيسة ١٤٥ / ٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ١٤٥ / ٧ .
(٨) رسالة ابن فضلان ، ص ١٥١ .
(٩) انظر الأعلاق النفيسة ، ١٤٥ / ٧ .

تحدث ابن فضلان عن زى البلغار من الرجال فقال ، "فكلهم يلبسون القلانس" (١) وأوضح ابن رسته ذلك بقوله إن ملابسهم "شبيهة بملابس المسلمين" (٢) ، وأما السروس "يلبس الرجل منهم كساء" يشتمل به على أحد شقيه ، ويخرج إحدى يديه منه (٣) ، وأما النساء فكل امرأة "على ثديها حقة مشدودة ، إما من حديد ، وإما من فضة ، وإما من نحاس وإما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره" (٤) ، وسلاح البلغار "المزاريق والأترسنة والرماح" (٥) ، ويتسلح الروسي بـ "فأس وسيف وسكين لا يفارقه" (٦) وهذه الأسلحة تتلاءم مع حياة الصيد ، بينما أسلحة البلغار أسلحة مواجهة وقتال منظم .

إن لغة البلغار والخزر متعاطلة ، أما لغة الروس فغير لغتهم (٧) ، ولكنهم جميعاً متخلفون في مجال الطب ، فالبلغار "أكثرهم معلول وربما يموت أكثرهم بالقولنج حتى أنه ليكون بالطفل الرضيع منهم" (٨) ، وإذا مرض أحد الروس "عزلوه وأعطوه طعاماً ولا يقومون على خدمته حتى يموت أو يعود اليهم معافي" (٩) ولعل طلب تلك البلغار أروية من الخليفة المقتدر ، له الدلالة نفسها على تخلف المنطقة في مجال الطب (١٠) .

يذكر ابن فضلان رسوماً وعادات طريفة للبلغار ، فالمولود يأخذه جده دون أبيه ويرث الميت أخوه دون أهله وولده (١١) ، وأضاف القزويني في حديثه عن الصقالبيّة دون تحديد ، أن الرجل إذا صار صاحب ولد قام على تربيته حتى يحتلم ، ثم يعطيه قوساً ونشاباً ويأمره بالرحيل ، ويعامله بعد ذلك كالأجنبي ، وأما البنات الأبكار فيخرجن من

-
- (١) رسالة ابن فضلان ، ص ١٣١ .
 - (٢) الأعلام النفيسة ، ١٤٢/٧ .
 - (٣) رسالة ابن فضلان ، ص ١٤٩ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .
 - (٥) الأعلام النفيسة ، ١٤٤/٧ .
 - (٦) رسالة ابن فضلان ، ص ١٥٠ .
 - (٧) انظر المسالك والمعالك ، ص ١٣١ .
 - (٨) رسالة ابن فضلان ، ص ١٤٣ ، القولنج : مرض مشهور معوى منسوب إلى المعى مؤلم جداً يعسر معه خروج الثقل والريح انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
 - (١٠) سامي الدهان ، العربي ، ٣ ، ١٩٥١ ، ص ٢٤ .
 - (١١) انظر رسالة ابن فضلان ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ .

مكتشفات الرأس ، فمن أراد الزواج من واحدة ألقى عليها خمارا ، والرجل يتزوج عشريــــن امرأة أو أكثر ، والمهر عندهم ثقيل وخاصة في ورنك ومشقه على طرف البحر الشمالي وقلمــــا يصل إليهما أحد (١) ، وهذه العادات التي ذكرها القزويني ، لا تنطبق على جميع الصقالبة ، وقد أشار إلى أن الصقالبة قوم كثيرون فمنهم النصراني اليمقوبي ، ومنهم النسطوري ، ومنهم من لا دين له (٢) وأما البلغار تحديدًا ، فإنهم يفتسلون عراة لا يستترونها من بعضهم ، وقد عانى ابن فضلان في محاولته تغيير هذه العادة فلم يفلح ، ومع هذا فإنهم قوم لا يقربون الزنى أبدًا . (٣)

لقد لفتت مظاهر الكون والطبيعة في شرق أوروبا ، نظر ابن فضلان وغيره من الجغرافيين والرحالة المسلمين ، حيث القمر هناك لا يتوسط السماء والليل قصير جدا والكواكب في السماء قليلة (٤) ، وزاد ابن فضلان أن الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب أبدًا ، وأن الليل قليل الظلمة ، وأن الحيات في هذه البلاد كثيرة ولكنها لا تؤذي . (٥)

يتضح مما سبق أن تقرير ابن فضلان لقدمه ، وكثرة التفاصيل فيه ، يظل عمدة المؤلفين والجغرافيين من العرب . (٦) ، كما يتضح أيضًا أن بلاد الروس والبلغار ، قد غمت معالك كثيرة ، فالبلغار عدة معالك ، والروس ثلاثة أصناف ، ولكن مع تعدد المعالك والأصناف ، فإن ما أورده الجغرافيون والرحالة وابن فضلان ، كان في أغلب الأحيان يكتسب حفة التعميم .

(١) انظر آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٦١٦ ، ٦١٧ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٦١٦ - ٦١٧ .

(٣) انظر رسالة ابن فضلان ، ص ١٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ، ١٢٧ .

(٦) نقول زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٥١ .

التقاء العرب بغرب أوروبا

إن أغلب المعلومات عن الغرب، جاءت عن طريق مسلمي الأندلس وصقلية وخاصة من الجغرافيين (١)، وكانت إطلالة هؤلاء على الغرب ونظرتهم إليه، تمثل علاقة القوى (العربي)، بالضعيف المجهول (الغربي). (٢) ولمل في تقسيم القاضي صاعد (٤٦٢ هـ)، لطبقات الأمم ما يؤكد أن العرب في تفوقهم في تلك الحقبة، كانوا ينظرون إلى أوروبا بشيء من الاحتقار، ويرى أحد الباحثين، بأن هذه النظرة تمثل رؤية عامّة المثقفين المسلمين في العصور الوسطى لأوروبا، حيث كانوا يرون أن العالم الإسلامي هو مركز العالم المتمدن. (٣)

تعتبر سفارة يحيى بن الحكم الفزالي من قرطبة عامّة عبد الرحمن الثاني (٢٧٧-٣٥٠ هـ) إلى الفايكنج سنة (٨٢٣ / ٤٥٠ م) أول وثيقة تاريخية عن التقاء العرب بغرب أوروبا وكان ذلك عندما ظهرت قوة النورمان قوة سياسية في أوروبا الغربية حيث طمع النورمان النرويجيون في عقد اتفاقية صداقة مع الدولة الأموية في الأندلس كما طمع عبد الرحمن الثاني في مصادقتهم، ضد عدوه وعدوهم شارل الأستع ملك الفرنجة ويضيف محمود السمرّة إلى قوله هذا، بأن الطرفين كان يربط بينهما مصالح اقتصادية مشتركة (٤) وعلى أية حال فإن هذه "العلاقات بدأت متأخرة عن علاقات المسلمين مع شرق أوروبا، بسبب افتقار غرب القارة إلى القوى السياسية المظمية حتى مطلع القرن الثامن الميلادي". (٥).

هناك وثائق أخرى كتبها الجغرافيون العرب، مثل الاصطخرى في المسالك

(١) انظر Bernard lewis "The Muslim Discovery of Europe" Bulletin of the school of Oriental and African studies, XX, 1957, P, 413.

(٢) خالد الكركي، صورة الانجليز في أدب أحمد فارس الشدياق، دراسات ٢٣٠، ١٩٨٥، ٢٣٠.

(٣) انظر Bernard Lewis, OP, Cit, P. 409.

(٤) انظر، محمود السمرّة، أول سفير عربي إلى بلاط ملوك أوروبا، العربي ٥١، ١٩٦٣، ١٣٥، ١٣٦.

(٥) ابراهيم أحمد العدوي، السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، مصر ١٩٥٧، ص ٩١.

والممالك الذي تحدث عن الجلالة "النصارى" على حدود الأندلس (١)، كما اعتنى ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ) بالحديث عن الأندلس وجزيرة صقلية، وعرض للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لهذه البلاد، وجاءت عنايته بهذه الأجزاء وذكر عورتها "ليزيين" للفاطميين احتلال هذه البلاد (٢) لأنه كان يدين لهم بالولاة، أما الإدريسي (ت ٤٩٣ هـ) فقد أضاف كثيرا إلى علم الجغرافية عموما وفيما يتعلق بأوروبا خصوصا، حيث "يعد الجزء" الخاص بأوروبا في كتابه من أهم الأجزاء، تبعاً لأن ما يضمه من معلومات وبيانات تفوق في شمولها ودقتها كل السابقين عليه (٣) وأما القزويني في كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد"، فقد تحدث عن غرب أوروبا، وخاصة المناطق التي تشمل على ألمانيا وفرنسا وبريطانيا الواقعة ضمن الإقليم السادس (٤).

أسهم أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) في كتابه "الاعتبار" في إعطاء صورة عن الإفرنج القادمين إلى المشرق، ضمن الحملات الصليبية (٥) وفي منتصف القرن السابع عشر الميلادي، قام الخوري إلياس بن القسيس حنا الموصلي برحلة إلى أمريكا اللاتينية مسرورا بأوروبا، واطلع على بعض مظاهر العلاقات بين المستعمرين الأوروبيين، وأصحاب البلاد في هذه القارة، وكان ذلك تحديدا في سنة (١٦٦٨ م)، وقد نشرت رحلته في "مجلة المشرق" سنة ١٩٠٥ م (٦)، تحت عنوان "أول سائح شرقي إلى أمريكا" وفي سنة (١٧٨٨ م).

-
- (١) انظر، المسالك والممالك، ص ٣٧ - ٣٨.
 - (٢) الرحلات، ص ١٤.
 - (٣) محمد مرسي الحريري، الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية، ص ١٦، وكتاب الإدريسي المقصود هو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
 - (٤) انظر، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧ - ٥٧٦.
 - (٥) انظر، أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠.
 - (٦) انظر، المشرق، ص ٨٨، عدد ١٨، ص ٨٢١ - ٨٣٤، عدد ١٩، ص ٨٧٥ - ٨٨٦، عدد ٢٠، ص ٩٣١ - ٩٤٢، عدد ٢١، ص ٩٧٤ - ٩٨٣، عدد ٢٢، ص ١٠٢٢ - ١٠٣٢، عدد ٢٣، ص ١٠٨٠ - ١٠٨٨، عدد ٢٤، ص ١١١٨ - ١١٢٩.

قام محمد بن عثمان المكناسي برحلة إلى إسبانيا للتفاوض مع حكامها على تبادل الأسرى العرب ، بالأسرى الإسبان ، وبعد سفارته هذه ألف كتابه " الأكسير في فكاك الأسير " (١) كما تحدث في هذا الكتاب عن القضايا الاجتماعية والعسكرية والدينية لدى الإسبان حيث يستشف القاري ، أنه لا يزال ينظر إلى إسبانيا على أنها أرض إسلامية ، بجسب إعادتها إلى حوزة الاسلام . (٢)

إن هذه الجهود مجتعة ، تعطينا صورة عن أوروبا الغربية في بعض النواحي خلال الفترة الواقعة بين القرون الوسطى ، وبداية القرن التاسع عشر ، وإن كان هناك انقطاع بين " الاعتبار " لأسامة بن منقذ وبين القرن السابع عشر الميلادي (٣) حيث ظهرت علاقات مباشرة بين الدولة العثمانية وأوروبا ، نتيجة للوجود العثماني في بعض أجزاء أوروبا الشرقية .

اللامح السياسية لغرب أوروبا

كانت الحرب مستمرة بين النصارى والمجوس في الجزائر البريطانية ، فالنصارى " يقاتلونهم ويسبونهم " . (٤) ، وقد كان لهم دور على حدود الأندلس الإسلامية ، وأهمها دولة الإفرنجية ، التي كانت تشكل خطراً على الدولة الإسلامية ، ويتمثل هذا الخطر في أنه " ليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس ، أكثر عدداً من الإفرنجية ويقال لملوكهم قارلة " . (٥) كما أفاد الاصلخري ، وكان بالإضافة إلى هذه الدولة قوى نصرانية أخرى تجاورهم ، منهم الجلالقة والبسكونس ويبدو أن هؤلاء البسكونس كانوا أشد الجميع شوكة ، وقد وسعهم القزويني نقلاً عن المسعودي (ت ٩٥٦م) بقوله : " ولهم صبر وشدة

(١) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٦٥م ، في الرباط ، عن طريق المركز الجامعي للبحث العلمي وحققه الدكتور محمد القاسي .

(٢) كرر المؤلف عبارة " أعادها الله إلى حوزة الاسلام " عند ذكره للمدن الإسبانية انظر ، ص ٢١ ، ٢٦ .

(٣) من أجل التعرف على أسباب وظروف هذه الفجوة ، انظر خالد زيادة ، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا ، معهد الانماء العربي بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ١٩ ، وما بعدها .

(٤) ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، مصر ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٠ .

(٥) المسالك والممالك ص ٣٦ .

في حروبهم لا يرون الفرار أصلاً. (١) ، بالإضافة إلى قوم يقال لهم عرجسكس أقسـال
الجميع خطراً. (٢) ، وربما كان هؤلاء هم الذين يلون المسلمين مباشرة ، فقد أفاد ابن حوقل
أن "الذي يلي المسلمين منهم ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم وعدتهم. (٣) وهذا القول
ينطبق على هذه الفئة الأخيرة .

أما المجوسية ، فقد انحسرت ولم تعد لها قاعدة " إلا هذه الجزيرة. " (٤) يعني
إيرلندة ، ونمت قوة النصارى في أوروبا الغربية ، وظلت تهدد الدولة الإسلامية في الأندلس
حتى اسقطتها ، وفي تلك الأثناء كانت روما " التي تعد ركناً من أركان النصارى. " (٥)
تتزعزع العالم المسيحي ويدعها الإسبان والصقليون ، الذين كانوا بمجملون وبغذون الدفع
المسيحي للقيام بالحروب الصليبية . وهذه الأحداث والمظاهر وقعت سنة ١٠٦٨ م ، أي قبل
الحملة الصليبية الأولى بثلاثين عاماً . (٦) ، وفي القرن الثامن عشر ، وبعد الثورة الفرنسية
بدأت الدول الأوروبية ، تتنافس في استعمار البلاد ، لتسويق منتجات الثورة الصناعية
وجلب المواد الخام منها ، كما نشطت في هذه المرحلة تجارة العبيد ، وذلك لأعمار العالم
الجديد على حساب الإنسانية ، يقول الخوري الباس الموصلي : " ولا زلنا مسافرين والأرياح
تلعب بنا ، ونحن في نصف الدرب ، فصادفنا مركباً إنجليزياً موسوقاً من العبيد السود
عدهم سبعمائة نفس ، قد جاءوا بهم من بلاد برازيل من حكم البرتغال ، حتى يبيعوهم
في بعض جزائر الهند. " (٧)

وفي القرن نفسه وتحديدا في عام ١٧٨٨ م كانت الحرب لا تزال مستمرة بين
دول المغرب العربي ، التي كانت تحت الحكم التركي اسما ، وبين اسبانيا ، وكانت تلك
الحرب تتسم بالصراع الديني ، بين المسلمين والنصارى وكان للطرفين أسرى عند الآخر

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٦ .

(٢) انظر المسالك والممالك ، ص ٣٦ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٠٦ .

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٧ ، المجوسية لفظ أطلقه
المؤرخون المسلمون .

(٥) ابن ادريس ، نزهة المشتاق ، ص ٧٥١ .

(٦) انظر ، Bernard Lewis, Op. Cit, P. 409.

(٧) المشرق ، أول سائح شرقي إلى أمريكا ، ص ٢ ، ع ١٩

وكان هذا دافعا للتفاوض بينهما في عهد الملك كارلوس الثالث . (١)

الملاح الاجتماعية والثقافية لغرب أوروبا

يذكر ابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) في " المطرب " في حديثه عن سفارة يحيى بن الحكم الفزال (ت ٥٢٥ هـ) بعض الملاح الاجتماعية للمجوس الأوروبيين ، وهذه الملاح هي انعكاس للمواقع الدينية الوثني في تلك الفترة ، فعند هؤلاء " المجوس يجوز " نكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار . " (٢) وهذه الصفة ظل عليها الأوروبيون بشكل جزئي بعد أن تنصروا ، فالبابا في إسبانيا " يحل لهم نكاح المحارم مثل بنت الأخت ، وهي حرام في دينهم ، ولكن لا يقدر أن يتوصل إلى نكاح ابنة أخته إلا من كان ذا مال وجاه ويعطي على ذلك أموالا كثيرة . " (٣) هذه الظاهرة بعد عشرة قرون من رحلة الفزال ويلاحظ المرء ظاهرة انعدام الفيرة على العرض ، فالمملكة تود تقول للفزال عندما يبرر انقطاعه عنها ، بخشيتها من انقلاب زوجها الملك عليه : " ليس في ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختبارهن . " (٤) ، ربما كان هذا قبل التنصر ، أو كان القوم قريبي العهد بالوثنية ، وأما بعد ذلك بزمان طويل ، فقد أكد اسامة بن منقذ هذه الصفة عند الصليبيين القادمين إلى المشرق الإسلامي بقوله : " ليس عندهم شيء من النخسوة والفيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . " (٥) ، وأورد قصصا مفارها الفاية نفسها . (٦) وبعد اسامة بستة قرون ، وصف محمد بن عثمان الكناسي الإسبان بقوله : " لا يبالون بشيء فقد جبلوا على عدم الفيرة . " (٧) ، ولكن أسامة يذكر أن في الصليبيين " فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل . " (٨) .

(١) انظر الأكسير في فكاك الأسير ، ص ١٢٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) المطرب ، ص ١٤١ .

(٣) الأكسير في فكاك الأسير ، ص ١١٠ .

(٤) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١٤٣ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

(٧) الأكسير في فكاك الأسير ، ص ١١٠ .

(٨) الاعتبار ، ص ١٣٢ .

تحدث أسامة بن منقذ عن أسلوب الفرنجة في القضا* ، فأفاد أن القضا* لديهم بلا ضوابط ، ولا يرتكز على قوانين معينة ، وأكثره مزاجي . (١) ونقد أخلاقهم بقوله لا يوقرون الكبير ، ولا يتورعون أن يجعلوه وسيلة للتسلية والضحك (٢) ، واستثنى منهم جماعسة " تبلدوا وعاشروا المسلمين " (٣) فهم أصلح من المستجدين على البلاد الإسلامية .

صنف القاضي صاعد (٤٦٣٥ هـ) شعوب غرب أوروبا مع الأمم التي لم تمن بالعلوم وخص بالجهل منهم الجلالة (٤) ، ونتيجة لجهلهم كان اهتمام المسلمين الأوائل فيهم قليلا ، وانصرف صاعد عن ذكرهم مزدرياً غير المتدنين الشماليين والجنوبيين من الإفرنج الأوربيين بالإضافة إلى زنج إفريقيا . (٥)

وفي فترة الحروب الصليبية ، عاشر أسامة بن منقذ الصليبيين عن قرب ورأى أنهم أمة لا عقل لهم ، وهم في منتهى السذاجة ، وتعجب كثيرا من تخلفهم في مجال الطب وأورد قصصا لذلك ، بعضها شاهدها بنفسه ، وبعضها رواها طبيب عمه . (٦)

صفات وملامح بشرية وجغرافية لغرب أوروبا وشعوبها

ذكر الأصطخري بعض الصفات الخلقية للأوربيين المتأخمين لحدود الأندلس من سكان بحر الروم فهم " بيئرزرق ، وكلما ازدادوا وتباعدا إلى ما يلي الغرب والشمال ، ازدادوا بياضا وزرقة ، وحمرة شعر ، إلا أن طائفة منهم يرجعون إلى سواد شعروعيون ، وهم صنف من الروم من الجلالة ويقال إن أصلهم من الشام " (٧) ، وأكبر الظن أن هؤلاء هم سكان جنوب فرنسا . (٨)

-
- (١) الاعتبار ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .
 - (٤) انظر ، صاعد بن أحمد التغلبي الأندلسي ، طبقات الأمم ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ٩٢٨ .
 - (٥) انظر Bernard Lewis, Op. Cit, P. 409.
 - (٦) انظر الاعتبار ، ص ١٣٢ - ١٣٤ .
 - (٧) المسالك والمعالك ، ص ٣٧ ، ٣٨ .
 - (٨) انظر محمد كرد علي ، غرائب الغرب ، دمشق ، ١٩١٠ ، ٥٣/١ .

أكثر من أتى على ذكر الأماكن والبلاط هو الإدريسي ، فقد كتب عن خبراتها —
ومراسيها (١) ، وتحدث عن جزيرة صقلية ، فكانت عنده على عكس ما هي عند ابن حوقل —
تماما ، ففي الوقت الذي شنع فيه ابن حوقل على هذه الجزيرة وأهلها ، رآها هو بعينيه —
وبعيون من تردد اليها من المتجولين بين الكتب والأمصاير بلدا " شرف مقدارها وأعجبوا
بزاهر حسنها . " (٢) كما تحدث عن جزر البحر الأدياتيكي فقال " جعلتها عامرة . " (٣) —
وتحدث عن جزائر البنادقة في البحر نفسه وأفاد أنها ست " ثلاث في صف ، وثلاث فسي
صف بطوها . " (٤) وأما الجزائر البريطانية ، فقد تحدث عنها ضمن حديثه عن الإقليم
السابع فذكر سقسية أي اسكتلندة ، التي تحدث عن بعض أخبارها نقلا عن " كتب —
المعجائب " لأبي حامد الاندلسي (ت ٦٤٥ هـ) وأفاد أن بها ثلاث مدن وأنها كانت
معمورة ، وأن المراكب كانت تحط بها وتجتاز عليها فتشتري من أهلها العنبر والحجارة
الطونية . (٥) وأما إيرلندة التي سماها برلندة فقد اعتبرها جزيرة معمورة (٦) ، وقد
أفاد القزويني أن هذه الجزيرة " على رسم المجوس . " (٧) وهذا يعني أنها كانت معمورة
عندما تحدث عنها ، كما ذكر الإدريسي لنقله أي إنجلترا ، ومدينة لوندرس أي لندن
وسالزبورى وساوثمبتون ، ودوفر ودرم وآيسلندة ضمن حديثه عن الإقليم السابع ، وذكر
المسافات بين هذه المواقع . (٨)

تحدث القزويني عن فرنسا ، فذكر مدينة أبولده واشت ونقل عن المسعودي ، أن قاعدة
هذه البلاد باريس (٩) ، وتحدث عن بلاد إفرنجة التي تضم بلاد ألما وافرندة وشمال

(١) نزهة المشتاق ، ص ٥٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٧٠ .

(٥) انظر A.F.L- Beeston "Idrisi's Account of the British Isles" Bulletin of the school of Oriental and African Studies . Vol, XIII, 1949-1950. P. 267.

(٦) انظر Ibid, P. 267 .

(٧) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٧ .

(٨) A.F.L Beeston, Op, Cit, PP, 273-278.

(٩) انظر آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٦ .

الأندلس. (١)

ومن المدن ذكر الإدريسي مدينة روما ووصفها بأنها "مدينة عظيمة الدور، يذكر أن محيلها تسعة أميال، ولها سوران من حجر." (٢) وهذه الرواية تدل على أن الإدريسي لم يزر روما بل سمع عنها، وذكر مدينة جنوة التي وصفها بأنها مدينة "أزلية البناء" حسنة الجهات أهلها تجار أطباء. (٣) وقد أورد الإدريسي مسميات كثيرة لمواقع مختلفة في أوروبا الغربية ولكنه "لم يهتم بذكر أي بيانات قيمة" (٤) عدا المواقع والمسافات في أغلب الأحيان .

(١) انظر آثار البيلاد وأخبار العباد، ص ٥٧٥ .

(٢) نزهة المشتاق، ص ٧٥١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥١ .

(٤) الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، ص ٢٠٠ .

- تعليل -

يبدو أن المؤرخين والرحالة العرب في القرون الوسطى قد انصرفوا إلى مسلميات في ما يتعلق بأوروبا ، فإذا كانت " نظرة كاتب أرحالة إلى مجتمع آخر غير مجتمعه ، تكون محكومة بتكوينه الثقافي ومستندة إلى تصوره المسبق للعالم . " (١) فإن الرؤية العامة للمثقفين المسلمين ، كانت تنظر إلى أوروبا من خلال تقسيم القاضي صاعد ، الذي اعتبر أن العالم الإسلامي هو مركز العالم المتمدن ، وأن الأوروبيين والزنج في إفريقيا هم من الأمم غير المتمدنة (٢) ، بل إن المقدسي قد " أهمل الإشارة إلى أوروبا في كتابه " أحسن التقاسيم " ، وحجته " أنه ليس في تلك البلاد ما يستحق التسجيل " (٣) بل كان العرب آنذاك " يقفون من القارة الأوروبية موقفها منهم اليوم . " (٤) ، وحتى الإدريسي الذي يعد من أكثر المهتمين بأوروبا ، فإن ما كتبه عنها لا يحتوى على بيانات قيمة (٥) ، وحتى أعمال الجغرافيين الآخرين ، فإنها استمدت أغلب معلوماتها من النسخ الأغرقتي ، وبخاصة من جغرافية بطليموس التي ترجمت أو نقلت إلى العربية في بداية القرن التاسع الميلادي ثم بدأ المثقفون المسلمون ينتجون أعمالاً جغرافية خاصة بهم ، (٦) ، ولذلك فإن الاستقلالية في الإنتاج الجغرافي منطبق على ابن رسته و الاصطخري وابن حوقل و المقدسي الذين عاشوا وأنفوا مؤلفاتهم في القرن العاشر الميلادي (٧) ، ومهما كان الأمر ، فإن علاقات المسلمين مع غرب أوروبا " بدأت متأخرة عن علاقات المسلمين مع شرق أوروبا ، بسبب افتقار غرب القارة إلى القوى السياسية العظمى . " (٨) وذلك " لأن دولة الروم ، الدولة البيزنطية في شرق أوروبا ، كانت أعظم قوى أوروبا على الإطلاق في العصور الوسطى وذات مصالح حيوية مع الدولة الإسلامية . " (٩) ، ولم تبدأ العلاقات العربية مع

(١) خالد الكركي ، دراسات ، ٣ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢ .

(٢) انظر Berndt Lewis, Op. Cit. P. 409.

(٣) محمود السمره ، الغربي ، ٥١ ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ٥١ ، ص ١٣٤ .

(٥) انظر الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته ، ص ٢٠ .

(٦) انظر ، Bernard Lewis, Op. Cit, P. 409.

(٧) انظر ، حديث السندباد القديم ، الفهارس ، حيث أفرده حسين فوزي فهرساً خاصاً

بسنوات تأليف كتب الجغرافية العربية في القرون الوسطى ، ص ٣٦٧ - ٣٧١ .

(٨) السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٩١ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

غرب أوروبا إلا عندما * أفاق عبد الرحمن الثاني من هول الصدمة التي لم يكن ينتظرها . * (١) وهي هجوم النرويجيين على الأندلس عام ٢٣٠ هـ - ٨٤٤ م) ويظهر من هذه القوة السياسية الجديدة في غرب أوروبا ، بدأ النشاط الإسلامي للتعرف عليها من خلال أول بعثة سياسية ، ترأسها يحيى بن الحكم الفزالي * ولم تكن أخبار هذه السفارة معروفة بهذا التفصيل الشيق قبل اكتشاف مخطوطة ابن رحية * (٢) .

كانت الدولة العباسية في المشرق تسمى إلى التقرب من دولة الفرنجة المسيحية وأخذ أباطرة الروم بدورهم يتصلون بأمرأ * بني أمية المسلمين ليحالفوهم ضد خطر الفرنجة المتزايد ، وفي هذه الأثناء ظهرت غرب أوروبا في ميدان النشاط السياسي (٣) كما أن غارة النورمان على الأندلس ، كانت السبب الذي من أجله * تتلمع المسلمون إلى معرفة طبيعة تلك الجماعات التي غدت تكون خطراً على أراضيهم . * (٤)

إن شرق أوروبا لم يكن يعني بالنسبة للمسلمين سوى دولة الروم البيزنطيين ، حيث قامت عدة سفارات بين الطرفين لإقرار السلام . (٥) ، ولكن كانت هناك ظروف سياسية فسي الدول الإسلامية ، وعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المجاورة لها في آسيا الوسطى أو المناطق النائية ، التي تمثل أطراف العالم المتحضر ، وخاصة حوض نهر الفولجا (٦) ، هذه الظروف دفعت الخليفة العباسي المعتذر بالله ، أن يتصل بأقصى الأقطار في الشمال ، ويلبى طلب البلغار بأعدادهم بالعالم والعون والحماية والنصرة (٧) ، والبلغار هم الشعب الذي أسس في بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما في حوض نهر الفولجا الأوسط أو نهر إتل (كما تسميه المصادر العربية) ، والأخرى في حوض الطونة . * (٨) فكانت

(١) محمود السعرة ، العربي ، عدد ٥١ ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) انظر السفارات الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ١٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٦٨ .

(٦) انظر ، علي محسن مالح ، أدب الرحلات عند العرب في المشرق

بفردان ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٤ .

(٧) سامي الدهان ، العربي ، ٣ ، ١٩٥١ ، ص ٢٣ .

(٨) الرحالون المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٢٦ .

بعثة ابن فضلان ، وكانت رسالته التي تعد عمدة المؤلفين في الجغرافية من بعده ، وعلى الرغم من أن هذه الرسالة " لم تخذ من الأساطير " (١) إلا أنها احتوت على مساندة " وصفية تحليلية للنواحي الحضارية والاجتماعية والسياسية قيمة جدا " (٢) وأما الأساطير وخاصة تلك التي دارت حول إحراق الموتى ، فقد شك بها من المحدثين حسين فوزي في كتابه حديث السند باد القديم . (٣) ، ومهما كان الأمر ، فإن ما كتبه ابن فضلان عن البلغار يفيد بأنهم " كانوا آخذين بأسباب الحضارة الحديثة التي كانت قد وصلتهم " (٤) ، وأن " الأدب كانت خصلة قوية فيهم " (٥) على الرغم من وجود بعض العادات والأخلاق السيئة التي تأملت فيهم ، والتي عانى ابن فضلان في سبيل تغييرها فلم يفلح . (٦)

وأما الجغرافيون المسلمون فقد " ملأوا الفراغ ، وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركو بولو العالم البندقي " (٧) ، وأما الرحالة فإن ما ورد في كتاباتهم " أعظم اختصاراً ونقداً ، وأكثر في التفاصيل ، مما ورد في كتابات الرحالة البندقي العظيم ماركو بولو " (٨)

فيما يتعلق بغرب أوروبا ، فقد كان إسهام الجغرافيين مثل الإدريسي أكثر من الرحالة أو البعثات السياسية ، وكان إسهام مسلمي الأندلس وصقلية أكثر من غيرهم في هذا الميدان ، ولكن مع كل هذا الجهد ، فقد ظهرت أسماء قليلة جدا في كتابات المسلمين عن أرض الشمال ، مثل بريطانيا وأحيانا إيرلندا ، وحتى بعض أجزاء من اسكتلندا (٩) ، وإن كان هناك أي تفوق في سد الخلل فإن الجزء الخاص بأوروبا في كتاب الإدريسي " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " قد حقق هذا التفوق ، ولهذا يعد " من أهم الأجزاء تبعاً لأن ما يضمنه من معلومات وبيانات ، تفوق في شمولها ودقتها كل السابقين عليه

(١) أدب الرحلات عند العرب في المشرق ، ص ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر حديث السند باد القديم ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٥١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٥١ .

(٦) انظر رسالة ابن فضلان ، ص ١٣٤ .

(٧) الرحالون المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١٨٠ ، نقلاً عن المستشرق

فلاديمير ميخائيلوفسكي .

(٨) المرجع نفسه ، ص ١٨٠ ، نقلاً عن المستشرق فلاديمير ميخائيلوفسكي .

(٩) انظر Bernard Lewis, Op. Cit, P. 409 .

الذين اقتسرت معارفهم عنها على ما أورده هو عن مدينة روما وحدها. (١) ، وكان كتاب الإدريسي عن أوروبا الغربية " غير مسبقة " (٢) و " يعد وصفه لمناطق غرب أوروبا دليلاً على سعة اطلاعه ووفرة معارفه عنها ، كما ظفرت رومانبا وسائر شبه جزيرة البلقـان بتفصيل كثير . " (٣) أما كتاب القزويني " آثار البلاد وأخبار العباد " ، فيعد الثاني بعد كتاب الإدريسي ، وفيه ذكر بعض البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية . (٤) حظيت مدينة روما باهتمام أغلب الجغرافيين ، ويعود ذلك إلى أن لكل واحد من هؤلاء قصصاً غريبة يقولها عنها (٥) ، وهذا يقود إلى القول بأن الرحالة والجغرافيين في كثير من الأحيان " أرادوا إرضاء حاسة الخيال عند قرائهم ، وكلما كان الإقليم أبعد تماروا في المبالغة . " (٦) ، ويظل " معجم البلدان " الذي ألفه ياقوت سنة (٦٢٦هـ / ١٢٨٨م) " أقربها إلى الواقع . " (٧)

من الملاحظ أن علاقة العرب بالغرب لم تنقطع في القرون الوسطى ، سواء أكان ذلك على المستوى الرسمي من خلال البعثات السياسية ، أم من خلال الرحالة والجغرافيين بدافع علمية وثقافية ، وتشير هذه اللقاءات إلى مرحلتين تم فيهما التفاعل بين العرب والغرب : الأولى : حيث كانت الحضارة العربية متفوقة على حضارة الغرب . الثانية : حيث كان هناك مراعاة موى تمثل في الحروب الصليبية .

ثم مرت فترة لا تعد قطيعة كامنة ، ولكنها لم تكن بالفعالية السابقة نفسها ثم دخلت أوروبا عصر نهضتها ، في الوقت الذي استمر فيه العرب يجابهون الخطر المفلوس بعد الخطر الصليبي ، وبعد انحسار هذه الأخطار ، ظل العالم العربي في حالة جزر خضاري حتى نهاية العصر العثماني ، حيث وقع العالم العربي في يد الاستعمار الغربي ، وظل كذلك حتى بداية عصر نهضته ، حيث بدأ العرب من جديد رحلتهم إلى الغرب ، وتفاعلهم

-
- (١) الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته ، ص ١٦ .
 - (٢) المرجع نفسه ، ص ١٦ .
 - (٣) المرجع نفسه ، ص ٤٧ .
 - (٤) انظر ، الرحالون المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١٢٦ .
 - (٥) انظر Bernard Lewis , Op. Cit, P. 410 .
 - (٦) الرحلات ، ص ٢٣ .
 - (٧) المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

مع حضارته ، ولكن بصفه الضعيف الذي يأخذ من القوى ، حيث
انعكست الصورة تماماً عما كانت عليه ، ولكن
اللقاء ظل مستمرا .

الفصل الاول

دراسة نقدية تحليلية لآثار الشدياق

أولاً : الساق على الساق في ما هو الغاريق .

- ٠١ . الأوضاع الثقافية .
- ٠٢ . الأوضاع الاجتماعية .
- ٠٣ . القضايا الدينية .
- ٠٤ . الأوضاع السياسية .
- ٠٥ . الأوضاع الاقتصادية .
- ٠٦ . اللغة المعجمة في الساق على الساق .
- ٠٧ . الشعر في الساق على الساق .
- ٠٨ . اللغة والاسلوب في الساق على الساق .
- ٠٩ . فكرة القص في الساق على الساق .

ثانياً : الواسطة في معرفة أحوال مالطة .

- ٠١ . مالطة في التاريخ والجغرافيا وعند الشدياق .
- ٠٢ . الأحوال الاجتماعية في مالطة .
- ٠٣ . الأحوال الاقتصادية في مالطة .
- ٠٤ . أحوال مالطة الدينية والسياسية والإدارية .
- ٠٥ . الأحوال الثقافية في مالطة .
- ٠٦ . اللغة والموسيقى .
- ٠٧ . اللغة والأسلوب .

ثالثاً : كشف المخبا عن فنون أوريسا .

- ٠١ . اللغة والأسلوب .

رابعاً : الجوائب والمقالة الشدياقية .

- ٠١ . المقالة العامة .
- ٠٢ . المقالة الاجتماعية .
- ٠٣ . المقالة السياسية .

ما يتعلق بالمرأة في الساق على الساق ،علاقتها بالرجل ،وأما اللغة فقد شغلت حيزا كبيرا ،تطرن فيها إلى المرأة ،والنجوم ،والآلات ،والأصنام ،والمنازل ،والطيور ،والحشرات والموسيقى ، وأنواع الأطعمة ،والشجر والشباب . (١)

أورد الشدياق في كتابه وصفًا لمالطة وبلار الانجليز وفرنسا في الأمور الاجتماعية والسياسية ، وقارن في مواضع مختلفة بين الانجليز والفرنسيين ، ساخرًا أحيانا ، وممجبا أحيانا أخرى ، وفي كل الأحوال يتذكر بلاده ، فيقارنها بالغرب ، ويبرز الجوانب الإيجابية فيها بهدف الفائدة ، ويحذر من السلبيات .

أفرد الشدياق جزءًا من الكتاب الرابع لشعره في الحرب التركية الروسية ، وفيه ذم باريس ومدحها ، ومدح عبد القادر الجزائري بالإضافة إلى مدائح أخرى ، وقصائد الغرقيات والفراقيات (٢) كما أورد في نهاية الكتاب فصلا سماه " ذنب الكتاب " ، ذكر فيه أغلاط المستشرقين في الترجمة ، وذيله بجدول يشتمل على هذه الأغلاط . (٣) ويعمد هذا الفصل ، اختتم كتابه برسالة باللغة العامية المصرية ، ووجهها إلى الشيخ والمطران والخوارج ، متحديًا إياهم بفهم كتابه أو عمن مثله (٤) ، كما فعل في المقدمة الشعرية .

في صدر الكتاب مقدمة للشيخ نسيب وهيبه الخازن يبين فيها أهمية الكتاب ومحتواه وبعض الملامح الخاصة بحياة الشدياق ، والعصر الذي عاش فيه ، كما اشتمل على فهرس هو بمثابة دراسة تحليلية للمحتوى ، لكل كتاب من الكتب الأربعة التي يتكون منها الكتاب ، مما يمكن القاري أن يضع يده على الجزئيات بسهولة .

صدر الكتاب بالعنوان كما هو حاله في الطبعة الأولى ، باللغة العربية والفرنسية بالإضافة لمقدمة ناشر هذه الطبعة ، رافائيل كحلا الدمشقي (٥) وأهم العناصر التي يمكن اعتمادها منها لدراسة هذا الكتاب ، هي البحث في الأوضاع الثقافية ، والاجتماعية والدينية ، والسياسية ، والاقتصادية بالإضافة إلى اللغة المعجمية للكتاب ، شمس الشعر ، فاللغة والأسلوب ، وأخيرا فكرة القص في الكتاب .

(١) شغلت اللغة في الكتاب ما يزيد قليلا على المئة صفحة .

(٢) الساق على الساق ، ص ٦٥١ - ٦٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٨٦ - ٧٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٠٩ .

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٧ - ٤٩ .

١- الأوضاع الثقافية

كان الجهل وتخلف الثقافة ، قضيتين تؤرقان الشدياق ، خاصة وأن هذه الظاهرة لم تكن داءً قد أصاب فئة معينة من المجتمع العربي، وإنما هي ظاهرة راقبها فــــــي "الرهبان، والمعلمين، والحكام، وتغلغل في طبقات الشعب". (١) فوجد أن هــــــذا الداء قد انتشر ويلاؤه قد عم، فأراد أن تكون المرأة حرة مثقفة ، وأما المجتمع فأراد لــــه العلم والتعلم ، فأبرز ما رآه في الغرب ، فكان صوته من أجل التعليم " من الأســــــوات العربية الأولى في العصر الحديث ، بل كان أول صوت في رد ما يقال من أن المــــــراه إذا عرفت القراءة والكتابة ، كان ذلك سبيل فسادها ". (٢) وهو بهذا الصــــــدد يقول : " فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة ، فعندي محمداً بشرط استعماله على شروطه ، وهو مطالعة الكتب التي تهذب الأخلاق وتحسن الإطلاع ". (٣) ، وإن كانت هذه الدعوة مشروطة فإن مثلها " في مجتمع لا يعترف للمرأة بحق التعليم جطة ، فضــــــلا عن سائر حقوقها الانسانية والمدنية ، يعد خطوة تقدمية على موقف المحافظين ". (٤) وأما رجال الدين فقد أشار إلى جهلهم في مواضع مختلفة ، وأغلب هذه الإشارات جاء بشكل تهكمي فيقول : " إني سألت أشدهم تحمسا أن يعيرني القاعوس فظنه الجاموس ". (٥) بل إنه لم ير أحدا منهم " ينبغ في علم ولا من أثرت عنه مكربة ". (٦) ، وأما المعلمون فقد رآهم غير أكفيا لهذه المهمة ، وقد أشار إلى جهلهم في المقامة الأولى ، الفصل الثالث عشر من الكتاب الأول ، وذلك عندما سأل معلما عن مسألة فكانت إجابته تتم عن منتهى الجهل (٧)

-
- (١) شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، بيروت ١٩٨٧م ، ص ٦ .
 - (٢) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، القاهرة ، الدار المصرية للطباعة ص ١٦٢ .
 - (٣) الساق على الساق ، ص ١٢٦ .
 - (٤) لويس عوض ، المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، قضية المرأة ، دار المعرفة ١٩٦٦م ، ص ٣٢ .
 - (٥) الساق على الساق ، ص ١٤٠ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

وأما الشعراء فقد وجدهم شعراء مناسبات، لا يمسون الحياة بأغراض شعرهم، فتحكم على هذا الشعري مواضع مختلفة (١)، ولم يكن رجال السياسة أفضل حالا، فقد شكك فسي وعيهم، وسخف اهتماماتهم وهذا واضح في حديثه عن يعير بيعر ومذكراته، التي كان الشدياق نفسه كاتبها لها، وهي تدل دلالة واضحة على ضيق أفق هذا الأمير (٢)، حتى إن هؤلاء الأمراء لو فكروا بالتعلم، فإن سلوكهم في مجالس العلم لم يكن يروق للشدياق وهو في هذا المقام يتحدث عن أحد الأمراء الذي أفحش في مجلس العلم فنهره الشيخ قائلا "كان ينبغي لك التأرب في مجلس العلم، فإنه غير مجلس الإمارة." (٣)، وهذا يشير إلى أن الأمراء كانوا يحاولون استغلال أوضاعهم حتى في أماكن العلم وحضرة العلماء كما يشير إلى أن مجلس الإمارة كان يحدث فيه إفحاش وخروج عن الأدب.

لم يكن الأغنياء والوجهاء أحسن حالا من فئات المجتمع الأخرى، فهم على الرغم من قدرتهم على محاربة الجهن في أنفسهم وغيرهم. فإنهم وجهوا عاداتهم وأموالهم توجيهها سلبيا، فهم "بتخذون في ديارهم الفسيحة، مساكن المصيف وأخرى للشتاء، وكنا للمبيت وكنا للاستحمام." (٤)، هذا بالإضافة إلى اتخان الأراكيل الثمينة وقصبسات التبغ الكثيرة والطيايس الكشميرية والغراء السمورية (٥)، وهو بهذا المصدر يقرع الأغنياء عامة والتجار خاصة، الذين وجهوا اهتمامهم لجمع المال فحسب بقوله: "فكيف تبلغ من عمرك ثلاثين سنة ولم تولف شيئا يفيد أهل بلادك، فما أرى بين يدك إلا دفاتر بيع وشراء وفناديق دخل وخروج، ورسائل فاسدة المعاني ركيكة الألفاظ." (٦)

لم يترك الشدياق جانبا من جوانب الثقافة في عصره، إلا واستمر غشقراته، وبيس عيوبه، فبالإضافة إلى نقده للعنصر البشري في هذا المضمار، فإنه لم يعجب بثقافة العصر وأدواتها، فوقف من التأليف والمؤلفين موقفا نزع فيه "نزع تحررية، ثار بها على أساليب

-
- (١) انظر الساق على الساق، ص ٢٦٦، ٩١، ٩٥.
 - (٢) انظر المصدر نفسه، ص ١٠٣ ويعير بيعر، هو الأمير حيدر الشهابي.
 - (٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
 - (٤) المصدر نفسه، ص ١٦٤.
 - (٥) انظر المصدر نفسه، ص ٥٢٣.
 - (٦) المصدر نفسه، ص ٥٢٥، انظر أيضا المصدر نفسه، مقارنة بين التاجر
- العربي والإنجليسزي، ص ٥١٢.

الأقدمين . " (١) ، ويبين أن هذا التأليف " فقد كل علاقة بالواقع والحقبة والمعاطفة وانصرف إلى الحشو والتقليد والمعاني المبتذلة . " (٢) فهو يرى أن " السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشي . " (٣) . ونصح الراغبين في هذا النمط من الكتابة بأن عليهم " بمقامات الحريري أو النوايح للزمخشري . " (٤) ، وهو بهذا لا يريد لمجتمعه ثقافة تقليدية وإنما يريد أن يتجاوزوا هذا النمط إلى نمط جديد ، يلائم الحياة ويتطور معها .

نقد الشدياق أيضا الاقتصار على علم النحو ، فقد أخذ على أهل بلاده أنهم " لا يتعلمون سواه ، ولا يعرجون على غيره ، وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها . " (٥) ، وهو بهذا ينبه إلى أن هناك علوما أخرى جديرة بالاهتمام ورأى أن التركيز على هذا العلم بالإضافة إلى علوم البيان مضیعة للوقت لأن النحو مشغلا " له ابتداء " وليس له انتهاء . " (٦) و " مثله أو أكثر منه فن المعاني والبدیع . " (٧) ويأخذ على أهل عصره ما تواضعوا عليه من مراعاة هذه الجوانب في خطاب كتبه بالإضافة إلى كل أنواع الطباق (٨) ، وقد رأى الشدياق أن سبب قلة التأليف في العلوم الأخرى " هو أن الناس في زمنه " لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه أنت . " (٩) وهو بهذا يحدث على التأليف في علوم أخرى .

لم تسلم الرسائل والتشجيع الطفق والخطابة من النقد ، فقد رأى أن الخطابة أسسا تقوم عليها ، وذكر بعضها ، وأجمع ذلك في أن أهم هذه الأسس ، هي ألا تكون الخطابة شرثرة بلا طائل . (١٠)

-
- (١) حنا فاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البولسية ، ص ١٠٣٩ .
 - (٢) نازك ساياء ، الرحالة العرب وحضارة الغرب ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٢٧ .
 - (٣) الساق على الساق ، ص ١٢٣ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣١ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

لعمل اطلاع الشدياق على الأرب الأوروبي " سبب تنبئه إلى النقص في أرب معاصريه . " (١) ، فكان لا بد له أن يبسط لهم ما رآه في أوروبا ، ويضع الاقتراحات للخروج من الجمود الثقافي ، كما لم يفته أن الفن ضروري للمجتمع وخاصة الموسيقى ، فسأله أن المجتمع في لبنان ورجال الدين خاصة ، ينظرون إلى الموسيقى نظرة سلبية فيقولون " والقوم هناك يغفلون في الدين ويحذرون من كل ما يلذ الحواس ، لذلك لا بششاًؤون أن يتعلموا الفناء والمزف بأحدى آلات الضرب . " (٢) ، ويقارن هذا الموقف من الموسيقى بموقف الغرب منها ، حيث القوم هناك في الكنائس ، يعزفون على الأرغن من اللحن التي ولع بها الناس . (٣) ، والشدياق بهذا يريد أن يقيم الفن " تقيماً فنياً . " (٤) لا تقيماً أخلاقياً ، ويبدو أنه كان معجباً ومهتماً بالموسيقى ، لذلك تحدث عنها وعن الفناء المصري والتونسي ، وبين إيجابياته وسلبياته في كل منهما . (٥) ، وهذه العناية بالفناء والموسيقى لم تجدها في مؤلفات الرحالين . . . (٦) ، هذا على الرغم من أن تقييمه للموسيقى جاء " بدائياً محدوداً " (٧) ، ومع كل ذلك ، فقد خالف القيم السائدة ، واجترأ على تسخيف من يحذر من الموسيقى قولاً وعملاً ، إذ كان قد اقتنى الطنبور وهو فتى وكان يعزف عليه . (٨)

هناك جانب آخر من الفن لم يألفه الشدياق كثيراً ، وهو الرقص ، مع أنه قد صوّر الفحاريقية وقد طوّرت رغبتها إلى هذا الشيء الغريب ولكن دون أن تغير وجهة نظرها لطبيعة العادة نفسها (٩) ، ويظهر موقف الشدياق من الرقص الفرنجي ، وموقف زوجته كذلك ، من خلال حوار دار بينهما حول هذا الفن ، عندما دعيا إلى حفلة راقصة في بيت حاكم مالطة الإنجليز . (١٠)

- (١) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٢٧ .
- (٢) الساق على الساق ، ص ٢٩٨ ، انظر أيضاً المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .
- (٤) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٢١ .
- (٥) انظر الساق على الساق ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
- (٦) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٢١ .
- (٧) المرجع نفسه ، ص ١٢١ .
- (٨) انظر الساق على الساق ، ص ٩٧ ، والطنبور آلة موسيقية وترية .
- (٩) انظر " Mattityahupeled " Al-Sa`q alā-Alsa`q Arabica, XXXII, 1985, PP, 46.
- (١٠) انظر الساق على الساق ، ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

لم يكن راب الشدياق أن يعرض الداء فقط، وإنما كان يصف له العلاج الملائم فبعد أن عرض لكل هذه الأدواء في الحياة الثقافية ، وصف العلاج ، فهو من أجسـد أن يأخذ بيد مجتمعه إلى الرقي الثقافي، يحدث على السفر من أجل العلم ، ولكن دعوتـه هذه جاءت مشروطة ، فقد حذر من الخلط في الأخذ " عن المعجم الطيب بالخبيث، أو الصحيح بالمعتل ، فإن المدن الغناء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل " (١) ، ويحدث على اقتناء الكتب مقرراً الأغنياء خاصة في هذا الصدر بقوله : " ليت شمري ، أليس وجود مئة كتاب يدرك في الأقل، خيراً من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ ، وكذا وكذا أركيلة ، مع أن ثمن المئة كتاب لا يوازي ثمن ثلاث قطع من الكهرباء " . (٢) ، وقد رأى أن المطابع وسيلة ضرورية لنشر العلم والثقافة والوعي ، فيتساءل في هذا الصدر : " أليس وجود مطبعة في بلادك أولى من هذه الطبالس " . (٣) وقد رأى الشدياق بنفسه ما للمطابع والصحافة من تأثير على وعي الشعوب الأوروبية التي زار بلدانها ، فإن تلك الشعوب بكل فئاتها تقرأ وتتعلّم حتى الفلاحين " يقرأون ويكتبون ويطلبون الوقائع اليومية ، ويعرفون الحقوق الرابطة بين المالك والمملوك والحاكم والمحكوم وبين الرجل وامرأته " . (٤)

بالنسبة للمؤلفين فالشدياق يدفعهم ويحفزهم أن يخرجوا من الدائرة التقليدية في مجال التأليف ، ويرغبهم بالتجديد والتحرر ، فيتحدث عن التأليف في فرنسا ، حتى في المواضيع التي لها أساس بالدين والسياسة (٥) ، ويعرض أساليب الأفرنج في التأليف الواعي الهادف ، فقد ترجم بعضاً من مقدمة ديوان لامارتين Lamartine ورحلـة شاتوبريان Chateaubriand ، وتناول في تعليقه جراءة الاثنين ، حيث أنهما " كتبـا ما كتباه ولم يخشيا لومة لائم ، ولم يعترض عليهما أحد من جنسهما " . (٦) ، ومثل هذه الدعوة تعد سابقة إيجابية للشدياق ، في زمن تسلط فيه رجال السلطتين الدينية والزمنية

(١) الساق على الساق ، ص ٥٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢٣ . والكهرباء هي العنبر الأصفر المعروف باسم كهربان Electrum هكذا فسرها محقق الساق ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢٧ .

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ ، انظر الترجمة المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

على الحياة الثقافية ، بالإضافة إلى روح التقليد الواضحة في ثقافة العصر .
 مما سبق يتضح أن الشدياق ، أراد لأتمه ثقافة متطورة ومتنوعة ، كما أراد أن تكون
 الأدوات والكفاءات متطورة أيضا ، للنهوض بالمجتمع الذي رأى ضرورة وصول الثقافة العصرية
 إلى كل فئاته .

٢- الأوضاع الاجتماعية

من أول الأمور اللافتة للنظر في الساق على الساق ، وضع المرأة الاجتماعي في كل
 البلاد التي زارها الشدياق ، أو أقام فيها ، وقد بنى هذا الوضع على أساس علاقتها بالرجل
 في حالة كونها زوجة ، أو عشيقة ، حرة ، أو جارية ، والمرأة العربية — كما رآها — في كـل
 أحوالها امرأة مضطهدة * فإن هراوة الزوج ومقامع أهله ، وأهل امرأته ، وعيون الجيران
 أيضا تمنعها من الإتصاف بالصفة الزوجية التامة * (١) ، وفي هذا القول إشارة إلى
 أن الزوجة لا تستطيع التصرف كأنثى في الحدود المشروعة ، وليس هناك اضطهاد أسوأ من
 هذا ، أما إذا كانت جارية فالضرب والتهديد بالبيع ولو بنصف الثمن (٢) يكون عقابها على
 أتفه الأسباب ، فضلا عن الرق ذاته وما يصاحبه من هدر لانسانية هذه المرأة ، ولكن هذا
 الرق ينسحب على المرأة الحرة أيضا ، لأن القمع يمارس على الطرفين ، وإذا كانت المرأة ابنة
 فأنها رائما سجين البيت ، وفي أحسن الظروف تتمتع بـ وتتعطّر وتجلس في الشباك حتى
 يستشيط والدها غضبا فيشدها من شعرها (٣) ، والشدياق متألم من هذه الوسيلة في معاملة
 المرأة ، لذلك يتكرر حديثه عنها ورفضه لها في مواضع مختلفة من الساق على الساق
 فقد راقب هذه الظاهرة عند جاره في مصر فيقول : " فكت اسمعه كل ليلة يضرب امرأته . . (٤)
 وحتى في الزواج فقد تهدر انسانية المرأة ، وحققها في الاختيار فيقول : " أقبح من هذا
 كله أن الرجل عندنا إذا كان كهلا لا يستحي أن يتزوج ببنت لم يأت عليها بعد نصف
 عمره ، فإذا ما استقرت عنده ، شرع في تربيتها وتثبيتها وتوليدها . . (٥) وإذا ما أحب

(١) الساق على الساق ، ص ٨٩ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥٨ .

أن يكرمها أو يشفق عليها فقد " يشتري لها جارية ، أو يستخدم وصيفة ، وليس المقصود بذلك تخفيف الشغل عنها ، وإنما المقصود ، جعل الأمة أو الخادمة رقية عليها . " (١) وهو يشير إلى انعدام الروابط والثقة ، لعدم وجود التكافؤ بين الأزواج ، والمرأة هي الضحية في كل الأحوال فما عليها إلا أن " ترضى لنفسها بأن تقعد في بيتها كالفرس المسرج المعد للركوب ، وهي محرومة من معايشة الناس . " (٢) ، وهذه المعاملة السيئة للمرأة تكاد تنسحب على كل النساء ، من فئات المجتمع المختلفة وطبقاته ، فالأمير " لا يأكل مع السيدة وأولادها . " (٣) ، ويزيد الأمر قسوة أن المرأة تقضي حياتها بين الجدران ، لهذا يلتصم الشدياق لها المذرف في ما هي عليه من الجهل والغباء ، " سواء أكن مقصورات في البيوت العامة أم الفقيرة . " (٤) ، هؤلاء هن المتزوجات ، أما إذا كانت المرأة عانساً فيحظر عليها ما يحظر على المتزوجة ، ولكن المؤلم أن أخاها " إن ذاك يرتفع ويلعب ، ويلهو ويضطرب ، ويسافر ويتغرب . " (٥) يريد الشدياق القول أن أمر المجتمع وتدير شؤونه من مهمة الرجل ، وأن المرأة جارية في كل أحوالها ، مما يعكس صورة قاتمة لملاقة الرجل العربي بالمرأة ، وأن هذه المرأة قد وصلت إلى حالة من الاستسلام لهذا الواقع ، حتى أصبح الأمر عادة ، فمع كل هذا القمع فإن " نساء تلك البلاد لا يخاصمن بمولتتهن وهن مضمرات خيانتهم ، أو مستحلات استبدالهم ، فإنهن ربين على محبة آبائهن وعلى طاعة بمولتتهن . " (٦) وهذا يزيد القناعة أن هذه التربية كرسست لمصلحة الرجل دون أن يكون للمرأة من ورائها فائدة .

لم يفت الشدياق أن ينبه إلى حقوق هذه المرأة الشقية ، بتصوير وضع المرأة فسي الغرب ، فيوجه الدعوة إلى رجال المجتمع العربي بقوله : " تعال معي إلى بلاد الإفرنج لتتظر الأمراء مخلصين لأزواجهم وأولادهم ، سائرين بهم إلى المنازه والحدائق ومواضع الملهو واللعب . " (٧) ، وأما نساؤهم فلمهن " حرية في الابتسام والمرح والتفرس

(١) الساق على الساق ، ص ٤٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٧١ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٧٠ .

في الأشياء". (١) ، وليس مجرد الجلوس في الشباك للترويح عن النفس، بل إن مجالس الإفرنج — كما يقول الشدياق — لا يكتمل زينها إلا بالمرأة، (٢) وهم لشدة احتفائهم بها "بيوسون أيدي النساء"، ووجوه بناتهن، ولا يرون في ذلك معرة، وانحطاط قدره". (٣) ، ولكن للإفرنج أيضا سلبياتهم، فهم "يتساهلون معهن في أمور كثيرة، ربما تعد عند المشرقيين قيادة". (٤) ولكن هذا لا ينسحب على كل الإفرنج، فان "ما يقال أن الإفرنج ليس لهم غيرة على نسائهم فليس على إطلاقه". (٥) وحتى هؤلاء المتساهلين مع النساء، فانهم يرون ذلك وقاية من الخيانة، (٦) وذلك بالسماح للنساء بممارسة اللذات الخارجية كما — بسميها الشدياق. (٧)

وفي مألظة، فان الصورة التي قدمها الشدياق عن علاقة الرجل بالمرأة صورة سيئة ولا يوجد فيها جانب إيجابي فيقول: "أنظر الى أهل هذه الجزيرة، فانك تجد أكثر الرجال منفصلين عن أزواجهم، وعائشين بالسفاح، وقسيسوهم مصرون على أن ذلك أوفق من الزواج الشرعي". (٨) ، واستياء الشدياق الشديد من هذا الوضع، وبخاصة دور القسيسين فيه، ينفي عنه قول لويس عوض من أنه كان "يميل إلى إطلاق الزواج مسن قيود الدين أيا كانت هذه القيود". (٩) ، ولكنه كان يريد "المساواة التامة بين الزوجين إن في الحقوق أو في الواجبات". (١٠) ، وفي الوقت نفسه يبدو أنه "يعجب باختلاط الجنسين في الغرب". (١١)

-
- (١) الساق على الساق، ص ٤٧٠.
 - (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٤٧٠.
 - (٣) المصدر نفسه، ص ٤١٥.
 - (٤) المصدر نفسه، ص ٤٠١.
 - (٥) المصدر نفسه، ص ٤٠١.
 - (٦) انظر المصدر نفسه، ص ٤٠١.
 - (٧) انظر المصدر نفسه، ص ٤٠١.
 - (٨) المصدر نفسه، ص ٥٠٥.
 - (٩) لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، دار الهلال، الطبعة الثالثة، ٢٢٦/٢.
 - قال لويس عوض ان الشدياق يريد أن يحلل الزواج من قيود الدين، وكرر هذا القول في كتابه، المؤثرات الأجنبية في الأرب المصري الحديث، قضية المرأة، ص ٣٨.
 - (١٠) الرجالون العرب وحضارة الغرب، ص ٥٠٥.
 - (١١) المرجع نفسه، ص ١١٦.

لم تكن صورة المرأة في المجتمع العربي وحدها تروق الشدياق ، ولكن الطفـل العربي أيضا شغل حيزا من اهتمامه ، فقد كان هذا الطفل يعاني من الإهمال وسوء التربية ، فالطفل في مصر والشام ، يضرب بقسوة لمجرد أنه يلعب مع ابن الجيران ، ويحبس لمدة طويلة لمجرد ارتكابه ذنبا تافها . (١) ، وأما البنات " فلا يعاشرن أحدا سوى الخوادم وأهل البيت " . (٢) وهذا بالتالي يؤدي إلى جهلهن وضيق أفقهن ، وتحكـم الخوادم في تربيتهن ، فتشبه الفتاة لا تعرف من الحياة علما نافعاً ، اللهم إلا المكائـد والحيل ، التي غرستها الخوادم في عقولهن . (٣) ، حتى تربية الرضع عند العرب لا تعجب الشدياق ، وفيها كثير من السلبيات ، فالأم المرضع لجهلها تعتقد " أن في طول رضاع الولد سحرة له ، فمنهن من ترضع ولدها عامين تامين ، ومنهن من تزيد على ذلك " . (٤) فـفي الوقت انـذى يدرب فيه الطفل عند الإفرنج " على الخفيف من الطعام بعد ولادته بستة أشهر ، مع إبقاء الإرضاع قليلا " . (٥) ، وفي باريس يترى الأطفال " في أحجار المراضع وهي عادة حميدة " . (٦) ، بينما يظل أطفال مصر والشام في حجور أمهاتهم ، فيرفقن بهـم كثيرا ، وهذا الفرق يجل عن الوصف ، مما يجعل هذا الطفل ، شديد الارتباط بذويـه قليل الاعتماد على نفسه ، وحتى لو كبر وتزوج (٧) ، على عكس الأطفال الإنجليز الذين يمتـازون بثقتهم العالية في أنفسهم ، إلى درجة أن من كان عمره منهم ، اثنتي عشرة سنة ، يكـمك بكلام ابن العشرين ، بالإضافة إلى أدبهم وحشمتهم وتأديبهم في البيوت والشوارع بخلاف فتيان العرب (٨) ، ولكن مع وجود هذه المظاهر الإيجابية في التربية عند الإنجليز فإن الشدياق يتألم لبعض المظاهر السلبية عندهم ، ومنها منظر الفتيات " اللاتي يجريـن في أسواق لندن وجميع المدن العامرة ، بأخلاق من الشباب ، كيف يتهافتن على الرائج والغادى رجاء أن ينلن ما يتقوتن به ولا سيما هؤلاء النواشي اللاتي لـم

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ١٠١ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢٥ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١١٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٦٠٥ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢٩ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٥ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٢٧ ، ٦٣٨ .

بيلفن بعد من العمر خمس عشرة سنة . " (١) ، وينبه إلى الشر العظيم الذي يترتب على هذا الوضع ، ويرجح كفة العرب على كفة الإنجليز في هذا الجانب (٢) .

مما سبق يخلص المرء إلى أن الشدياق يريد " عتق المرأة من جهل الرجل ، وعتق الأولاد من جهل الوالدين ، ونقد المجتمع الشرقي والغربي على السواء . " (٣) كما يبدو أنه انتصر " للرفق واللين ، وحرر التربية من الشدة والقساوة ، ورفع الحيف النازل بالطفل من جراء الأساليب اللاإنسانية في تعذيبه وتأنيبه . " (٤) ومثل هذا الموقف في زمـن الشدياق — بالإضافة إلى قيمته — فإنه " أحدث دهشة واستغراباً . " (٥) فـسـي أوساط المجتمع العربي ، الذي لم تكن هذه القضايا تشغل فكره أو بالكاد ينتبه إلى أهميتها .

كان الشدياق دقيق الملاحظة ، خاصة في كل ماله علاقة بالمرأة ، وكان الزى واحداً من هذه القضايا التي تحدث عنها عند الجنسين ، وكان منطلقه المرأة العربية ومظهرها السليم ، فيما يتعلق بالزى والزينة ، فهو قد أخذ عليها الاسراف فيهما ، وخاصة فـسـي اقتناء الحلي (٦) ، كما ساء من المرأة اللبنانية في الجبل أن " أكثرهن تبدى ثدييهما سواءً أكانت كاعياً أو هملاً ، أو طرطبة . " (٧) ، ولكن هذه المظاهر — وإن كانت سيئة — فإنها لا تنقص من " سلامة عماثرهن عن المنكر . " (٨) ويبدو أنه لم يعمد إلى تحجب المرأة العربية ، فقد أطلق متهماً على بلاده اسم " دولة البرقع والحبرة . " (٩)

وهذا مناقراً تماماً لما رآه في بلاد الإفرنج ، من إسفار النساء وحريتهن في الخروج ولكنه لم يرفض زى النساء عند العرب على الإطلاق ، فقد أعجبه زى المرأة العصرية ، ومصدر

(١) الساق على الساق ، ص ٥٩٣ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

(٣) يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، لبنان ، ١٩٥٥ ، ٢٤ / ٤٧٢ .

(٤) جوت هارون ، الشدياق رائد الحريات في فكرنا الحديث ، حوار ، ٦ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٦) انظر الساق على الساق ، ص ٨٩ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٦٩ ، الهضلا : المرأة النصف ، الفيروز آبادي فصل الباء باب

اللام والطرطبة ، من الطرطب ، الثدى الضخم المسترخي الفيروز آبادي ، فصل الطاء باب الباء .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤٦٩ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٤٥٧ .

اعجابه هو أن زيتها يبرز المفاتن ، ويوضح ملامح الجسد ، على عكس الزي الافرنجي الذي قد يخدع الرجل ، لكثرة ما يزيّفه بحشو العهن والقطن ، لإبراز مفاتن لا وجود لها فسي الأصل (١) ، كما لم يمجيه زي الشاميات المكون من ازار أبيض لا يبرز المفاتن أيضاً ، ويسر الشدياق من المرأة التونسية ، أنها تعشي غير متبرقة مكشوفة الساقين ، وإن كان أغلب من يفعل ذلك من النساء من اليهود (٢) ، وقد ساءه من المرأة الافرنجية تربية الأظافر (٣) واحتفاءً جميع الافرنج بكسوة جميع الأعضاء (٤) ، ولم تعجبه البرنيطة التي يلبسونها ، وشبهها بالقفة أو الزنبيل (٥) ، كما انتقد قبلها العمامة والأجران التي يلبسها رجال الديّين العرب (٦) ، وليس الشدياق وحده الذي شغلته الأزياء ، فالغارياقية طالما باتت مشغولة البال بهذا ، وحاولت أن تختع زياً يكون فيه حسن وتشويق (٧) .

إن هذه الأمور على صغرها ، تبين إلى أي حد كان الشدياق دقيق الملاحظة لجوانب الحياة المختلفة في الشعوب التي عاشها ، وقد رجح كفة المرأة الأوروبية على العربية ، في عدم مفاالاتها في اقتناء الجواهر (٨) .

تحدث الشدياق عن الآداب العامة عموماً ، وآداب المائدة خصوصاً عند العرب وعند الافرنج ، ودافعه في ذلك كما يقول عن نفسه " غير أن الغارياق كان يرى الأدب كله في المأدبة " (٩) ، لذلك ساءه من الدروز في لبنان ، سوء الأدب على المائدة ، ولكنه بالمقابل ، مدح أخلاقهم ، فهم لا ينطقون بالكلام البذي ولا وجود للفاحشة بينهم (١٠) . وينتقد عادة الأمراء العرب عند قعودهم على المائدة ، فهم إذا جلسوا للمطعم

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٣٩٢ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ ، ٤٩٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٥٧٢ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٠ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٥٧٣ .
 - (٨) انظر الرجالون العرب وحضارة العرب ، ص ١١٥ .
 - (٩) الساق على الساق ، ص ١٠٨ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

" خلعوا نعالهم بالقرب منهم " (١) ، وقد أخذ على الإنجليز التزامهم الدقيق وتزمتهم الشديد ، إزاء بعض العادات على المائدة ، فضيفهم لا بعد بده إلى شي " ما لم يقدمه إليه المضيف ، وساء منهم ، مراقبة حركات الأكل ويديه ، وكشف صدور وازرعة النساء ، وخاصة العجائز عند الجلوس إلى المائدة . (٢)

عادات في الزواج

تغلغل الشدياق في المجتمع الإفرنجي ، فتعرف على عاداتهم في الزواج ، فاعجبه منها أن " أحدهم لا يتزوج امرأة إلا بعد أن يراها ويعاشرها " (٣) وربما ذهب إلى مثل هذا ، لما يراه من الأساليب الغربية في اختيار الزوجة عند العرب مما قد يؤدي إلى فشل الزواج ، خاصة عندما يقوم باختيار الزوجة للرجل ، أمه أو قسيسه أو أحد معارفه وما يصاحب ذلك من الغش في بعض الأحيان (٤) ، وأعجبه من الإفرنج ، أن المتزوج يعتزل وعروسه الناس بحيث لا يبصرهم أحد من خلق الله ، وهذا الانعزال يسمونه قمر العسل (٥) ، وربما جاء إعجابه بهذه العادة ، مما عاناه من عادة البصيرة في مصر عند زواجه ، حيث يقوم أهل الزوجة والمدعوون في البقاء في بيت العروسين انتظارا لرؤيتها (٦) ، وقد ألمح إلى أن هذه العادة تمثل مظهرا غير إنساني (٧) ، ومن الممارسات الخاطئة في الزواج عند العرب أن يتزوج كهل من صبية ، دون أن يفكر بالنتائج المترتبة على عدم التكافؤ ، ومن هذا المنطلق يرى أن المرأة في مصر والشام هي مجرد متاع للرجل دون وضع أي اعتبار لإنسانيتها (٨) ، ومن منطلق قناعة الشدياق بالطلاق عنسدد الضرورة ، فانه يعجبه من الإفرنج أنهم يتحللون من قيود الزواج بأسبب

- (١) الساق على الساق ، ص ٤٢٠ .
- (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٨٨ ، ٥٧٨ ، ٥٥٠ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٥ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ .
- (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٩٦ ، قمر العسل ترجمة للكلمة الانجليزية Honymoon . وهو ما يسمى الآن شهر العسل .
- (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
- (٧) انظر Mattityahupeled, Op, Cit, P.46 .
- (٨) أنظر الساق على الساق ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

كثيرة (١) ، ويرى أن الزواج علاقة شخصية لا تدخل للدين فيها ، وهو بهذا لا يريد إطلاق الزواج من قيود الدين ، بقدر ما يريد أن يبيح الانفصال إذا دعت الضرورة إلى ذلك (٢) ، ويأخذ على رجال الدين تزمّتهم في جعل المذهب والأديان سبباً في منع زواج أصحابها مهما اختلفت ، وهذا واضح في قوله على لسان أحد رجالات الدين : " لا تتزوجي هذا الكونه لم يسم بطرس ، ثم يقول للرجل ، لا تتزوج هذه لأنها لم تسم مريم " (٣) .

عرض الشدياق لوجهات النظر المختلفة في قضية الطلاق ، من خلال يهودي ونسрани ، ومسلم ، وإمعة ، وقد أنصف في عرض وجهات النظر كما يقول لويس عوض (٤) ، ولكنه استقل برأيه وأباح الطلاق ، مبرراً هذه الإباحة بقوله شعراً :-

مسألة الزواج كانت شمس لا	تزال طول الدهر أمراً مفضلاً .
إن يكن الطلاق يوماً حليلاً	للزواج إياناً ابتغاء فمضلاً .
فليس عندي رشد أن تحظلاً	زوجته عنه ولا أن تعضضلاً .
أن لم يصيبا للوفاق سبلاً	فدعهما قلبعلاً ما اعتضضلاً .

إيان شاء طلقاً وانقصلاً (٥) .

وهو ينسب قضية الطلاق إلى الطبع السليم والخلق القويم ، وينفي عنها الصفة الدينية والقيود الشرعية ، حتى عند مجرد نقاش يدور حولها (٦) . ومن القضايا الاجتماعية الحساسة ، التي يستنكرها الشدياق ، كثرة النسب والازدياد أعداد السكان في العالم ، فقد ألمح إلى ذلك على لسان الغارباكية بقولها : " فما العوجب إلى هذا الأكتار سوى البطر والنهم " (٧) ، وهذه القضية

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٤٢٠ ، ٤٠٢ ، انظر رأيه في الطلاق في مقامة مقمودة المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .
- (٢) انظر البحث ، ص ٣٦ ، حيث أشير إلى ذلك في المتن والهامية الثامنة .
- (٣) الساق على الساق ، ص ٢٧٨ .
- (٤) تاريخ الفكر المصري الحديث ، ٢٠٢٥ / ٢ .
- (٥) الساق على الساق ، ص ٢٧٦ . وردت شأاً للمفرد والأصل أن تكون شأاً .
- (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٥٣٦ .

بالإضافة إلى قضية الطلاق، وطرحهما بهذا المفهوم في زمن ومجتمع يرفض مثل هذه المفاهيم، يعد ذلك سابقة خطيرة وجرأة نادرة وبمثل " خروجاً على التقاليد الإسلامية " والمسيحية جميعاً . (١)

٣- القضايا الدينية

من يطالع الساق على الساق، يظهر له أن من الأسباب التي دفعت الشدياق إلى تأليفه، هو " التنديد بجماعة من الإكليروس، لم يذكر أسماءهم، إلا رمزاً، وتقييماً، ما ارتكبوه في مقتل أخيه أسعد . " (٢) ، وهو يجادلهم في هذه القضية جداً عقلياً ودينياً فيقول : " أما الدين فإن المسيح ورسوله لم يأمرُوا بسجن من كان يخالف كلامهم وإنما كانوا يعتزلونهم فقط . " (٣) والمعروف أن أخاه أسعد، كان قد تحول إلى المذهب الإنجيلي (٤) ، وتحول به هذا وتيرة الشدياق نفسه بعد أن ثورة على الوضع التقليدي، وانتصاراً للعقل على النقل، ولروح على النص . (٥) ، وقد انطلق الشدياق من هذه القضية فوجه هجومه باتجاهين :-

الأول : التهجم على رجال الدين وكشف سلبياتهم .

الثاني : نقد الفكر الديني السائد في البلاد العربية وأوروبا على السواء .

اتخذ نقده لرجال الدين في بلاد طابعا تهكمياً، وأول هجوم عليهم اتهمهم فيه بالأنانية، مورغبتهم في ترك الرعية في مهامة الجهل والغباء (٦) ، وهم في الوقت ذاته عاجزون عن " المناقضة والمباراة في شيء " بين من سبقوهم إلى كل علم وفضل . (٧) ، وهاجم إسرافهم في الدعوات والولائم، وفضل لو أن الواحد منهم " أنفق نصف دخله في كل سنة

(١) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، قضية المرأة ، ص ٣٨ .

(٢) جورجى زيدان : بناء النهضة العربية الحديثة ، دار الهلال ، ص ١٩٨ . انظر

قصة مقتل أسعد الشدياق ، شقيق أحمد فارس الشدياق ، في الساق على الساق ص ١٨٧ - ١٩٤ ، تحت عنوان عرض كاتب الحروف .

(٣) الساق على الساق ، ص ١٨٧ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

(٥) كمال اليازجي ، رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٢ .

(٦) انظر الساق على الساق ، ص ٨٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

على تحصيل أسباب العلم ، بدل هذه الولائم والمآرب التي يهيئها لزواره .^(١) ، وهم فوق ذلك كله لا يسمع المرء منهم " إلا ، ما يشين الانسان في عقله وعرضه .^(٢) ، وتهكم على جهلهم باللغة العربية ، ولم يستثن أحدا ، وهذا واضح من قوله " زد على ذلك كله جهلهم جميع .^(٣) إذ لم يكن في الدير كله من يحسن كتب رسالة في معنى من المعاني .^(٤) حتى رئيسهم لا يستطيع " أن يكتب سطرًا واحدًا باللغة العربية .^(٥) ، وأما العلاقات التي تربطهم ببعضهم لا تدل على الوثام ولا تتلاءم مع المسؤولية فان ما " بينهم من الخصام والظمن والحدق ما لا يوجد عند غيرهم .^(٦) هذا بين كبارهم ، وأما علاقة هؤلاء الكبار مع الصغار ، فانها مبنية على الاذلال والخضوع والشكوى .^(٧)

انتقد الشدياق الرهبانية ، ورأى أن تقشف الرهبان لا جدوى منه ، ودليله على ذلك " أن الله تعالى لا يهتم ان كان الانسان يأكل عدسا أو لحما ، ولم يأمر بذلك في كتبه ، إذ ليس فيه مصلحة لنفس الآكل والمأكول " (٨) ولكن الذي اتسم بالفظاعة من نقده لرجال الدين (٩) ، تعرضه لطعنهم بحيث لم ينج من هذه الانتقادات رجال الدين في الغرب ، كبارهم وصغارهم ، حيهم وميتهم ، وقد أفاد أنهم في كل ممارساتهم قد خرجوا عن سواء السبيل (١٠) .

في لبنان ومصر ، سيطر رجال الدين على المجتمع إلى درجة أن الرجل يستعين بالقسيس على زوجته ، إذا خرجت عن أمره ، والشدياق يتألم لأن الناس يولون هؤلاء القسيسين ثقتهم ويطمئنون إليهم وهم غير جديرين بذلك (١١) ، وفي مالطة فإن المرأة " تؤسّر قسيسها على زوجها وأولادها .^(١٢) والمرأة من القبط " تغسل رجلي القسيس

(١) الساق على الساق ، ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ، انظر أيضا ص ١٨٥ .

(٦) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(٨) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٧٨ .

(٩) انظر الساق على الساق ، ص ١٠٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٥٨٥ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

بيديها بما " الزهر، ثم توعي ماءها في زجاجة " (١) احتراماً وتبركاً، ولكن رجال الدين مع كل هذا " احترام والولا "، يسيئون للناس ليس في الشرق فحسب، بل في الغرب أيضاً فهم يتخذون " نساء" للخدمة فتأتي المرأة أحدهم صباحاً وهو في فراشه الوثير، وتقتضي له ما يروم منها. " (٢) ولعل الشدياق، قد وجد مبرراً في هذه الصراحة في نقده لرجال الدين، وذلك عندما رأى أن أهل فرنسا " ما زالوا يطبعون كتباً يندون فيها بصيوب رؤساء كنيستهم وقبائحهم وسفاهتهم " (٣)

اتسم هجوم الشدياق على رجال الدين بالتجريح، وكان منطلقه في بعض الأحيان عاطفياً، بسبب نكته بأخيه، ولكن الجانب العقلاني وارد في بعض الانتقادات، فهو عندما ينظر إلى الرهبانية على أنها صورة من صور البطالة، (٤) وعندما يصصر على ضرورة الحوار والمجادلة في الدين، عند اختلاف وجهات النظر، وفي مجادلاته للضوابط مدافعاً عن أخيه (٥)، يؤكد وجود الجانب العقلاني، ويفضي إلى أنه يعد " مدافعاً عن حرية الرأي في تأويل الدين " (٦)، وأنه يرفض التسليم، وإهمال العقل.

لم يتوقف هجوم الشدياق عند رجال الدين، بل تعداه إلى " ما في الدين نفسه " (٧) ومن ذلك ما أطلقه على الدين من مسميات، فهو يسميه سلعة وبضاعة، ويسمي كتب الدين دفاتر أسعار البياعات، كما رأى أن الدين من صنع رجال الدين ينسجونه على عواهم (٨). بعد الشدياق " من أسبق من نادوا في العالم العربي، بحق الإنسان في حرية العقيدة الدينية، ومن أشدهم حملة على التعصب الديني، وتحدياً لطغيان الكهنوت " (٩) وهو لا يجد مبرراً لهذا الطغيان، خاصة وأن رجال الدين " قد نبذوا وراءهم خلاعة الدين وجوهرة ونتيجته " (١٠)، ويرى أنه لا يحق لرجال الدين

(١) الساق على الساق، ص ٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٤) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٨، ١١٨.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ١٧٧-١٨٨، الضواري: المطران.

(٦) الرحالون العرب وحضارة الغرب، ص ٣٤.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(٨) انظر الساق على الساق، ص ١٩٥، ١٩٦، ١٨٣.

(٩) تاريخ الفكر المصري الحديث، ٢/٢٤٤.

(١٠) الساق على الساق، ص ١٨٣.

التعرض لمعتقدات الناس ، وعليهم تركهم يختارون فالغريزة هي التي تهديهم وهذا واضح في قوله : " فابن آدم من يوم أن يستهل بالبكاء ، إلى أن يبلغ أربع عشرة سنة ، يعيش مستغنياً عنا إذ الغريزة تهديه إلى ما يلائمه ويصلح له . " (١) ، ويرى أن العلاقات الإنسانية يجب أن تبنى على الصفة الإنسانية ، لا على أساس اللباس وتفاوت الجنس والبلد والدين ، ومن خالف ذلك ، فإنه يكون بعيداً عن مركز البشرية والإنسانية . (٢) ومن هنا كان " الدين عند مرادفا للتمدن ، والتمدن مرادفا للحرية . " (٣) ، وهو لذلك يرفض كل أنواع الصراع الطائفي والمذهبي ، فهو لما تهكم على هذه الظاهرة ونهذها . (٤) وهو بوجه دعوة مفتوحة إلى المعنيين بهذا بقوله : " وأنتم ياسادتي الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة اعلموا هداكم الله أن فرق الأديان لا يمنع من الألفــــة والمخالفة . " (٥) ، وتأكيده لإيمانه بالعقل فانه " لا يؤمن بالكرامات والمعجزات . " (٦) لذلك يسخر من تفسير الأحلام التي كانت جزءاً من مهمته في مالطة (٧) ، ويأخذ على المالطيين هوسهم بالدين ، وارتباطهم القوي بالكنيسة (٨) ، ويسخر من رجل دين تكنت منه الوسواس حتى اعتقد أنه قادر على إحياء الموتى ، كما فعل النبي إلياس . (٩) وهذه الأفكار عند الشدياق تشير إلى أنه " لا يعنيه من هذا الوجود ، إلا ما تدركه الحواس ، وأما ما وراء الطبيعة ، فيرى البحث فيه تهلبساً ومهارشة " (١٠) ولكن هنا فاخوري يرى أن الشدياق قد استولى الهوى على بصيرته في هذه المواقف من الدين . (١١) ، وأخذ عليه رثيف خوري تنكره لرجعية رجال الدين ، في الوقت الذي كان متعاوناً مع الرجعية العثمانية (١٢) ، ولكن

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٢٠٩ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .
 - (٣) جورج هارون ، حوار ، ٦ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٤ .
 - (٤) انظر الساق على الساق ، ص ١٨٣ ، ٢٢٣ ، ٤٧٤ ، ٤٠٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ .
 - (٦) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٥٤ .
 - (٧) انظر الساق على الساق ، ص ٤٤٤ — ٤٥٣ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٧ .
 - (١٠) مارون عبود ، صقر لبنان ، مدار مارون عبود ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٤ .
 - (١١) حنا فاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ١٠٤٤ .
 - (١٢) رثيف خوري ، عصر الإحياء ، والنهضة ، نصوص التعريف في الأدب العربي ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٣١٦ .

أجراً هذه الآراء ما أورده شفيق جبري بقوله : " على أن الذي اعتقده أن الشدياق لنـم يهتم بدين من الأديان ، على الرغم من شعوره بضرورة الدين للمجتمع . " (١) وربما كان فسي هذا الرأي شيء من المبالغة ، إذ أن الشدياق رجل عشق الحرية في التفكير ، لذلك كان رأيه البحث المستمر عما يتلاءم مع هذه الحرية ، فإذا ما أضيف إلى ذلك أنه كان في كـل مرة ينتقل من مذهب إلى مذهب ، أو من دين إلى دين ، يكثر أعداؤه ، فيبحث عن الحماية والطمأنينة ، ولما لم يجد هذا اللون من الحماية التي تتيح له حرية التفكير والانتماء ، واصل مساعيه للحصول على الجنسية الإنجليزية حتى حصل عليها . (٢)

يخلص المرء مما تقدم إلى أن الشدياق كان يدعو إلى حرية الاعتقاد ، ويرفض التعصب الديني ، والصراع المذهبي ، ويرفض ما وراء العقل من المفيات ، كما أراد أن يكون لرجال الدين دور إيجابي في الحياة الثقافية والاجتماعية ، وألا يستغلوا مراكزهم ، وحب الناس لهم للاستيلاء على مقدراتهم وإيقاع الظلم بهم ، بالإضافة إلى رفضه فكرة الرعبانية لأنها تمثل عبادة سلبية في مواجهة الحياة ، فهي عبادة من عبادة البطالة .

٤- الأوضاع السياسية

عند الحديث عن الأوضاع الثقافية ، ملاحظ المتتبع أن الشدياق قد سَخف اهتمامات الحاكم ، وأبرز بحالة ثقافته ، وهو من هذا المنطلق ، يعتبر الحاكم في زمنه عند العرب غير كفؤ لتحمل المسؤولية ، فهو منعزل تماماً عن الحياة الثقافية والاجتماعية ، حيث يمضي وقته وهو " قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ، ولا سمير له فيسامره . " (٣) ومثل هذا الحاكم لا يقدر على اختيار مساعديه الأكفاء ، فيتحدث الشدياق عن نموذج من هؤلاء الحكام إشارة لا تحريداً فيقول في الحاكم أنه قد فوّض أموره المعاشية إلى رجل لنيم شرس الأخلاق . " (٤) ولم تكن القوانين المعمول بها أحسن حالا ، وهي غالباً ما تكون مزاجية ، فالمعتدي " إذا فرّ من القصاص أخذ بذنبه أهله أو جيرانه ، أو ما شئته ، أو ما عونه ، وقطع شجره وأحرق

(١) شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٥٢ .

(٢) ؟ أشهر الحوادث وأعظم الرجال ، الهلال ، ١٤٠ ، ١٨٩٤ ، ص ٤٢٠ .

(٣) الساق على الساق ، ص ٤٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

منزله . " (١) والفلاح — باعتباره الوسيلة الإنتاجية آنذاك — مستهدف من رجال السلطات الدينية والزمنية ، " فما يكاد يتخلص من ورطة أحد هـمباءه الا ويقع في شرك الآخر . " (٢) وبعثدي الأمرء على حقوق الشعب ، ولا يستطيع أحد مقاضاتهم ، ومن تجراً على ذلك فإن القاضي يوظف القانون والقضاء لخدمة الأمرء والأقوياء (٣) حتى أن المواطن ربما يتمتع للعقاب المهيين الصارم ، لمجرد أنه أبدى رأياً أمام خادم الأمير (٤) .

إن هذه الصورة القائمة للعلاقة الحاكم بالمحكوم ، تنبئ إلى حد بعيد عن سوء الأوضاع السياسية والإدارية التي كانت قائمة في الجبل اللبناني ، وربما انسحبت هذه الصورة على بلاد أخرى ، وفي منتركاً للترك على العرب سلوة وتجبر ، حتى أن العربي لا يحل له أن ينظر إلى وجه التركي ، وكان الجندي التركي يدخل الحانوت ويبيع ما فيه ، ويأخذ ما يشاء دون أن يدفع الثمن ويخرج شاتماً المصري صاحب الحانوت (٥) ، ويتهكم الشدياق على هذا الوضع تهكماً لا زعاً مؤلماً فيقول : " إن الترك هنا عقدوا مجلس شورى ، استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة أن يتخذوا لهم مركباً وطيفاً من ظهور العرب . " (٦) والإفرنج في مصر لهم حرية زائدة . " (٧) أتاح لهم أن يكونوا فوق أهل البلاد .

ترتب على هذا الوضع السياسي ، فساد إداري ، فالمناسب لا توزع على مستحقها بل " إن أكثر الناس نفعا وشغلا أقلهم أجراً وجعلاً ، ومن لم يحسن إلا التوقيع أحسن المحل الرفيع . " (٨) ، وهذا بالإضافة إلى تفشي البطالة فيقول على لسان الراعب : " لا منافع نافعة في بلادنا يمكن للإنسان أن يتعلمها ويعيش منها . " (٩) ، ويضع الشدياق الحقيقة أمام عيون أمته ، فيخبرهم أن هذا الوضع غير سوى ، ففي بلاد الانجليز " كل الناس في الحقوق البشرية عندهم متساوون . " (١٠) والحاكم عند هؤلاء " لا يهـم من المرء إلا عله ، وفي

-
- (١) السان على الساق ، ص ١١٤ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .
 - (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٦ ، ٢٢١ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٦٧ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ٥٨٩ .

حديثه عن قصة مثوله بين يدي حاكم مالطة ، أوحى للقارئ بهذا ، على الرغم من أن عقده كانت من كل الحكام شرقا وغربا ، حتى عرف هذا الفرق بنفسه (١) ، ومن منطلق رفضه للتعسف السياسي والإداري في بلاده ، فقد أبدى إعجابه بالديمقراطية عند الفرنسيين عندما تحدث عن حرية التأليف والأديان (٢) ، وهو بهذا يوازن ويقارن بطريقة غير مباشرة بين حكم القانون في إنجلترا ، والحكم الشخصي التعسفي الذي ألفه أبناء المشرق في القرن التاسع عشر . (٣) ، ولكنه مع إعجابه بديمقراطية الحكم في الغرب فإنه لا يخفي "نقمة الشدبة على الغربيين ، لأنهم استثمروا الشرق وأفسدوه . (٤) " ويمبر عن ذلك بقوله : " لا بارك الله في الساعة التي أرتنا وجوه العجم وأربارهم . (٥) .

تعتبر كراهية الشدياق لأتانية الأوروبيين ، ورفضه لسياسة الترك مع العرب في مصر ، وممثلهم في لبنان خاصة ، وبلاد الشام عامة إشارة إلى حسه القومي ، وهو بهذا الرفض يكون قد "نفخ في عصر روح القومية . (٦) ، ويرى لويس عوض أن الشدياق لا يختلف عن أي شاب عربي مثقف بدأ حياته "شديد التبرم بالترك ، شديد الضيق بعدوانتهم على العرب . (٧) ومع وجود هذا الحس القومي عند الشدياق فلا يكاد القارئ للسباق على الساق ، أن يجد أثرا للثورة الفرنسية سوى قوله : " وناهيك أنهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة ١٧٩٣م ، أقاموا امرأة عريانة على مذبح إحدى الكنائس وسجدوا لها . (٨) " وهذا القول له دلالات منها تسميته للثورة فتنة ، كما أنه لم يلفت نظره من هذه الثورة سوى هذه الظاهرة ، ومنها أن "اهتمامه بالسياسة في أوروبا كنسان هامشيا . (٩) ، ومن هنا يتضح أنه قوم الثورة تقيما خلقيا مبنيا على مظهر واحد (١٠) .

- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٤٥٤ .
- (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .
- (٣) تاريخ الفكر العربي الحديث ، ٢٧٢/٢ .
- (٤) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ٥٥ .
- (٥) الساق على الساق ، ص ٢٦١ .
- (٦) شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٦ .
- (٧) لويس عوض المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، الفكر السياسي والاجتماعي . دار الهلال ، ط ٣ ، ص ٢٤٩ .
- (٨) الساق على الساق ، ص ٦٣١ .
- (٩) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث - الفكر السياسي والاجتماعي ص ٢٥٨ .
- (١٠) انظر الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ٨٥ .

يبدو أن الأوضاع السياسية في العالم العربي كانت محور اهتمام الشدياق وممن أجل هذا، ظل باحثاً عن روح الديمقراطية. (١)، في عصر كانت الأرواح فيه تسلب دون أي اعتبار لقيمة الإنسان ووجوده. (٢)، وكان أسعد الشدياق واحداً من هؤلاء الضحايا حيث قضى على يد السلطة الدينية، وهذا الأمر يفضي للحديث عن علاقة السلطتين ببعضهما في عصر الشدياق إذا جاز التعبير.

كانت السلطان الدينية والزمنية على اتفاق فيما يبدو، ولو كان الأمر في يد السلطة الزمنية، لما أقدم القسيس على قتل أسعد، ولكن ذلك كان يعلم الأمر المحلي والسلطة التركية، ولكنهما لم يحركا ساكناً على الرغم من محاولة الشدياق اغراء السلطان التركي بقتل أخيه حيث اعتبر قتل القسيس لأخيه، إهانة لذات السلطان (٣)، وهذه المهادنة بين السلطتين الزمنية والدينية كانت على أدنى المستويات أيضاً، وهذا واضح من جبابرة القسيسين والأمراء للضرائب. بالشكل الذي يروونه مناسبا، دون أن يعترض فريق منهما على الآخر. ويتضح هذا في قول الشدياق بأن المزارع غرض لأغراض إمامه في الدبسن وعصا يتوكأ عليها من هو فوقه من المشرين والسائدين المسيطرين. (٤) ويبدو من هذا القول، أن الضابط الذي يحكم هذه العلاقات، هو نظام اقطاعي، ضحيته المزارع، والمستفيد منه السلطان الدينية والزمنية.

يعتبر نداء الشدياق للسلطان التركي واغراءه بالسلطة الدينية، دعوة غير مباشرة لفصل السلطتين، وقد رأى مثل هذه التجربة في بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية (٥) لذلك نبه إلى أن القانون المدني يحمي الجميع، ويبين الحوار والنقد كما هو الحال في فرنسا (٦)، وهو بهذه الإشارة يدعو إلى سيادة الأولى على الثانية. (٧) أي الزمنية على الدينية.

(١) شفيق جبيري، أحمد فارس الشدياق، ص ٩٦.

(٢) انظر الساق على الساق، ص ١٨٧، وقصة أسعد الشدياق، ص ١٨١-١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٤) الساق على الساق، ص ١٢٠.

(٥) انظر الرجالون العرب وحضارة الغرب، ص ٦٢.

(٦) انظر الساق على الساق، ص ٧١٩.

(٧) الرجالون العرب وحضارة الغرب، ص ٦٢.

يبدو من هذا العرض للأوضاع السياسية ، أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة مبنية على التسلط ، وأن السلطتين متفتتان لالتقاء مصالحهما ، وهذا الوضع إنما جهلاً لعدم وجود قوانين تضبط جميع العلاقات ، فإذا ما أضيف إلى ذلك جهل الحاكم والقسيس اللذين يمثلان السلطتين ، تصور المرء إلى أي مدى كانت الرعاية في حالته من الإحباط والخوف على الأموال والأرواح ، مما دفع الشدياق أن يهاجم هذه المظاهر وينادي بتغييرها .

٥- الأوضاع الاقتصادية

التفت الشدياق إلى الأوضاع الاقتصادية في الشرق والغرب ، وساء منها أوضاع الفلاح في الجبل اللبناني (١) ، وتسلط رجال السلطتين على إنتاجه ، بالإضافة إلى ما يعانيه المجتمع في المكان ذاته بسبب البطالة وقلة الأعمال (٢) ، وقد قارن فلاح المغرب بفلاح الانجليز ، وتوصل إلى أن الاثنين يشتركان في البؤس ، و زاد الانجليزى على العربي في الجهل ، ومع ذلك فإنه لم يقتصر علاجاً لهذا العرض ، فهو يرى أن الفقر والغنى في الدنيا لا بد منه ، مثل وجود الجميل والقيبح (٣) ، ولكنه يرفض الفقر المدقع ، ويستشير همة وعواطف الأغنياء لمساعدة الفقراء ، متسائلاً : كيف بني العالم على الفساد ، وكيف يشقى فيه الفرد رجل بذ ألفان ، ليسعد رجل واحد . ؟ (٤)

تحدث الشدياق أيضاً عن النظام الإقطاعي عند الانجليز وعلاقة هذا النظام بالسلطة الدينية ، والوضع الاقتصادي القائم في ظل هذا النظام ، فيصف بلاد الانجليز قائلاً : " فإنك لا ترى فيها ثرياً ، إلا القسيس وخولي الأرض ، وهو الذي يضمن المزارع والحقول من مالكتها . " (٥) وأما الفلاح فهو مسحوق بين الرحويين وصورة الآلة تدور مداراً محتتمناً فلا في دورانها لها حظ وفوز ، ولا في وقفها راحة . " (٦) ويظهر هذا التمايز الطبقي في

(١) انظر الساق على الساق ، ص ١٢٠ ، ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٣٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٦ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٩٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩١ .

المدن أيضا ، وتتمكس سلبياته على الحياة الاجتماعية والثقافية ، ففي كامبريدج Cambridge وأكسفورد Oxford "جل الطلبة من الأغنياء" (١) ، وفي الزواج ، فالمرأة الفقيرة كاسدة وأن كانت جميلة (٢) وإذا رغب الرجل الإنجليزي بالزواج ، فإنه لا يتزوج "عن حب بل عن طمع في زيادة المال" (٣) وهذا الوضع أدى إلى تفشي الزنا ، وخاصة بين أفراد الطبقة الفقيرة ، ويتألم الشدياق لوضع المرأة الفقيرة ، التي يدفعها فقرها للسقوط فيحمل الكنيسة والدولة مسئولية ذلك (٤) ، ويرى لو أن الطرفين اعتنبا "بتجهيزهما بما يقدر على الزواج الشرعي بعد تربيتهم وتهذيبهن لكن يُلذَن الأُولاء الصباح" (٥) وهو بهذا يدرك أن هذه الأمراض الاجتماعية ، إنما جاءت لوجود خلل في التركيب الاجتماعي ، ولكنه مع كل ذلك لا يشور ، وأقصى ما يدعو إليه أن الناس عباد الله في أرضه على اختلاف أحوالهم ، وهم كالجسد الواحد كما يدعو إلى كفاية الفقير حاجته من مال سيده ويؤكد مذكرا الأغنياء ، أن حاجة الغني إلى الفقير أشد (٦) .

يتضح من هذا العرض أن الشدياق يحاول الانتصاف للفلاح والانتصاف للفئة الكادحة" (٧) وهو لا يعد في هذا كله ثائرا على الإقطاعية" (٨) وليس في كمال هذه المواقف ، ما يشير إلى وجود أفكار ثورية ، بل مجرد "انطباعات ومواقف" (٩) و"التفاتات الاقتصادية" (١٠) رآها الشدياق "بعين الأديب الفنان" (١١) وقيمة

-
- (١) انساق على الساق ، ص ٥٥١ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩٢ .
 - (٧) جورج هارون ، حوار ، ١٩٦٣/٦ ، ٨٢ .
 - (٨) عقرب لبنان ، ص ١٩٥ اعتبره مارون عبود ثائرا على الإقطاعية في الوقت الذي رأى لوبس عور أنه لا توجد عند الشدياق أية أفكار ثورية .
 - (٩) المؤثرات الأجنبية في الأدب المصري الحديث ، الفكر السياسي والاجتماعي ، ص ٢٤٧ .
 - (١٠) تاريخ الفكر المصري الحديث ٢٤/٢٤٧ .
 - (١١) المؤثرات الأجنبية في الأدب المصري الحديث ، الفكر السياسي والاجتماعي ، ص ٢٥٥ .

كل هذه الالتفاتات تبدو في التنبيه إلى بعض المظاهر الإقتصادية ، وما يعانيه الفلاح (١) ، وليس ظهور بعض النزعات الاشتراكية في مسألة التمايز الطبقي (٢) ، فـ في كتابات الشدياق ، غير دليل على أنه "إنساني المذهب" . (٣) وربما جاء ذلك أيضا تأثرا بالحركة الرومنظيقية في إنجلترا ، عندما كتب الشدياق كتابه الساق على الساق (٤)

اللغة المعجمية في الساق على الساق

صح الشدياق بأنه يحب اللغة ويميل إليها ، وأن ميله هذا غريزي منذ صغره فكان يعمد النظر فيها ، ويحب التقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب (٥) وقد لعبت بعض العوامل في تنمية هذا الميل ، منها ، أن أباه " قد أحرز كتباً عديدة في فنون مختلفة " . (٦) ثم إنه عندما سافر أبوه إلى دمشق " أقام مع والدته في البيت يتعامل في النسخة " . (٧) ، لذلك فلا غرابة أن يكون صاحب " ذهنية تعالج المسائل اللغوية " كما كان يعالجها الأقدمون من كتاب المقامات " . (٨) ويجد قاري " الساق على الساق " ألفاظاً غريبة ، تعرض عرضاً أدبياً ، ومن جملة المترادف والمتجانس وما أشبه ، ثم هي ذهنية ، تدرس النظرية الصوتية فتؤمن بها ، وتحاول تطبيقها ببيان أسرار اللغة وسرر الوضع " . (٩) ويرى محمد أحمد خلف الله ، بالإضافة إلى ذلك أن الشدياق ، قد تفوق في باب اللغة عن باب الأدب (١٠) ، لذلك نجده " يهجم في اللغة في كل موقف " . (١١) فبينما " هو يكتب كتابه الخالد الفارياق ، إذا به يستوقفك أمام نهر من الألفاظ " . (١٢) وقد أشار الشدياق نفسه إلى مثل هذا في مقدمته تحت عنوان " تنبيه من المؤلف " عندما يبين

- (١) شفيق جبيري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٧ .
- (٢) جورج هارون ، حوار ، ٦ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٢ .
- (٣) شفيق جبيري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٦ .
- (٤) انظر الرجالون العرب وحضارة العرب ص ٤٤ .
- (٥) انظر الساق على الساق ، ص ٩١ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٩١ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .
- (٨) محمد أحمد خلف الله ، أحمد فارس الشدياق وآراءه اللغوية والأدبية ، مصر ، ١٩٥٥ ، ص ٩٦ .
- (٩) المرجع نفسه ، ص ٩٦ .
- (١٠) المرجع نفسه ، ص ٩٢ .
- (١١) سقر لبنان ، ص ١٨٥ ، الفارياق تعني الساق على الساق .
- (١٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ .

أن من أهداف تأليفه هذا الكتاب " إبراز غرائب اللغة ونوادرها " (١) ومن هنا جاء حكم Mattityahupeled ، من أن غرائب اللغة في الساق على الساق تبدو وكأنها هي جوهر العمل . (٢) وقد ألمح أحمد حسن الزيات هذه الميزة في الشدياق وأشار أنه كان " حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذاهب البيان " (٣) ، وأضاف أنيس المقدسي ، أن الغرائب التي وردت في الساق على الساق على الرغم من قدمها ، فإنها " تعتبر أدق تعبيراً عن المعنى المراد " (٤) .

نقد الشدياق " القاموس المحيط " للفيروز آبادي (ت ١٧٨١ هـ) الذي كان " قد ألهم أن سيأتي بعده من يفوض في قاموسه " (٥) كما يقول الشدياق ، ولذلك فإنه يعتبر " أول من طرق أبواب معجمات اللغة العربية من المتأخرين ، واستشار كوامنها وجرّد نفسه لنقد هاء ومناقشة أصحابها " (٦) فهو يتوقف أحياناً ليناقش بعض القضايا اللغوية مع صاحب القاموس ، أو يعترض عليها ، فيقول مثلاً : " ومن الغريب أن صاحب القاموس ، ذكر الأسته والساهي ، ولم يتكرم علينا بمؤنثهما ، فأنا انتبهما هنا عــــن إنــــه . . " (٧) ، وهو يصرح أنه دائماً يحمل معه القاموس المحيط ، وشرح الأشمونسي (ت ٩٠٠ هـ) ، في أسفاره وتنقلاته (٨) ، واللغة شاغلة في بلاد الانجليز وفرنسا ، ومالطيه وهو لشدة هذا الاهتمام ، كان يتتبع الأخطاء ، ليس في المعاجم فحسب ، بل عند المحدثين أيضاً ، لذلك رعد أخطاء الأساتذ الكبار مدرسي اللغة العربية في مدارس باريس . (٩) وكانت لغة المالطيين من أهم الأمور التي رأها بحاجة إلى الإصلاح وقد سمع بطلمب

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٦٥ .
 - (٢) انظر Mattityahupeled, Op,Cit, P.31 .
 - (٣) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأرب العربي ، دار النهضة ، القاهرة ، ص ٤٧١ .
 - (٤) أنيس المقدسي ، الفنون الأدبية وأعلامها ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٨ .
 - (٥) الساق على الساق ، ص ٨١ .
 - (٦) حسن السندوبي ، أعيان البيان ، مصر ، ١٩١٤ ، ص ١١٤ .
 - (٧) الساق على الساق ، ص ٤٣٢ ، انظر أيضاً ، الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، بيروت ، ١٩٧٨ ، فصل السين ، باب الهاء .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٥٢٩ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٩٣ - ٧٠٧ .

الحاكم الإنجليزي الذي كلفه بهذه المهمة (١)، وندب نفسه لمحاربة الركافة، فتهكمهم على أسلوب القس والكهنة والمطارين، في رسائلهم وخطبهم، وكان تهكمه على الأخيرة مدعاة للضحك أكثر من الأمور الأخرى (٢)، ومع كل هذا لم يكن يروق له أن تكون اللفظة صعبة، لذلك سخر من طرق التأليف في النحو العربي (٣)، واعترض بشدة على المترجمين الذين يترجمون من اللغات المشرقية إلى اللغات الإفرنجية، لأنهم يخطئون فيها خبط عشواء، على حد تعبيره (٤).

من أهم القضايا اللغوية المطروحة في الساق على الساق، علاقة الصوت (الحرف) بالمعنى، وفي هذا الصدد أورد نموذجاً لتوضيح هذه العلاقة فقال: "فمن خصائص الحرف الحاء السعة والانبساط، نحو الابتاح والبداح، والبراح، والأبطح، والابلندراح والجح، والروح والمرتج،... (٥)، ثم تحدث عن خصائص حرف الدال والباء، وهـــــ في هذا المقام يأخذ على الإمام اللغوي ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) أنه أورد من الخصائص أحياناً ما لا ينبغي إيرادها،... (٦).

ومن القضايا أيضاً المترادفات، وهي كثيرة، وقد اعترف بكثرتها، واشترط على القاري، ألا يسطر شيئاً منها، وذلك لكثرتها فيما وجد القاري خمسين لفظة بمعنى واحد (٧)، وقد أفاد أن المترادف لا يعني التساوي، وإنما قد يقوم اللفظ المرادف للآخر مقام بعضه البعض (٨).

وله في الاشتقاق اجتهادات، فيقول في العمامة "أما العمامة فإن اشتقاقها فيما أرى من عم، بمعنى شمل، لأنها تعم الرأس." (٩)

- (١) انظر الساق على الساق، ص ٤٥٤، فصل إصلاح البخراى لفة أهل مالطة.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٥، حيث أورد خطبة لأحد المطارين.
- (٣) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٠.
- (٤) انظر المصدر نفسه، ص ٦٨٧.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٦٥، انظر أيضاً ص ٦٦.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٦٦.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٨٠.
- (٨) انظر المصدر نفسه، ص ٨٠، انظر نموذجاً للمترادفات، المصدر نفسه، ص ٤٨٠.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٩٠.

ومن القضايا أيضا ، دلالات بعض الألفاظ ، التي اشترك فيها جميع اللغات مثل
الصابون والقط ، والمزج (١) ، ودلالة كلمة القرن ، حيث اتفق الجميع على معناها السليمي
إلا اليهود فقد استعملوها كناية عن القوة والعزة . (٢)
وأما الأصوات ومسمياتها ، فقد أورد سيلا منها عند حديثه عن الطنبور ، والأرغن (٣)
وأحدث مصطلحات وأسماء مثل جاثليق بمعنى القسيس (٤) ، وسوقيون بمعنى الكاثوليك
وخرجيون بمعنى البروتستانت (٥) ، والفيساني ، بمعنى الفتى والوسيم (٦) ، والمستقبحة
والمستفضة ، البرنطة (٧) وشاهدي التأنيث بمعنى النهدين . (٨)
استخرج الشدياق من المعاجم اللغوية ألفاظا ، أراد أن يجعلها قيد الاستعمال
وهي كثيرة جدا (٩) ، وقد أثبت الناشر في نهاية كتاب الساق على الساق فهرسا كاملا
لهذه الألفاظ المعجمية ، من المترادف والمتجانس (١٠) ، وهذه الفرائب التي أخرجها
الشدياق من المعاجم القديمة تعتبر " أرق تعبيرا عن المعنى المراد ، ولكن التهاافت
على الإكثار منه ، يذهب برونتز الكسلام . " (١١)

الشعر في الساق على الساق

أراد الشدياق الشعر أن يخرج من إطاره التقليدي ، إذ لم يعد يرغى
بالأغاني والأشعار المتعارفة . (١٢)

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٨٩ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٠ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٨ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٧ .
 - (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٥ ، ٢٣٠ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ ، ٣٥٠ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٣ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٧١١ - ٧١٧ .
 - (١١) الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ١٦٨ .
 - (١٢) الساق على الساق ، ص ٣٩٥ .

وقد حاول محاولة عطية ، فأراد أن " بفكك أغلال القافية " (١) وذلك " تهافتا
على إحداث شيء غريب " (٢) كما قال هو نفسه ، فقال في هذه المحاولة :-
ساعة البعد عنك شهر وعام
الوصل يمضي كأنما هو ساعة
أتجمل الليل الطويل سبابة
وتتجمل لنجوم ذي تغليظك
ويخفق مني القلب إن هبت الصبا
ويذكرني البدر المنير محياك
ألا لبت شعري كم يقاسي من النوى
وأناؤه قلب يذوب تجلدا (٣)

وليس الذي أراده الشدياق تفكيك أغلال القافية فحسب ، بل إنه جاء بهذه الأبيات من
بحور مختلفة ، فالبيت الأول من البحر الخفيف ، والبيت الثاني من البحر الكامل
والثالث والرابع من الطويل .

وقد قال الشدياق إنه أمسك عن تكرار هذه المحاولة ، وهذا لا يعني الإخفاق (٤)
ومع توقفه عن المحاولة ، فإنه أراد أن يكون الشعر " طليقا من الأساليب البالية " (٥) هذا
من حيث الأسلوب وأما من حيث المضمون فقد " حمل الشدياق على شعراء العنسيات
بما يحمد معه أن نقول فيه ، إنه كان أول من نبه إلى سخافة هذا اللون من الشعر
في النهضة الحديثة " (٦) ، وأراد الشعر أن يخرج من قيود الصنعة والأغراض التي
يكون دافعها التكسب وانتظار الجوائز (٧) ، وقال في هذا الصدد بأن شعر المدح المصنوع
يجد الشاعر " في غم لفظة إلى أخرى ، ما يجده من يعاني لضم نقيضين مختلفين " (٨)
ومن هنا فقد رأى شعره في الحمار مع صدق الإحساس ، أفضل وأقل عناء من شعر يقاسل

-
- (١) صقر لبنان ، ص ١٣٠ .
(٢) الساق على الساق ، ص ٣٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٥ .
(٤) ذكر مارون عبود أن الشدياق أخفق في هذا المجال ، وأخفق من جاء بعده ، دون
أن يعلل قوله . انظر مارون عبود ، مجدرون ومجترون ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٩٦ .
(٥) حنا فاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ١٠٤٥ .
(٦) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١١٨ .
(٧) انظر الساق على الساق ، ص ٢٥٠ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ .

في السرى وهو متكلف ، حتى لو قال الناس للأولى حمارية وللثانية سرية . (١)
نقد الشدياق شعر المناسبات من خلال شعر قيل في السرى ، حيث يقول الشاعر
شعرا في كل حركة من حركات مولا ، عند حك جسمه ، أو عند ما يعطس ، أو يسهل وأعطس
زلسلك .

عطس السرى فكلنا يبكي دماً
وارتاع الأرضون والأفلاك .
حرس الإله دماغه عن عطسة
أخرى تموت برعبها الأفلاك . (٢)
وقوله :

قد أسهل اليوم السرى ولكننا
فاستبضعوا خزا إليه مطرزا
فمن غفي إسهاله التسهيل
وتسابقوا إن البطي قتيلاً . (٣)
ومع أن الشدياق حمل حملة كبيرة على الشعر من حيث أسلوبه وأغراضه ، إلا أنه ظل مشل
بقية الشعراء " بكى الطلول كما بكوا ، وقال الفزل الكاذب مثلهم ، مع علمه أنهم لقصي
ضلال مبين " . (٤)

يقر الشدياق بأنه لا يختلف عن شعراء المناسبات ، على الرغم من رغبته الشديدة
في التجديد ، فيقول معترفاً بأنه لا يختلف عن شعراء المناسبات وأن في شعره بعضاً منه :
رأوا دخان قميني صاعداً فجسرى
بالماء قوم ليطفوا سورة التهب .
فقال بعض ، أقين أنت ؟ قلت نعم
أقين شعراً وعندى معمل الكذب . (٥)
وعلى الرغم من أنه يعترف بأنه مقلد ، إلا أن الزيات مع ذلك اعتبره " سابقاً مجيداً " (٦)
ورأى يوسف أسعد داغر بأنه " شاعر عميق الغور ، واسع المدى ، تصويري الفسـن " . (٧)
ولكن في نشره من جمال الانطباع وحسن الاختراع (٨) ، ما يعوضه عن التقصير في مجال
الشعر .

- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٣٧٥ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .
- (٤) صقر لبنان ، ص ١٣٠ ، هذا القول لمارون عبود ، جميل ولكنه غير دقيق ، لأن بكاء
الأطلال ليس دلالة تقليد ، وبخاصة إذا كان من شعراء العصر الجاهلي .
- (٥) الساق على الساق ، ص ٦٧٨ .
- (٦) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٤٧١ .
- (٧) يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، لبنان ، ١٩٥٥ ، ص ٤٧١ / ٢ .
- (٨) أعيان البيان ، ص ١١٥ .

الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشدياق

الممدوح :-

أكثر الشدياق من المدح ، وهو في مدحه ، يبدأ بالوقوف على الطلول ، أو بالطريقة الفزلية المعروفة ، وقد تشغل المقدمة الطللية أو الفزلية في بعض مدائحه نصف القصيدة وهذا هو حال عصره ، وأغلب مدائحه كانت تقريبا من السلاطين وأصحاب الجاه والمناصب (١) ومن هذا المنطلق اعتبره لويس عوض نموذجاً " لشاعر القبيلة المداح الهجاء " ، بالولاء الشخصي لا بالولاء المذهبي . (٢) انطلاقاً من كونه قد مدح زعماء في الشرق والغرب فسي ظروف مختلفة تحقيقاً لمصلحته ، ولم يقصر مدحه أو هجاءه دفاعاً عن مذهب سياسي أو ديني فإذا كان هذا ما يعنيه عوض ، فإن ذلك لا يدين الشدياق ، وبخاصة في ظل الظروف السياسية والاجتماعية في زمنه .

مدح الشدياق السلطان عبد المجيد ، بمناسبة الحرب الروسية التركية فسي قصيدة طويلة مطلعها :-

الحق يملو والصالح يعمّر
والزور يمدح والفساد يدمر . (٣)

وفي القصيدة إشارات تاريخية إلى اليهود والمواثيق التي أبرمت بين الطرفين ، التي نقضها الروس فيقول في ذلك :-

نقضوا اليهود وكان هذا رأبهم
لوماً وللعديان بغياً أضمر . (٤)

وفي القصيدة دعوة إلى الجهاد ، لفوز الروس برا وبحرا ، وقد استغل العاطفة الدينية لهذا الغرض بقوله :-

لا تسمع لأجر أسرفي أوطانكم
بدل النداء ولا ينجس منبر . (٥)

ثم ينطلق لممدح السلطان ، فيصفه بصفات عامة ، كالإخلاص ، والكرم والفضل . وممدوح عبد القادر الجزائري في قصيدة طويلة مطلعها :-

(١) انظر الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ١٢٩ .

(٢) العوثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، الفكر السياسي والاجتماعي

ص ٢٤٨ .

(٣) السابق على السابق ، ص ٦٥١ ، انظر القصيدة كاملة ص ٦٥١ - ٦٥٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥٢ .

ما دام شخصك غائباً عن ناظرٍ لي ليس السرور بخاطرٍ في خاطري .
وهو في كل مدائح واحد ، وكل مدوحيه يشتركون في صفات واحدة ، والأسلوب المتبع
في هذه المدائح واحد .

الهجاء :-

برع الشدياق في الهجاء " حتى لا يكار شاعر في عصره أن يجاربه . " (١) فهو
" سبّاب شتام " (٢) ، والغريب أن لديه " قدرة أن يمدح الشخص أو الشيء " ويذمُّه
في وقت واحد معاً . (٣) ، وهذه تعد علامة على " مقدرة عند الكاتب أو الشاعر . " (٤)
وتعزى هذه الصفة عند الشدياق إلى أنه كان " ذا طبيعة متغيرة ، وعاطفة متقلبة . " (٥)
فقد قال يهجو أمير الدروز وصحبه لخشونتهم على المائدة :-

في شفر كل منهم سكينٌ —————
وسلاحه الماضي فأين المَطْعِمُ ————— . (٦)
ثم عاد واعتذر عن هذا الهجاء في قوله :

قد كان طبع أبي رامة أنفه —————
بهجو لأن الهجو وفق جنابيه ————— .
لكنما هذا الخبيث نهائه إذ —————
مُرِجَتْ حلاوته يمر لسانيه ————— . (٧)
فهو بقر بأن الهجاء في طبعه ، عن هنا كانت قدرته عليه أكثر من غيره من الأغراض ، ومن
أمثلة هجو الشيء ومدحه في وقت واحد ، ما قاله في باريس ، فقد مدحها في قصيدة
لويلية مطلعها :

أذي جنّة في الأرض أم هي باريس —————
ملائكة سكانها أم فرنسيه ————— . (٨)
وقال يهجوها :

أذي عبقر في الأرض أم هي باريس —————
زبانية سكانها أم فرنسيه ————— . (٩)

(١) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٢١ .

(٢) عقرب لبنان ، ص ١٣٨ .

(٣) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ .

(٦) الساق على الساق ، ص ١٠٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٦٥٥ ، انظر القصيدة كاملة ، ص ٦٥٥ — ٦٦٠ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٦٥٥ ، انظر القصيدة كاملة ، ص ٦٥٥ — ٦٦٠ .

وفي الثانية ، ذم رجالها ونساءها ، وأكلها وشربها ، وفسادها ، وظلم سكانها
وحبهم للمكسب الحرام

الرشاء :

تسوفي للشدياق ولده الصغير أسعد ، ودفن في ضواحي لندن وذلك سنة ١٨٥١ م ، وكان ابن عامين اثنين (١) ، وكانت وفاته لعدم وجود أطباء * في قرى الإنجليز الصغيرة ، كغيرها من قرى البلاد . * (٢) ، وقد عانى الطفل من العرش إلى درجة أن والده * هو أول والد دعا على ابنه بالموت من شفق وحنو . * (٣) فقال يرثيه :

الدمع بعدك ما ذكرتك جـار والذكر ما وارك تـسـرـبـار .
ياراحلاً عن مهجة غادرتـها تصلي من الحشرات كسل أوار .
خداً وهمت فأين بعدك مهجتي ما في حشاي سوى لهيب النار . (٤)
وهي قصيدة طويلة ، حاكي فيها مرثية التهامي الأندلسي (ت ٤٢٦ هـ) لولده الصغير ، وهي
رائية أيضاً (٥) ، وتتبعها في الوزن ، وتعابير كثيرة ، ومرثية التهامي الأندلسي مطلعها : -
حُكِّمَ العنية في البرية جـار ما هذه الدنيا بدار قـسـرـار .
بينما يرى الإنسان فيها مُخـبـراً حتى يرى خيراً من الأخبـار . (٦)
ومن تضمينات الشدياق من هذه القصيدة قوله :

أبني ما يجدي التصبر قولهم حُكِّمَ العنية في البرية جـار . (٧)

- (١) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٢٧ ، أسعد المقصود في هذا
الموضع ، هو ابن الشدياق ، وقد مات طفلاً صغيراً ، ويبدو أنه سماه كذلك على اسم
أخيه أسعد الذي سبق الحديث عنه .
- (٢) الساق على الساق ، ص ٦٠٦ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٦٠٦ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٦٠٦ .
- (٥) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٢٧ .
- (٦) علي بن محمد التهامي الأندلسي ، ديوان أبي الحسن التهامي ، تحقيق علي بخيت
دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٤٧ ، وقصيدة التهامي هذه غير قصيدة ابن نباتة في رثاء ولده
حيث توفي ابن نباتة سنة (٧٦٨ هـ) ومطلع قصيدته :
الله جارك ان دمعي جـار ياموحش الأوطان والأوطـار .
انظر بهذا الصدر ، مخير صالح ، رثاء الأبناء في الشعر العربي ، الطبعة الأولى
الصفحات التالية : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ .
- (٧) الساق على الساق ، ص ٦٠٧ .

حيث ضَمَّن الشطر الثاني كاملاً ، من صدر البيت الأول للتهامي الأندلسي ، ولكن الشديساق على الرغم من ذلك مضى في القصيدة بنفس طویل ، وعاطفة صادقة ، مؤثراً ومتأثراً بماعطفة أبوية صادقة فيقول :

كم قد حملتُك فوق راحي إذ غدو تَ ورحتُ ثَمَّتَ حُرْتُ خَيْرَ مُحَسَّارِ .
ولكم سهرتُ الليلَ من جزعٍ فمما أغنى بكائي عليك أو إسْهَـارِي .
ولكم جأرت لبرءٍ دائِك ضارِعاً ولغيرِ نفعٍ كان طولُ جـواري .
ولكم حُصْنَتُك في الحنارِ من خوفٍ أنَّ يطرا عليك من الحوادثِ طـاري . (١)

إلى قوله :

بعض الرزايا قد يُسَاغ وبعضُها يبقى شجاً يُشْجِي مدى الأعْصَارِ . (٢)
والقصيدة تقع في ما يقارب السبعين بيتاً ، وهي بالنسبة لباقي قصائده أصدق عاطفة وأخلق حساً ، والطف تعبيراً (٣) ، ومن المفارقات المحببة ، أن هذا الأب الحانسي الذي يرثي ولده بمنتهى الصدق والألم لا يتوانى عن قول الشعر في حمار فقده ، ويمنسون فصلاً من فصول كتابه " في رثاء حماره " (٤) وهو وإن أراد الخروج على المألوف في هـذـه المـرثية ، إنما فعل ذلك نكايـة بالشعراء ، الذين تعودوا تجنيد شعرهم ، لمدح ورثاء الحمير المجازبة (٥) ، على حد تعبير الشديساق ، فيقول في هذه القصيدة :

راح الحمارُ وخلّى القيدَ في الوتد وما رأى إثراً في الناسِ من أحـدِ .
فهل أنا راكبٌ من بعده وتـدراً أم مجزئٍ قبْـدُه لو كان من مسـدِ . (٦)
ففي المـرثية السابقة ، لا يتماثل المرء نفسه من الحزن وربما البكاء ، وفي هذه لا يملك نفسه من الضحك ، ومما يضحك في القصيدة أيضاً :

وكان يوقظني منه النهساقُ إذا استثقلتُ نوماً بصوتٍ مطربٍ غـردِ . (٧)

(١) الساق على الساق ، ص ٦٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠٩ .

(٣) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشديساق ، ص ١٢٧ .

(٤) انظر الساق على الساق ، ص ٣٥٤ ، وصقر لبنان ، ص ١٢٦ .

(٥) انظر الساق على الساق ، ص ٣٥٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ .

وفي هذا القول خروج على المؤلف ، حيث أجمع الناس على أن صوت الحمار منكر ومزعج
وفي هذه القصيدة " يهجن الفارياني بالنساء " حتى في رثاء الجحش " (١) فيقول :
وساربي في طريق بلّ جانبها — أهلّ الجمال بماء الورد وهو ندي . (٢)

الفزل :-

نهج فيه الشدياق نهج القدماء ، فقد ظل فيه " محاكبا مقلدا " (٣) ، ومن قصائده
في الغزل مجموعة الغراقيات (٤) ، وهذه القصائد ذات طالع تقليدية ، فالأولى مطلعها :-
خليلي لا تستكرا عائل الوجـد — إذا كنت ممن يرى لأربع البعـد . (٥)
ومطلع الثانية :

أو ماكفاني اليوم طول تنـاء — عمن أحب ولا تـ حين لقـاء . (٦)
والأخريات مثل هاتين من حيث المطلع التقليدي .

هناك أشعار متفرقة في الساق على الساق ، وهي في موضوعاتها غريبة وإن كانت
قصيرة ، فقد قال شعرا في أكلة عدس (٧) ، وفي مقاماته الأربع شعر تنتهي به هذه المقامات
وهي عبارة عن فتاوى شدياقية لقضايا اجتماعية ذات علاقة بموضوع المقامة (٨) ، ونظم
شعرا بالتركية (٩) ، وقصبتين في العشق والزواج سماهما " القصبتان الطيختان " (١٠)
ضمّنهما أغنان منظومة بلغة عربية مبسطة ومنها قوله :

يا بدر مالك شـ — ان — في حُسنك الفتـ — ان .

-
- (١) حقر لبنان ، ص ١٣٧ .
 - (٢) الساق على الساق ، ص ٣٥٤ .
 - (٣) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٢٦ .
 - (٤) انظر الساق على الساق ، ص ٦٧٩ - ٦٨٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٦٧٩ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٦٨١ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، ٢٧٦ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .
 - (١١) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ - ٤١٣ .

وهذا التحذير مفاده أن لدى المؤلف شكاً في وعي وقدرة قرائه على فهم محتواه (١)، وفي هذه المقدمة الشعرية هجوم على مفاهيم العصر، ونقد التأليف والتصنيف فيقول فــــي هذا الصــــور :-

غيري من الوصاف في ذا صنفاوا لكنهم لم يحسنوا التصنيفا .
إذ كان ما قالوه مبتدلاً وليسهم يتقص منهم واصفٌ موصوفاً . (٢)

اللغة والأسلوب في الساق على الساق

هناك ظاهرتان غريبتان في هذا الكتاب ، الأولى تتعلق بالمقدمة الشعرية والعنوان ، والثانية تتعلق بخاتمة الكتاب ، أما الأولى المتعلقة بالمقدمة الشعرية فقد كانت خروجاً على العادة ، حيث لم يتعود المؤلفون تصدير كتبهم بمثل هــــه المقدمة (٣) ، أما عنوان الكتاب فقد جاء بالعربية والفرنسية ، وبرى Mattityahupeled أن ذلك جاء تحدياً ظاهراً للقراء العرب (٤) ، وبعد العنوان بالفرنسية ، أعطى صورة عن مفاهيم العصر العلمية والثقافية ، وما يفضلُه الناس من المؤلفات والعلوم ، وأفاد أن رجال الدين فاشلون في مجال التعليم ، كل ذلك في بيتين من الشعر ، بعد العنوان مباشرة فقال :-

تأليفٌ زيدٌ وهندٌ في زمانك ذا أشهى إلى الناسٍ من تأليفِ سفيرين .
ودرسٌ ثورين قد شُداً إلى قرنٍ أقنى وأنفعٌ من تدريسِ جبرجــــن . (٥)

أما خاتمة الكتاب ، فهي رسالة مفتوحة ، إلى رجال الدين المسلمين والنصارى ، ورجال العلم الأوروبيين ، يفيد في هذه الرسالة ، أن كتابه لن يعجب أحداً منهم ، فيقول " يــــا سيدى الشيخ محمد ، ياسيدنا المطران بطرس ، يا أبونا حنا ، يا أبونا مقريوس ، يا حبيبــــر أبراهام ، يا مستر نكتن ، يا هرشميط ، ياسنيور جوزي ، هاديني أنا علمــــت دى ، يعنسى

(١) انظر Mattityahupeled, Op,Cit,P.31.

(٢) الساق على الساق ، ص ٧٠ .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذه القضية في البحث ، ص ٢٦ .

(٤) انظر Mattityahupeled, Op,Cit,P. 31.

(٥) انظر صورة الصفحة الأولى من الطبعة الأولى سنــــة

١٨٥٥ م ، الورقة الخامسة من الكتاب المعتمد في هذا البحث .

ألفته ، لا طبعته ولا جلدته وحطيته بين أياديكم . . . (١) ، والغريب أن هـذـه الرسالة كتبت بالعامية ، وكان الشدياق يريد القول "لكل مقام مقال" . فإن هؤلاء الذين خاطبهم في الرسالة ، لا يفهمون غير هذه اللفظة ، وهذا اتهام مباشر لهم بالجهل ويتأكد هذا الاتهام عند قوله : "يا أبونا حنا ، أنا احلف لك اني ما ابغضكش ، ولكن ابغض تكبرك وجهلك" . (٢) وفي قوله : "ولكن سيدنا وأبونا وصيرنا ، ما بقدروش بـل ما يقدروش يفهموه" . (٣) .

إن نقد الشدياق في كتابه الساق على الساق ، على أساس الشكل الأدبي قد أبرز صعوبات استثنائية للنقاد ، فإذا ما أضيف إلى ذلك شعور الكثير منهم اتجاهه بالمداوة ، جعل هؤلاء النقاد غير قادرين على تخطي هذه الصعوبات ، التي يجب تخطيها إذا أردنا الحكم على الكتاب (٤) ، وهذا بوجب عدم قراءته باعتباره نوعاً من المقامة الحديثة ، أو قراءته على أنه تاريخ حياة للكاتب (٥) ، والمعروف أن الشدياق أراد الساق طليقا من الأساليب القديمة ، حيث حمل فيه "حطة عنيفة على القديسم المزخرف من أساليبه" ، وإن لم يمل عنه هو نفسه في كتاباته أحيانا ، لاظهار مقدرتيه اللغوية والبيانية . (٦) مع علمه "بالتجربة" أن هذه المحسنات البديعية ، التي يتهور فيها المؤلفون كثيرا ، تشغل القارئ بظواهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى . (٧) ومع ذلك فقد طل الشدياق ابن عصره في هذا الاتجاه "فـ" نراه ينهـج نهجهم في عناوين كتبه . (٨) على الرغم من أنه يؤكد خروجه من هذه السلسلة

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٧٠٩ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠٩ .
 - (٤) انظر Mattityahupeled, Op, Cit, P. 38 .
 - (٥) Ibid, P. 35 .
 - (٦) حنا فاخوري ، تاريخ الأرب العربي ، ص ١٠٤٥ .
 - (٧) الساق على الساق ، ص ٨٢ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٣٤ ، ٢٥٢ .
 - (٨) صقر لبنان ، ص ١٦٨ ، انظر عناوين كتب الشدياق المطبوع والمخطوط ، في كتاب أحمد فارس الشدياق ، عماد الصلح ، ص ٢٦٢-٢٦٦ ، لملاحظة العناوين المسجوعة وهذه الكتب ، ثمانية أربعون مؤلفا كلها مسجوعة العناوين .

فيأخذ ما يراه جيداً ، ويرفض أساليب القدماء ، ومعاصره المتكففة . (١) وإذا ما أراد أحـد أن يبرر للشدياق نهجه في بعض الأحيان نهج القدماء ، فإنه لا يجد إلا قولين : الأول : أنه ابن العصر ولا بد أن يتأثر ولو تأثراً ضئيلاً ، والثاني : أنه إنما أراد أن يثبت مقدرتـه مستعملاً مقاييس عصره وأسلحته .

لم يختلف رأى الشدياق بالاستعارة والكناية عن رأيه في السجع ، حيث يرى أن فـي كثرة استعمالها مشقة وكلفة (٢) ، وأثبت بلفظه الجديدة التي استغنى فيها عن المحسنات أنه دقيق الوصف ، عميق التحليل ، بارع التصوير والتمثيل (٣) ، ومثال ذلك وصفه للديـر والرهبان وحياتهم وتقشفهم ، وخبزهم ، وجرذان الدير ، وأكلة العدى ، وحواره مع الرهبان حول القاموس (٤) ، كما أنه في بحثه وتدقيقه في أحوال الشعوب " خبير مدقق " . (٥) ، وهو في الوصف والتصوير وتدقيقه في أحوال البلاد وشعوبها له مساران ، الأول جار ، والثانسي ساخر متهم (٦) ، فالأول يظهر في نقده للمستشرقين الأوروبيين وترجماتهم (٧) ، ونقده لأخيه طنوس الشدياق في كتابه " تاريخ أعيان لبنان " (٨) ، وأما التهكم ، ففي نقده لعادات وتقاليد ومعتقدات الشعوب ، فقد وصف نساء ممر يأنهن سمان كالقط بالسمان وأما الرجال فهم كالخشف بالشريح على الشبع (٩) ، ووصفه لسيدنا سليمان ، وكيف تخيل نساء الألف حوله ، وكيف يكون له كل يوم امرأتان ونصف (١٠) ، ولا يفوته في حديثه عن الشعوب مظهر أو جزئية ، فهو ذوعين " فاحصة لا قطرة لا تخلي " مشهداً ، ولا يفوته مـا ظل شي " تقع عليه " . (١١) ، ومثال ذلك حديثه عن الطرايطر والطرايطر في الاسكندرية وطعام أهلها (١٢) ، حتى أنه لفت نظره أن نساء مصر يأكلن الخنافس ليسمن (١٣) ، والرجال

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ١٦٨ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ .
 - (٣) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٧٦ .
 - (٤) الساق على الساق ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .
 - (٥) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة ، ص ١٦٤ .
 - (٦) انظر المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .
 - (٧) انظر الساق على الساق ، ص ٦٨٦ - ٧٠٧ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .
 - (١١) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٧ .
 - (١٢) انظر الساق على الساق ، ص ٢١٢ .
 - (١٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

المتشبهون بالنساء فيها أيضا . (١) ، وأجديته عن الطقوس والممارسات الدينية لأهل
مالطة بكل جزئياتها (٢) ، وفي كل ذلك " لم ينج من لسانه أحد " . (٣) ، حتى أنه
لا يبالي " أن يصح أو بشير إلى بعض هنواته " . (٤) مثل ذكره ما كان مع الفارياقية
قبل الزواج ، وما كان من شأن السطح (٥) ، ومراودة شاعر نصراني لزوجته عن نفسها (٦)
فهو يتحدث عن كل ذلك ببساطة وسهولة وكأنه " كان يكتب كل ما يمر بذهنه من غير تكلف
أو مراعاة لخطة الكتاب " . (٧) وهذا واضح إلى حد كبير في فصل سلام وكلام ، حيث يقول
في بدايته : " عمت صباحا يا فارياق ، كيف أنت ؟ وكيف رأيت نساء الاسكندرية ؟ هل تبينت
نساءها من رجالها ؟ فإن النساء في بلدكم لا يتبرقن " . (٨) ، وهو بهذا الأسلوب
إنما يدل على " استقلال في الرأي واعتماد على النفس " . (٩) ،

يتجلى في حديث الشدياق عن الشعوب خاصة ، صيله إلى الموازنة بينها وبين
الشعوب العربية (١٠) ، وأمثلة ذلك كثيرة في الساق على الساق (١١) ، ولكن
كثيرا ما يستطرد ، فهو عندما بدأ دفاعه عن أخيه أسعد ، انتهى بذكر سير البابيات
وانحراف كثير منهم عن الصواب (١٢) ، وهذه الظاهرة في رأي محمد عبد الغني حسن
تدل " على ازدهار المعلومات والمعارف الإنسانية " . (١٣) عند الشدياق .

عند الشدياق قدرة فائقة على إدارة الجدل والحوار ، وجدله دائما بكون
مدعوما بالحجة والبرهان (١٤) ، ومثال ذلك الجدل الذي أداره بينه وبين الضوطار

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٢٤٤ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
 - (٣) صقر لبنان ، ص ١٥٤ .
 - (٤) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٠٠ .
 - (٥) انظر الساق على الساق ، ص ٣٩١ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٩٤ .
 - (٧) جورج زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، دار الهلال ، ص ١٩٧ .
 - (٨) الساق على الساق ، ص ٢١٤ .
 - (٩) بناء النهضة العربية الحديثة ، ص ١٩٧ .
 - (١٠) انظر عمر الدسوقي ، في الأدب الحديث ، دار الفكر العربي ، ط ٥ ، ١٩٦١ ، ٧٦/١ .
 - (١١) انظر الساق على الساق ، ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١١٥ .
 - (١٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٧ - ١٩٤ ، يسمي الشدياق الاستطارد ، ولحق قلم انظر
ص ٢٧٨ .
 - (١٣) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٧٨ .
 - (١٤) انظر صقر لبنان ، ص ١٢٦ .

في قضية مقتل أخيه أسعد (١)، وهناك حوار آخر يديره الشدياق، بين الغاريق والساق والغاريقية، فيه نقد اجتماعي ساخر، خفيف الوطأة على القاري، على الرغم من أنه بتهمها فيه بالسخف في أحاديثها. (٢) وغالباً ما يتخلل الحوار، فكاهة وسخرية ودعابة جميلة جملة حتى اليوم أعظم ساخر في الأدب العربي قديمه وحديثه. (٣) وهو في كمال الأحوال يحاور نفسه "فالتساؤل والقرار بنبعان من وجدان واحد". (٤)

وردت في الساق على الساق بعض الفصول البيضاء، أو فصول لا يتجاوز الواحد منها بضع سطور (٥)، وقد يتساءل القاري عن سبب ذلك، ويرى مارون عبود، أن هذا فراغ، ولكنه "يحمل القاري على التفكير بعد أن يضحك، وينشرح صدره". (٦)

غلب المجون على مضمون الساق على الساق، واختلعت الآراء في هذا الموضوع، بين مهاجم وعاتب ومبرر له، والمجون المعني في هذا المقام، هو المرتبط بالمرأة وطريقة الحديث عنها، فأنيس المقدسي لم يعجبه حديث العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عند الشدياق واعتبر أن مثل ذلك لا يليق، لا في اللفظ ولا في الأوصاف ولا في المشاهد. (٧) ويرى لويس عوض أن الشدياق اعتبر المرأة مادة للدعابة، واعتبر ذلك دعابة، لا يخففها إلا روح الدعابة في أسلوبه (٨)، ولكنه في كل ذلك يقف من المرأة موقف الرجل الواقعي الذي يقبل المرأة على علاتها وبفضائلها. (٩) ويقول مارون عبود أن الشدياق "كان يرى الدنيا كلها في المرأة". (١٠) وبرر له مجونه بأن "الفرصة الجنسية عند، ملك الحياة فهو لا يعنيه من هذا الوجود، إلا ما تدركه الحواس". (١١)، واتهمه بطرس البستاني بأنه رجل مفحش (١٢)، ويتمجب محمد عبد الفني حسن، كيف تغلبت هذه المسائل على

- (١) انظر الساق على الساق، ص ١٧٧-١٧٩.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٤٣٧-٤٤١.
- (٣) تاريخ الفكر المصري الحديث، ٢/٢١٥.
- (٤) عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق، ص ١٧٥.
- (٥) انظر الساق على الساق، ص ٢٤٦، ٣٢٢، ٤٩٢.
- (٦) صقر لبنان، ص ١٤٧.
- (٧) انظر، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة، ص ١٥١.
- (٨) انظر تاريخ الفكر المصري الحديث، ٢/٢٢٦، ٢١٥.
- (٩) المرجع نفسه، ٢/٢٢٣.
- (١٠) صقر لبنان، ص ١٣٥.
- (١١) المرجع نفسه، ص ١٢٤.
- (١٢) انظر بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ٩/٤٣٠.

هذا العالم اللغوي الفارق في كتب الأدب والمعاجم (١)، واعتبره جورجي زيدان متجاوزاً للحد، وما قاله تنفر منه الطباع وتمجه الأذواق (٢)، ورأى أحمد حسن الزيات أن هذا المجون لا يليق به لما عرف عنه من العلم والفضل (٣)، ولكن دي طرازي، المهرج هذا إلى طبع الشدياق، بل اعتبر مرده أنه أطلق لقلبه العنان دون حذر (٤)، بينما ردّ لويس عوض ذلك إلى أنه أي الشدياق، لم ير في الغرب والشرق إلا الفجار (٥) وهذا الرأي على ما فيه من المبالغة والهجوم، لا ينصف الشدياق، إذ أن الشدياق تعرف وعاشر ذوي الفضل والأدب في الشرق والغرب، ولكن كما يقول محمد عبد الغني حسن أن الشدياق عمل ما يلائم طبيعته، وهو المجون والضحك، وإطراح التكلف في كتابته، وحتى في مجال سمره، لأنه كان يرى أن ستر الطبيعة بالحيا نوع من النفاق (٦)، ويضحك مارون عبود ممن يعد الساق على الساق كتاباً بذيلاً، ويرى أن ذلك لا يتنافى مع الفن (٧)، وأن هناك من سبق الشدياق في المجون من القدماء مثل الجاحظ وأبى نواس، وابن الرومي ولا يستحي منه عند ذكره (٨).

يبرز الشدياق كلفه بالمرأة فيقول: "الدنيا مؤنثة، وكذا السماء والأرض والجنّة والحياة والروح والنفس... وأخص بذلك المحبة واللذة والشهوة، فما كان أجدرها أن تشرف بالنساء". (٩)، ومع كل ذلك فهو لا يحسن الظن بها فيقول في ذلك: "إنها أول الأسباب في عمران الكون وخرابه، إذ لا يكاد يحدث خطب جليل، إلا وتراها من خلاله واقفة وراءه، أو بالحرى مضطجعة" (١٠)، ولكنها مقبولة لديه على كل حال ويظهر ذلك في قوله: "قال بعض معانيه العلماء، المرأة كلها شر، وشر ما فيها أنه لا يـ... منها، فقلت، وهو كحلم جدا نصفه صدق ونصفه كذب، فالصادق منه قوله أنه لا يـ...".

- (١) انظر محمد عبد الغني حسن أحمد فارس الشدياق، ص ١٠٠.
- (٢) انظر بناء النهضة العربية الحديثة، ص ١٩٦.
- (٣) أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي، ص ٤٧٢.
- (٤) فليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت ١٩١٣، ١/٩٨.
- (٥) انظر تاريخ الفكر المصري الحديث، ٢/٢١٥.
- (٦) انظر محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، ص ١١٧.
- (٧) انظر صقر لبنان، ص ١٢٠.
- (٨) انظر مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٠٣.
- (٩) الساق على الساق، ص ٥٦٩.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

منها. (١) ، وهو ينظر للمرأة " كالحبيطة في وصيته الشهيرة ، للانشى عنده مثل حـظـ
الذكرين . (٢) ولكنه " لم يحاول أن يراجع أفكاره التقليدية عن طبيعة المرأة ووظيفتها
في الحياة . (٣) وأكثر ما يلفت نظره فيها ، تكوينها والسر الذي أودعه الله فيها
وطبيعتها وقسوتها وصفاتها الجسمية . (٤) .

يتوخى الشدياق في حديثه عن أى عنصر في الساق على الساق " رقة وفهما تاماً
لدلالات الألفاظ على المعاني . (٥) فيؤدى المعنى بإشراق ووضوح دون أن يعمد
الألفاظ المرسومة مثل أهل زمانه (٦) ومن هذا المنطلق ، اعتبره Mattityahupeled
كاتبا لذوي الذوق العالي (٧) وذلك على الرغم من الغرائب القديمة في الألفاظ التي
تدل " على فهم دقائق اللغة العربية ، وفقه أسرارها ، واكتناه مرامي ألفاظها . (٨)
والشدياق دقيق حتى عندما ينطق الفارياقيه ، فهو يمتدح أن كلامها لا يتفق وعلمها (٩)
فهي دون الأصل بمراحل (١٠) ، ولا يفوته أن يعتذر عن ذلك فيقول : " فإن قيل إنـه
قد نقل عنها ألفاظاً غريبة غير مشهورة ، لا في التخاطب ولا في الكتب ، فلا يمكن أن تكون
قد نطقت بها ، قلت : إن النقل لا يلزم أن يكون بحروفه ، وإنما المدار على المعنى . (١١)
نهج الشدياق في الساق على الساق " نهجا جديداً جمع فيه بين متانة العبارة
ورقة الإنشاء ، فلم يخالف الأقدمين ، ولم تثقل عبارته على أبناء العصر . (١٢) لذلك
" يشعر القاري بلذة عند قراءتها ورغبة في متابعتها . (١٣) ، حتى أن عناوين الفصول

- (١) الساق على الساق ، ص ٣٥٣ .
- (٢) صقر لبنان ، ص ١٣٢ .
- (٣) تاريخ الفكر المصري الحديث ، ٢٠١٦/٢ .
- (٤) انظر الساق على الساق ، ص ٣٢٣-٣٢٥ ، ٣٢١ .
- (٥) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٧١ .
- (٦) انظر المرجع نفسه ، ص ٧٢ .
- (٧) انظر Mattityahupeled, Op. Cit, P31 .
- (٨) أعيان البيان ، ص ١١٣ .
- (٩) صقر لبنان ، ص ١٢٥ .
- (١٠) انظر الساق على الساق ، ص ٥٣٨ .
- (١١) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
- (١٢) بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، ٩/٤٣٠ .
- (١٣) الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ١٦٢ .

في الكتاب ، لها دلالة قطعية على المضمون كدلالة الدخان على النار (١) ، وهو على كل حال يشهد له الكثيرون ، فقد اعتبره بطرس البستاني اما لا يعول الا عليه (٢) وشبهه السندوبي بالجاحظ في أسلوبه (٣) ، فالساق على الساق ، عند مارون عبود لم يكتب مثله شرقي ، كما يقصر عنه الكثيرون من نوابغ الغرب (٤) ، ويستغرب أيضا من هجوم البعض على الشدياق في الوقت الذي يرى ويرى الآخرون ، أن نقاد الغرب قد أعجبوا بأندره مورو André Maurois لأنه يفعل اليوم ، ما فعله الشدياق منذ قرون (٥) ، ويرى أنه متفوق في أسلوبه على ابن العميد ، وشخصية الشدياق عارضة تكرر تناطحك بل ويكاد ابن العميد ينفى أمام الشدياق (٦) ، على الرغم من إنشاءه المصقول المنق ، وينصح مارون عبود من يريد قراءة الساق على الساق ، أن يقرأه قراءة فنان (٧) ، أو المأخذ الوحيد الذي أخذه عليه " هو هذا القفز والجمز ، فإنه يفرض أحيانا كالقبوط " (٨) ، وقد اعترف الشدياق نفسه بوجود بعض العلل في المقدمة الشعرية حيث قال :-

ان شئت تلبسه على علائقه فأنها به أولا فدعه نظيفاً (٩)

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ١٦٥ .
 - (٢) بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، ٩ / ٤٣٠ .
 - (٣) انظر أعيان البيان ، ص ١١٣ .
 - (٤) انظر صقر لبنان ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
 - (٥) انظر المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .
 - (٦) انظر مارون عبود ، دمشق وأرجوان ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٧٠ . هذا القول من مبالغات مارون عبود ، ولكن له دلالة الاعجاب الشديد بالشدياق وأسلوبه .
 - (٧) انظر ، صقر لبنان ، ص ١٠٣ .
 - (٨) المرجع نفسه ، ص ١٢٨ .
 - (٩) الساق على الساق ، ص ٧١ .

فكرة القس في الساق على الساق

هناك شبه اجماع من النقاد والدارسين ، على أن كتاب الساق على الساق ترجمة ذاتية (١) ، ويمكن للقاري أن يلمح الخط القصصى فيه منذ الوهلة الأولى ، فقد ذكر الشدياق سيرة الفاريق ، وبعض ملامح العصر والمجتمعات التي عرفها من خلال هذه السيرة ، أما عن الفاريق باعتبار أنه رمز للشدياق ، فقد تحدث عن مولده ، ووضع أسرته المادى والاجتماعى ، وأثر ذلك على تعليم الفاريق ، الذى تعلم على يد معلم كتاب القرية نتيجة هذه الظروف ، (٢) ثم تحدث عن علاقة والده السياسية مع الأمراء والدروز (٣) . ويستمر في الحديث عن حياته وأسفاره " على نهج يستوى معه كبار المؤلفين العالميين الذين ترجموا لذواتهم " (٤) ولكنه " يختلف عن السير الذاتية الحديثة بكثرة ما يحشوه من الاستطرادات العفوية ، والأوصاف النسائية ، حتى تكاد هذه الاستطرادات تكون هي المقصورة بالذات " (٥) ومن هذه الاستطرادات ماله علاقة بالتعليم ورجال السياسة والدين ، والركاكة في اللغة ، وبعد كل استطراد ، وبين الفينة والأخرى ، يطل الفاريق من خلال الرهبان والكتاتيب والحكام والأمراء والأغنياء ، والنساء والحياة الاجتماعية والموسيقى والشعر ... (٦) ، لذلك جاءت أخباره " غير منسقة " (٧) ، حتى تكاد تضع سلسلة حياته (٨) ، وعلى الرغم من تداخل هذه العناصر ، فإن الساق على الساق يعتبر محاولة مبكرة للقص في بداية عصر النهضة ، حتى أن الابداع فيه يكاد يرقى إلى منزلة

-
- (١) انظر ، رؤاد النهضة في لبنان الحديث ، ص ١٠٠ ، انظر أيضا ، في الأدب الحديث ٧٢/١ ، انظر أيضا ، صقر لبنان ، ص ١٢٩ .
 - (٢) انظر الساق على الساق ، ص ٨٣ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٨٨ .
 - (٤) مصادر الدراسة الأدبية ، ٤٧٢/٢ .
 - (٥) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، ص ١٤٩ .
 - (٦) انظر شفيق جبرى ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٥ .
 - (٧) المرجع نفسه ، ص ١٠ .
 - (٨) المرجع نفسه ، ص ١٠ .

الأثار العالمية (١)، خاصة في بعض الفصول ، التي يرتفع فيها النبض القصصي (٢) ، الفصل التاسع عشر من الكتاب الأول ، وعنوانه الحسن والحركة (٣) ، ولكن الشدياق لم يحسن بالأبطال ولم يستشرهم ، وكان جل اعتماده على نوع من الخيال والفكاهة (٤) ، وهذا السراي Mattityahupeled وإن كان على جانب كبير من الصواب إلا أن حكمه هذا ، جاء بمقاييس البناء الروائي الناضج ، ولو قارن الشدياق ، وحكم عليه بمقاييس عصره ، ربما اعتبر الساق على الساق عملاً روائياً عظيماً .

شك Mattityahupeled نفسه في أن الساق على الساق ترجمة ذاتية ، وكان تبريره لهذا الشك ، أن الشدياق لو أراد أن يكون الكتاب كذلك ، فلا يمكن أن يعود بعد عشر سنوات فيكتب الأحداث نفسها ، عن الفترة نفسها ، في كتاب "الرحلة" ، كما رأى أنه ليس من الذوق أن نقرأ الأول على أنه مسودة للثاني . (٥) ورأيه أن الساق على الساق كان القصد منه بناء عمل قصصي تاريخي ، وللحكم عليه يجب عدم الاعتماد على صحة الأحداث (٦) ، مؤكداً على أن الكتاب ليس سيرة ذاتية ، ولم أجد من يقترب من هذا الرأي سوى محمد عبد الغني حسن بقوله أنه "يحكي رائداً ، وهو يصور الواقع ولكن يلونه ويمزجه بشي من الخيال" . (٧) ويرى أيضاً أن هذا العمل "بعد نواة طيبة للقصة العربية في القرن التاسع عشر" . (٨) ولو أنسه مضى على هذه الطريق لكان "فيها رائداً ومبدعاً" . (٩) ، واعتبر محمد يوسف نجم ، أن الشدياق "أكبر موهبة قصصية أهدرت (١٠) ، وإن كانت تحمل أنفاس المغامرات في حكايا المقامات" . (١١) أما الخيط القصصي في الكتاب ، فليس مقصوداً بذاته ، وما هو إلا مركب جعل الساق على الساق الشدياق لطرح مناقشات وتعليقاته . (١٢)

- (١) انظر محمد يوسف نجم ، القصة في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٤٥ .
- (٢) انظر المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ .
- (٣) الساق على الساق ، ص ١٨١ - ١٨٦ .
- (٤) انظر Mattityahupeled ، Op. Cit, P.44 .
- (٥) ومن الجدير بالذكر أن الكاتب كتب هذه المعلومات عن الساق على الساق سنة ١٩٨٥ . Ibid, P, 40 المقصود بكتاب الرحلة ، كتابا الواسطة وكشف المخبا .
- (٦) Ibid, P, 42 .
- (٧) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٣٢ .
- (٨) المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .
- (٩) المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .
- (١٠) القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ٢٤٥ .
- (١١) عبد الرحمن ياغي ، مقدمة في دراسة الأدب العربي الحديث ، ١٩٧٥ ، ص ٥٣ .
- (١٢) حنا فاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ١٠٤٥ .

أفاد Mattityahupeled أن شخصيات هذه القصة غير متطورة ، وأن الوحيد الذي يطور شخصيته ووجهة نظره ، هو الفارياق الذي ولد وعاش تحت رحمة الظروف السيئة^(١) والشخصيات الأخرى تمثل فكرة أو مفهوماً^(٢) ، مثل القسيس الذي تمكن من حرره بمير بيبرر فهو يمثل الانتهازية والتناقض بين المظهر والمضمون^(٣) ، والشدياق يرفض الفكرة ولا يرفض الأشخاص ، وهذا واضح في الحوار المسرحي الذي يفتعله الشدياق ليخلص منه إلى رفض شيء ما ، ويرجح هذا القول أن شخصيات القصة إذا جاز التعبير ، كانت غالباً بدون أسماء مثل اليهودي والنصراني والإمامة ، وذلك عند طرح مسألة الطلاق ، حيث رفض أفكار الجميع^(٤) . وكذلك شخصية الفارياقية على الرغم من أنها رئيسة ، إلا أنها غير متطورة ، وأكثر التطشور فيها يظهر في الرغبة ، أما الطبيعة فلا تكاد تتغير^(٥) ، وهذا واضح في موقفها من الرقص ، عندما دعيت مع الفارياق إلى حفلة راقصة ، أقامها حاكم مالطة الإنجليزي^(٦) .

المقامات وفكرة القصاص

كتب الشدياق في الساق على الساق أربع مقامات^(٧) ، وهو يبرر كتابتها بقوله — " قد مضت برهة من الدهر من غير أن أتكلف السجع وأحسنني نسيت ذلك " .^(٨) وقد ساق هذه المقامات على لسان الهارس بن هشام ، وأظنه يعني الحارث بن هشام ، وقد كتب الاسم على هذا النحو سخرية من الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، عرباً ومستشرقين — وكان هذا رابعاً راءماً عند حديثه عن خطب القسيسين الأجانب^(٩) ، وقد ختم مقاماته جميعاً بالشعر على طريقة المقامات القديمة ، ويرى محمد يوسف نجم ، أن مقاماته كلها

- (١) انظر Mattityahupeled, Op, Cit, P. 46 .
- (٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥ .
- (٣) انظر الساق على الساق ، ص ١٠٤ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ — ٢٧٦ .
- (٥) انظر Mattityahupeled, Op, Cit, 46 .
- (٦) انظر الساق على الساق ، ص ٤٥٤ — ٤٥٦ .
- (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٤١ — ١٤٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٤٧٥ — ٤٨٣ ، ٥٩٩ — ٦٠٣ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
- (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ . حيث أورد خطبة —
مضحكة بالطريقة نفسها . . .

"تعد تطورا في فن المقامة ، خرج بها عن التكلف اللغوي ، والعبث البياني ، إلى المقالة القصصية ، التي تعالج موضوعا اجتماعيا . " (١) ، ولولا أنه ساقها على لسان الممارس بن هشام رواية عن الفارياق ، وجعل أسلوبها السجع وشحها في النهاية شعرا ، لا اعتبرنا محاولته هذه ، بداية حسنة لكتابة الأقصوصة (٢) ، وأكثر المقامات التي توفرت فيها العناصر القصصية هي المقامة العقيمة في الكتاب الثالث (٣) ، حيث ازدحمت هذه المقامة بالشخصيات النسائية وشخصيات الشعراء ، وأعطى المقامة نبضا وحيوية بالحوار وتصوير الأماكن ، وملاح الشخصيات ، وقد أسهمت المفردات في إعطاء الشخصيات ملامحها بدقة ، ووظفت لتلافي التكرار ، وخاصة عند حديثه عن ردود فعل النساء ، فالأولى قالت والثانية التفتت ، والثالثة تقدمت ، والرابعة دنت تهتزعجبا



وضع الشدياق يد ، على أغلب المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لمجتمعه ، وكان دأبه أن يصف العلاج بعد أن يصف المرض ، وكان يستوحي هذه العلاجات والحلول من تجاربه في الغرب ، فيفري العرب بهذه الحلول للنهوض بهم في مجالات الحياة المختلفة ، وكان في كل أحواله آمينا ، يحذر من مغية الأخذ بـدون حذر في مجال الثقافة ، بعد أن عرض الثغرات والعيوب ، حث على انشاء المطابع والسفر من أجل العلم ، والاهتمام بالكتب والمكتبات ، كما حث على التأليف الهادف المتجدد الملائم للعصر واعتبر الفن جانبا ثقافيا هاما ، ونفى عنه الفكرة السائدة من أن كل ما يـلـذ الحواس مرفوض ومحرم .

وفي الحياة الاجتماعية ، حث على تحرير المرأة ، ورفع الظلم الواقع عليها ، ومعاملتها معاملة إنسانية ، بحيث تكون مساوية للرجل في الحقوق والواجبات والتعلم حتى تستطيع أن تكون قادرة على ممارسة أنوثتها وأمومتها ، أما الأنوثة فقد رأى أنها لها الحق أن تتصف بالصفة الزوجية الكاملة في حالة كونها زوجة ، وأما الأمومة ، فأراد لها أمومة متحررة من الجهل ، حتى تكون قادرة على تربية ابنها تربية صالحة ، وبهذا كأنه يريد الحرية لكل

(١) القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ٢٤٦ .

(٢) انظر المرجع نفسه ، ص ٢٤٦ .

(٣) الساق على الساق ، ص ٤٧٥ .

فئات المجتمع مطلقاً من تحرير المرأة.

وأما السياسة والإدارة ، فقد أراد تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين فئات المجتمع الأخرى وطبقاته ، وقد أراد بهذا التنظيم أن يكفل الحرية للجميع في ممارسة الاعتقاد ، والحقوق الدينية والمدنية ، رافضاً أن يكون لا خلاف المذاهب والأديان تأشير على هذه الحرية ، وأراد أن تبني العلاقات بين الناس على أساس الأخوة الإنسانية ومن هذا المطلق انتصف للفئات الفقيرة في المجتمعين الشرقي والغربي ، فدافع عن الفلاح والصانع ، وتحدث عن سلبيات النظام الإقطاعي وما يتركه من آثار سلبية على الحياة الاجتماعية ، وهو في كل ذلك ينطلق مطلقاً إنسانياً ، ولا يدعو دعوة رموية للتخلص من هذه العلل .

في اللغة المعجمية في الساق على الساق ، على الرغم من أنها تكاد تكون هدفاً رئيساً ، إلا أنها تشكل أهمية خاصة ، من حيث الموضوعات المطروحة ، ففيها إشارة جريئة إلى نقد " القاموس المحيط " وهذه الخطوة بالإضافة إلى جرأتها ، لم يسبق الشدياق أحد إليها ، بالإضافة إلى المناقشات الطريفة لخصائص الحروف والاشتقاق في اللفظة ودلالات الألفاظ والأصوات ، وأهم ما ذهب إليه ، هو أنه أراد إحياء الفاظ ميتة أو كادت وكأنه رأى أن لها دلالات أقوى من بعض الألفاظ المستعملة .

وفي الشعر ظهرت رغبته في التجديد في الشكل والمضمون ، أما النشر فقد جدد وخرج على القديم خروجاً جريئاً ، كما جدد في الشكل الأدبي ، حتى أن الساق على الساق جاء كتاباً موسوعياً فيه لغة ونقد ، وسيرة ذاتية ، وهو وإن كان يراوح بين القديم والحديث في أسلوبه ، إنما أراد إثبات قدرته في الاتجاهين ، بالإضافة إلى ابتكاره في مجال القصة والأقصوصة ، مما يدفع إلى الاستغراب من إهمال الشدياق عند الحديث عن مراحل تطور القصة العربية ، إهمالاً لا يوجد له مبرر ، في الكتب النقدية التي تتحدث عن هذا الموضوع .

الواسطة في معرفة أحوال مالطة

طبع هذا الكتاب لأول مرة في تونس سنة ١٨٦٦م، أما الطبعة الثانية فكانت في
الاستانة سنة ١٨٨١م، وجمعت مادة الكتاب مع كشف المخبا في كتاب واحد (١)، ولكن
هذا الذي أورده عماد الصلح يخالف ماورد في "الموسوعة الإسلامية" فيما يتعلق بالطبعة
الأولى، حيث ورد فيها أن الطبعة الأولى كانت سنة ١٨٣٦م، دون تحديد لمكان الطباعة
واتفق عماد الصلح والموسوعة الإسلامية فيما يتعلق بالطبعة الثانية، وأن ما طبع سنة ١٨٨٦م
في تونس للمرة الأولى هو "كشف المخبا عن فنون أوروبا" (٢) وقدمته خزانة الفكر العربي
مطبوعاً مستقلاً عن "الكشف" سنة ١٩٧٨م، عن دار الوحدة للنشر عن الطبعة الأولى، وهي
الطبعة التي استخدمت في هذا البحث.

يقع الكتاب في سبعة فصول، بالإضافة إلى مقدمة المؤلف، والمقدمة هذه جاءت مسجوعة
على خلاف المتن، وهي تبين دوافع الرحلة عند المؤلف ومدى غيبرته على وطنه، ومصالح أمته
لذلك رأى تدوين هذه الرحلات، لينقل لأتمه مظاهر التمدن والحضارة الغربية (٣)، وهو
ينبه في هذه المقدمة، كل من يتهمة بالتحيز والميل، بأنه عند كتابته ما كتب، ولم يميل
به هوى ولا غرض بغضا أو حبا، وإنما كتب ما كان يرى أنه الصواب (٤).

أما الفصول فعناوينها تدل عليها، فالأول في تخطيط مالطة، تحدث فيه عن موقعها
وعاصمتها ومساحتها معتمداً على المعلومات الجغرافية الأوروبية، والمؤلفات التاريخية
والاجتهاد الشخصي، والفصل الثاني، تحدث فيه عن هوائها ومنازلها، معتمداً على
مشاهداته وتجاربه، والثالث في عاصمتها فاليثا ومرافقها، وفيه اعتمد أيضاً على مشاهداته
والرابع عن عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم قدم كل ذلك، وفيه تحدث عن
علاقة الإنجليز بالمالطيين، معتمداً على ملاحظاته ومشاهداته. والخامس تحدث فيه
عن حكم الإنجليز في مالطة، ودورهم في الإصلاح، واعتمد على الأرقام، التي ربما يكون قد
جمعها من الصحف أو السجلات الرسمية، حيث توحى دقة الأرقام بذلك وفي السادس تحدث

(١) عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق، ص ٢٦٤.

(٢) انظر The Encyclopaedia of Islam, Vol III, P, 801.

(٣) أنظر أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أطوال مالطة، دار الوحدة، ١٩٧٨.

ص ١٣.

(٤) انظر المصدر نفسه، ص ١٤.

عن موسيقى أهل مالطة وغيرهم ، حيث لم تنل من إعجابه إلا القليل ، واعتمد في حديثه هذا على خبرته الذاتية في الموسيقى ، وبعض المصادر القديمة ، مثل " رسالة ابن زيدون " لسلطان المتأربين ابن نباته ، وشرح " لامية العجم " للعلامة الصفدي ، وأما السابغ فهو في لغة أهل مالطة التي خلص في حديثه عنها ، أنها عربية فاسدة ، دخلتها مفردات من لغات أخرى على مر العصور . (١)

من العناصر البارزة التي يمكن اعتمادها خبطوطا عريضة لدراسة الكتاب ، الوصف الجغرافي ، والأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية ، والسياسية ، بالإضافة إلى اللغة والموسيقى والغناء ، والعلاقة بينها عند أهل الجزيرة ، من الانجليز والمالكيين ثم اللغة والأسلوب .

مالطة في التاريخ والجغرافيا وعند الشدياق

تحدث الشدياق عن موقع مالطة بالنسبة لدرجات الطول والعرض ، وبين تبعية هذه الجزيرة ، معتمدا على آراء الجغرافيين ، حيث أحقها بعضهم بإفريقية ، وأحقها البعض الآخر بإيطاليا ، بالنظر إلى عادات أهلها وقربها من أوروبا (٢) ، وفصل الحديث عن مساحتها وعاصمتها غالبيا (٣) ، وتحدث عن الجزيرة في التاريخ والامم التي تداولت على حكمها منذ الفينيقيين سنة ٨٢٢ ق.م ، إلى أن احتلها المسلمون ، فالحرمانيون فالفرنسيون ، وأخيرا الإنجليز . (٤) وتحدث عن مناخها وملاحتها ، وكان في كل ذلك بجردها من المحاسن واتكأ على اللغة ليوفق بين رؤيته لها وبين تسميتها ، فقلل اسمها من " م.ل.ط " ومعظمه بدل على التجرد والخلو ، أو التجريد والإخلا ، فتكون قد سميت بذلك لخلوها من الغياض والجبال والأنهار . (٥) ، وأما هوأومها

(١) حول هذه اللغة ، انظر مقالة محمود الغول ، اللسان المالطي لغة عربية عامية

المصري ١٠ ، ١٩٥٩ م وقد أعيد نشرها في أبحاث اليرموك ، مجلد ١٠٢ ، ١٩٨٤ ص ١١ - ١٥ .

(٢) انظر النواظرة ، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٧ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

فـ " لا يحمده من ألف البرور الواسعة. " (١) ولم يمدح الشدياق صيفها ولا شتاءها ولا شمسها ولا مياهها ، وتحدث عن الأمراض التي تصيب ساكنيها ، ويقارن بينها وبين مصر في هذا الصدد (٢) ، وأما شجرها ونباتها ، فهو مسخ تنمو عنه العين ، وحدثني ترابها فهو مجلوب من سقبة. (٣)

لم يحدث أن تحدث الشدياق عن أية صورة إيجابية في هذه الجزيرة ، ولست أعجبه في كل أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية شي ، وحتى لا يُظالم في هذا الحكم فقد أعجبه عسلها فقط (٤) ، وربما كان عند الشدياق مرر لهذا الاستياء فهي " لا تعجب من الإفراج إلا القليل ، وذلك لأنهم إذا جاءوا لم يجدوا فيها شيئا غريبا. " (٥) ، لذلك رأيت على مقارنة الصور السلبية فيها ، بما يقابلها من الإيجابيات في أوروبا وعند العرب. (٦)

الأحوال الاجتماعية في مالطة

بدأ الشدياق حديثه عن أهل مالطة بجملة معبرة ، اختصر فيها خلاصة تجربته فيها حيث قال عنها وعن أهلها : " فما أقل ظلمهم وأكثر ظلمهم. " (٧) وهذه العبارة تخرج بالشكوى من الأرض والإنسان ، فكانت ردة فعله إزاء ذلك نقدا لا ذم لكل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية ، عند المالطين والانجليز على السواء ، ولم يستثن في نقده الذراع فئة أو طبقة ، حيث يرى قارئ الكتاب أن الشدياق قد قسم المجتمع في مالطة إلى طبقتين ، عليقة المجتمع بما في ذلك الإنجليز ، وسفلة المجتمع وأولادهم وجن نذره الذراع موجه نحو الطبقة الثانية ، فمنها اللصوص الذين يجبرون الأهالي على بيع الفاكهة فجة ، وهم في سياق مع أصحابها أنهم يحطى بها أولا (٨) ويرى

- (١) الواسطة ، ص ٢٦ .
- (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧ .
- (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

الشد باقي في مجمل حديثه عن الجزيرة ، أن المال هو القيمة الأساسية عند أهلهم — فهم لا يرون حرجا في سكن أعزب بين المتزوجين ، ولا يطلبون منه ضمانا لحسن أخلاقه — وكل ما يهمهم هو الأداة (١) ، كما أنهم يتهاقنون على كسب المال من كل الوجوه ، فلا يمنع الزوج أن تعمل زوجته ساقية في حانة ، وتتعامل مع الفجار والمساكر (٢) ، وممنوع المطلق نفسه ، فإن الباعة يطلبون " في شيء " قيمته درهم عشرة دراهم . (٣) ولا يفضلهم في ذلك أصحاب القوارب والحمالين وغيرهم (٤) ، وينسحب هذا الحكم على النساء الزوانسي " ففي كل طريق هنا ترى منهم جملة ، حتى قدام قصري الحاكم والمطران . " (٥) ولذا لا لفة على كثرة هذه الفئة من النساء في مالطة ، فإن الساكن الجديد يجد نفسه دون أن يعلم جارا لزانية (٦) ، ويبدو أن هذه الطبقة لأغلبتها ، تفرض وجودها حتى على الطبقة الأولى ، دون أن يردعهم قانون أو خلق ، ويرى الشدياق هذه الظاهرة متمثلة في أن السفلة لا يتورعون أن يتروا على الأماكن نفسها ، التي يتردد عليها ذوو الفضل واجاعة (٧) ، ويبدو أن الإنجليز هم الذين يريدون هذا الانقلاط المائليين ، ويروجح هذا ، أن القانون لا يردع السكارى وهم يضحجون في الشوارع والأسواق ، ويتعرضون للسرقة إلى حد تجريدهم من ثيابهم (٨) ، والشدياق بهذا التمييز يريد إدارة المجتمع المالطي وهو يدين الإنجليز بطريقة غير مباشرة ، وذلك في حديثه عن كفافه تجاوزا للقانون — والذوق ، وتتمش هذه الإدارة في رفضه لهذا الشكل من الحرية ، فهو يرى أن الحرية يجب أن يراعى فيها " مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس . " (٩) ويرى " أن فلسفة المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية . " (١٠) ، وفي قوله هذا إرادة النظاميين في التعامل مع الشعوب الواقعة تحت حكمها ، الإنجليز والعثماني .

-
- (١) انظر الواسطه ، ص ٣٧ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٦١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٩ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٥١ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٥١ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

أما غلبة القوم من أهل مالطة ، فالغالب عليهم " لين الجانب والبشاشة " (١) ولكن ليس لهم دور إيجابي في الحياة الاجتماعية ، وكأن حاجزا كبيرا يفصل بين الطبقتين . (٢) ونتيجة لانعدام هذا الدور من قبل الإنجليز أيضا ، فقد كثرت الأمراض الاجتماعية ، فكثير الشحاذون على الأبواب وفي الشوارع والحواري (٣) ، وفي الوقت الذي يمنع مثل هذا المظهر في باريس ولندن . (٤) ، كما يقول الشدياق ، وفي هذا القول إرادة أخرى للإنجليز — وذلك بسماحهم بتفشي هذا المظهر وعدم معالجته ، مما يشير إلى إهمالهم وعدم اكتراثهم بمشاكل الشعب المالطي الذي يحكمونه .

ولأهل الجزيرة طابع سيئة ، ربما نتجت عن الفراغ والبطالة ، فهم يتلهون " بالإسفاف بالقول والعمل " (٥) ولديهم فضول غريب ، ويسيتئون الظن ببعضهم وبالفرياء ، وهم يحبون نشر الأخبار السيئة والزيادة عليها . (٦) ويعلل الشدياق هذه الطواهر بقوله — إن من " يكون محصورا في صخرة قرعاء راسية في البحر ، فإن حصر العطن يكون — من حصر العطن " (٧) ولذلك كله لا تفوتهم فرصة التظهي بأي أمر كان ، فهم يسألون جلسهم عن دخله وخرجه ، ويكشفون خصوصياتهم ، ويتذمرون ويشتكون لكل من يجالسهم (٨) . تقوم المرأة المالطية بالعمل إلى جانب الرجل ، وهذا ما يشجع الرجال على الزواج حتى لو كان كسب الواحد منهم قرشين في اليوم الواحد . (٩) ، والمرأة وان تمتعت بهذا الجانب الإيجابي ، فإن فيها جوانب سلبية كثيرة ، فهي لا تحترم زوجها ، وتجسري وراء نزواتها ، وزاد هذا الجانب سوءا ، أنها أخذت تقلد نساء الإنجليز في مخالطة

-
- (١) الواسطة ، ص ٦٣ .
 - (٢) سبقت الإشارة إلى الطبقتين المذكورتين ص ٧٥ .
 - (٣) الواسطة ، ص ٤٩ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٦٤-٦٥ ، والصخرة القرعاء هي جزيرة مالطة ، أما العطن — فهو وطن الأبل ومبركها حول حوض الماء ، أو مريض الفقم . انظر الفيروز آبادي فصل العين باب النسوان .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ ، ٦١ .

الرجال ومرافقتهم إلى العلاهي والمراقص (١)، وقد تترك المرأة - وإن كان لها عيال - بيتها لتمش مع رجل آخر، وكذلك الرجال والبنات والأبناء، فالمجتمع غارق في السفاح (٢) ويؤثر الشدياق أن خير النساء أخلاقاً في هذه الجزيرة البغايا، فهن لا يتعاطن بالنميمة ولا يتجرأن على أحد، بل ويترددن على الكنائس أكثر من غيرهن (٣)، والصفة المشتركة لجميع نساء الجزيرة هي أنهن "مقتصدات نشيطات إلى العمل". (٤) واقتصادهن هذا نتيجة طبيعية لسوء الأوضاع الاقتصادية، وأما النشاط وإن كان نتيجة للوضع نفسه فإن الحرية التي هي قريبة من الفوضى كما أشار الشدياق (٥)، أعطت المرأة هذه الفرصة وهذا الحق.

تحاكي المرأة المالطية المرأة الانجليزية في اللباس، ولكنها تلبس بالإضافة إلى ذلك وشاحاً من الحرير الأسود على رأسها، وعند خروجها إلى أي مكان، ولكنها عندها الذهاب إلى الكنيسة، فإنها تلبس السواد (٦)، ولكل فئة من النساء حليهن حسب وضع المرأة المادي، فالذهب للغنيات، والفضة للمفقرات، وأما الثمين من الحلي، فتتخلى به الخواتم في الرقص والحفلات (٧)، وهن يتفقن إلى حد بعيد مع نساء مصر والشام في المبالغة باقتناء الحلي، ويخالفن نساء الأفرنج في ذلك. (٨)

يتحكم الشدياق على زي ومظهر الرجل والمرأة المالطيين، ومن ذلك أن المرأة المالطية القروية، تتأبط حذاءها، حتى إذا وصلت المدينة ليست (٩)، وأما رجال القري فهم "يشقون آذانهم ويقرطون بأقراط من الذهب، ويرخون سوارف مجمدة". (١٠)، وهو لا ينسى رجال الانجليز الذين يلبسون ملابس مزينة، وإن كان فيها مزية أنهم مناسبون للعمل. (١١)

- (١) انظر الواسطة، ص ٦١.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٦٢.
- (٣) انظر المصدر نفسه، ص ٦٢.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.
- (٥) سبقت الإشارة إلى الحرية الفوضوية التي ذكرها الشدياق، ص ٨.
- (٦) انظر الواسطة، ص ٥٣.
- (٧) انظر المصدر نفسه، ص ٥٤، ٥٥، انظر أيضاً ص ٦٣.
- (٨) انظر المصدر نفسه، ص ٥٥.
- (٩) انظر المصدر نفسه، ص ٥٣.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٥٣.
- (١١) انظر المصدر نفسه، ص ٥٥.

مما يؤرق الشدياق في هذه الجزيرة هو الطعام ، فهم يطبخون طعامهم بشحم الخنزير ، وماء الجزيرة من الآبار التي تجمع فيها مياه الأمطار ، وهي غير صالحة تؤدي بشاربها إلى السعال ونفث الدم (١) ، وأهل الجزيرة يأكلون الدم والسلاحف ولحم الخنزير ويأكلون المخبوق والميتة والثوم والبصل نيئا ، فإذا ما أضيف إلى ذلك قذارة الخادرات اللائي يطبخن الطعام (٢) ، فإن طعام المالطيين يصبح مقززا بالجملة ، وهم فسي ذلك لا يختلفون عن الانجليز (٣) ، بل يتفوق المالطيون عليهم في أنهم يعرفون أصنافا كثيرة من الطعام (٤) ، ولكنهم في المأدبة جشعون لثام ، وقد نظم الشدياق في ذلك شعرا فقال :-

لثام إذا ما زرتهم في بيوتهم كرام إذا زاروك ما أمكن اللّحس .

ولو وسعت أفواههم غير ما بهما لكان لكل بين أنياه فــــأس . (٥)

والانجليز - كما يصفهم - أشدّ بخلا ، فإذا دخلت على أحد من هؤلاء الفاتحين وهو يأكل ، فلا يتكلف أن يدعوك إلى طعامه ، بل ربما غضب على جميع أهل داره على عدم منعهم إياك من الدخول . (٦) ولكنه لا يعمم هذه الفكرة عن الانجليز ، فرجالهم ونساءهم لا يعدون رمزا حسنا للانجليز كافة ، لما يتصفون به من الكبر والبخل والشح . (٧)

يختلف الموسرون من المالطيين عن الفقراء في نوع الطعام الذي يأكلونه ، فالموسرون يأكلون الشورية واللحم والخضر والخمر على الغداء ، وفي العشاء السمك والسلطة ، وأمما الفقراء ، فهم يأكلون الخبز كثيرا ، وربما أكل أحدهم رطلا من الخبز بخمس حبات زيتون . (٨) وهذا أمر طبيعي يفرضه التفاوت في الدخول ، واعتقد أن الشدياق لا ينتظر من الفقير أن يأكل مثل الغني ، ومع هذا التفاوت في نوع الطعام ، فإن المالطيين جميعا تجمعهم صفات خلقية واحدة وهي " السمرة والريعة في القوام ، وسواد الشعر والعيون ، وظل الحواجب وشدة البنية ، وهم في الغالب أجمل من النساء . " (٩) وفي الطبع ، فدأب الجميع

(١) انظر الواسطة ، ص ٣١ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، قال الشدياق ذلك متهمكا على الفقراء .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

" الكدح والتدبير والاقتصاد ". (١) فرئيس أطباء المستشفى ، ينشر الفسيل على سطحه (٢) حتى لا يتجشم نفقات خادمة ، والفني يشتري حاجته من السوق بنفسه ، وربما تأشُر بهذا القربا ، فقد رأى الشدياق قنصل إحدى الدول ، يعلق رايته بنفسه على سطح المنسزل . (٣)

من عادات المالطيين في الزواج ، أن يعاشر الرجل المرأة زمنا قبل الزواج ، ويرفض الشدياق هذا الأسلوب ، ويرى أن فيه ضرا ، فمهما طالت المعاشرة ، فإن المرأة لا تظهر سوء أخلاقها إلا بعد الزواج (٤) ، والملاحظ أنه لم ينشغل بالعادة نفسها باعتبارها غريبة على شرقي مثله ، بل وقف عند النتيجة ، وأما المعاشرة بدون عقد زواج شرعي فلم تستوقفه أبدا .

تمهر المرأة الرجل عند الإفرنج عموما بما في ذلك المالطيون ، فأهل المدن ممن المالطيون ، يقدمون للزوج مهرا وأثاثا ، والفلاحون دجاجا وبياضا . (٥) وأغرب العادات في الزواج عندهم ، أن الزوج يهادي حماء بالأحذية . (٦) والتسرى بالنساء أمم عادي وشائع . (٧)

أعجب الشدياق بعادات المالطيين في الجنائز ، من حيث أنهم لا يبكون ولا يعولون فإذا كان الميت طفلا ، فإن الناس يهنئون والده من باب أن ذلك فال حسن ، ويشري المواليد بالجنة ، وإذا ولد طفل يجعلون سقوطه على تبن تشبيها بالمسيح عليه السلام . (٨)

-
- (١) الواسطة ، ص ٦٣ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
 - (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٢ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

الأحوال الاقتصادية في مالطة

يبدو من حديث الشدياق، أن الزراعة هي المصدر الأساسي الذي يقوم عليه اقتصاد هذه الجزيرة، والغلات الزراعية قلت أو كثرت، فهي منفرة، ويرى الشدياق " أن أرضا لتأكل من زائرها لجديرة بأن لا يؤكل منها " (١) فهي بالإضافة إلى سوء مائها وهوائها، فإن أرضها لا تصلح للزراعة، إلا أن اجتهد المالطيون وفردت كدحهم، جعل الأرض تنبت لهم بعض البقول والفاكهة (٢)، ولكنهم مع هذا مضطرون للاستيراد من بلاد مصر والترك وصقلية وأفريقية، لعدم كفاية تلك الغلات مدة تزيد على أربعة شهور (٣)، وهذا الفقر في الغلات الزراعية والموارد الأخرى، جعل أهلها خصوصا في الهم والحر (٤) وقد لاحظ الشدياق أن أهل الجزيرة يتهافتون على الكسب المادي، من أي وجه كان كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الأحوال الاجتماعية (٥)، من هنا يتبين المرء أن الانجليز لم يكن لهم هدف اقتصادي عند احتلال الجزيرة، بقدر ما كان موقعها الهام دافعا أساسيا " حيث تقع بين عدة برور شرقية وغربية... فإنه يتعذر السفر إلى بعض جهات الشرق من غير المرور بها " (٦)

تفتقر جزيرة مالطة إلى صناعة متقدمة كما أفاد الشدياق، فجل صناعتها تقليدية لا تتجاوز أعمال النجارة، والحدادة، والسكافة، والنساجة، والصباغة (٧)، ويهتبن المـرـ وضمها الاقتصادي من خلال ما يباع في أسواقها حيث " لا عيب على من يشتري نصف راجة، بل ربعها أو جناحيها أو رأسها أو مئزرها " (٨) لذلك فإن صاحب العيلة مضطـر أن يرهن في منزله الحيوان، ويخـزن

-
- (١) الواسطة، ص ٢٥.
 - (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٢٩.
 - (٣) انظر المصدر نفسه، ص ٢٩.
 - (٤) انظر المصدر نفسه، ص ٢٥، ٢٦.
 - (٥) مر ذكر ذلك عند الحديث عن الأحوال الاجتماعية لمالطة ص ٨٠.
 - (٦) المصدر نفسه، ص ٣٢.
 - (٧) انظر المصدر نفسه، ص ٣٢، ٤٩.
 - (٨) المصدر نفسه، ص ٣٦.

المؤنة تخفيفاً للكلفة: (١)، ويأكلون الخبز بكثرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولهم — إذا فهم — كثير من الملح بذكر الخبز. (٢) من أجل ذلك، فإن الإنجليز يرفقون بالمالطيين لأن دخلها ضئيل، ولا تكاد الجزيرة كلها أن تدخل واردًا يساوي هكس صنف واحد فسي انكثرت. (٣) والإنجليز — اعتماداً على ما جاء في الواسطة — لم يفعلوا شيئاً من شأنه أن يحل مشاكل الجزيرة الاقتصادية والاجتماعية، واستكثر الشدياق أن عساكر الإنجليز ينفقون مالهم حتى آخر قرش في الحانات والملاهي على الزواني. (٤) وكان في ذلك حلاً لمشاكل الجزيرة، وقد دفع هذا الوضع المتردي المالطين للهجرة طلباً للرزق، كما دفعهم إلى التذمر المستمر، والغريب أن الشدياق مع كل هذه المحن لا يعطيهم مبرراً للشكوى طالما أن العساكر تنفق أموالها في الحانات، والأغرب من ذلك أيضاً أن انعكاس ذلك على الحياة الاجتماعية لم يلفت نظر الشدياق.

إن التسول والمصوذية والهجرة طلباً للرزق، بالإضافة إلى النصب والاحتياال، والثقافت على الكسب المشروع وغير المشروع، كلها مجموعة معطيات تدل على الحكم الإنجليزي للجزيرة ومع ذلك فإن الإدارة يوجهها الشدياق للمالطيين، ويستغرب "بربرتهم" (٥) على الإنجليز ولم يلفت نظره الصورة البشعة للاستعمار، وسلط الأضواء كلها على عيوب وثغرات الحياة والأرض والشعب في مالطة، مع أنه قد هزته مظاهر تشبه ما رأى في مالطة، في بلاد الإنجليز حيث دعا دولة الإنجليز وكنيستهم لحل هذه المشاكل، في الوقت الذي لم يسمع له صوت مشابه لحل المشاكل في مالطة (٦)، مع أن المسؤول في المكانين واحد، لكن الصورة في مالطته أكثر مأساوية واطلاماً، ويبدو أن هذا الموقف من الشدياق يعود إلى عاملين:

(١) انظر الواسطة، ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦، مر ذكر ذلك ص ٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٦) انظر حديث الشدياق عن مظهر المتسولات في لندن، وكيف يصور حالتهم البائسة ويصفو بحرارة، لحل مشاكلهم من قبل الكنيسة والدولة، وذلك في الساق

على الساق، ص ٦٢١.

الاول : - تبني الشدياق لوجهة نظر المبشرين البروتستانت الذين كان يعمل معهم ، وهم مرسلون أمريكيان وإنجليز ، وكانوا يرون في الاحتلال الإنجليزي محاولة لتطويع الجزيرة وتهذيب سكانها .

والثاني : شعور الشدياق بالاستعلاء الحضاري ، على السكان لفة ، قلفتهم عريضة فاسدة محشوة بالإيطالية ، وثقافتهم خليط ، لا ملامح لها على الإطلاق ، والاستعلاء هذا لا يمكن أن يكون موجودا في التعامل مع الإنجليز ، ولذلك يحاول الشدياق في التعامل مع الجزر البريطانية ، أن يكون ناقدا رفيقا ، يهدف إلى تحسين مثالية الصورة التي يجب أن تكون عن الغرب .

أحوال مالطة الدينية والسياسية والإدارية

وضع الشدياق يده على مختلف الأمراض والعلل في مالطة ، ولعل الجبل كان أحد هذه الأمراض ، وقد انسحب الجبل عليهم في مجال الدين فهم " لا يفهمون ما المراد بالدين " (١) ، وأكثر ما يهمهم من الدين أعياده الكنائسية ، وربما جاء هذا بدافع رغبتهم في ممارسة الطلذات والفحش (٢) ، ومع وجود هذا الغدش والسخف في بعض ممارساتهم إلا أن الإنجليز يجاملونهم ، فحاكم الإنجليز يولم لعليتهم في الأعياد (٣) ، ويتساهلون مع العامة في طقوسهم ، مع أن هذه الطقوس مغايرة لعقائد الكنيسة الإنجليزية (٤) ، وقد وضع الشدياق يده على أسباب هذه المجاملة ، حيث أن الإنجليز لا يبالون بمبادئ المذاهب والأديان وجل اهتمامهم الطاعة للتاج وأداء المال (٥) ، ويبدو أن الكنيسة المالطية كانت على وفاق تام مع السلطة الإنجليزية ، حيث لم يشر الشدياق إلى أي تناقض بين السلطتين ، وهذا طبيعي طالما أن مصالح الطرفين تتحقق دون معارضة من الآخر ، فالكنيسة لها نفوذها على الشعب

(١) الواسطة ، ص ٦٧ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٢ . مذهب المالطيين كاثوليكي ، انظر المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

المالطي ، ويظهر هذا النفوذ في كثرة الكنائس والنفقات المخصصة للقسيسين ، وفي الأموال الطائلة من الذهب والفضة التي تعلق هذه الكنائس (١) ، وفي الوقت الذي يعاني فيه الشعب المالطي العوز والفاقة ، كما لم يشر الشدياق إلى أي دور إيجابي للكنيسة في الجزيرة ، على الصعيد الاجتماعي والثقافي أو غيرها ، بل إنها تساهم إلى حد كبير في غرس الجهل في عقول العامة ، من خلال تكريسها لمجموعة من الطقوس الغريبة مثل تعويد الأجراس والمراكب والبيوت . (٢) ، وهم يظهرون حماسة غريبة لذلك ، ولا يشبههم أحد في ذلك غير أهل أيرلندة (٣) ، وهم يرون أن الانجليز أبعد ما يكونون عن النصرانية ، حتى أنهم يأنفون أن يطلقوا عليهم هذا الاسم ، ولا يعترفون بزواج إنجليز من مالطية ، إذا تم هذا الزواج على يد قسيس إنجليزي . (٤) ومع هذا التباين ، ظل الانجليز محافظين على التوازن في الجزيرة ، حتى أن المجاملة الإنجليزية لأهل البلاد كانت تدفعهم أن يرسلوا " المعسكر بعزفون بالآلات الطرب " . (٥) في الأعياد الدينية المالطية .

يرى الشدياق أن الانجليز متفضلون على أهل الجزيرة في إنشاءهم " جملة مصالح ومعالم " . (٦) معتمداً على أن المالطيين " يقرون بأن حكامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم " . (٧) ويبدو أن الجزيرة لم تكن في يوم من الأيام مستقرة ، فليست معاناة أهلها من الإنجليز فحسب ، بل إن المسلمين الذين فتحوها " لم يكونوا من أهل العلم والتعمدن كالذين كانوا في عقليّة " . (٨) لذلك كانوا يعاملونهم معاملة سيئة قبيار رونهم بالشتائم على حد قول الشدياق (٩) ، وتاريخ الجزيرة يعج بالاحتلال والقتال منذ سنة ١٥٨٠م ، إلى أن احتلها الانجليز (١٠) لذلك فلا غرابة أن يحس هؤلاء بالعداوة للغريب وخاصة

-
- (١) انظر الواسطة ، ص ٤٤ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٨ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٧٢ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١ - ٢٢ .

الإنجليز ، "فما من مالطي تسنح له فرصة لأذى إنجليزى الآ ويقتهرها . " (١) ولكن الإنجليز لم يحيدوا استفزاز المالطيين ، لأن الجزيرة عزيزة عليهم . (٢) ، فقد موا بعض الامتيازات لأهلها حتى يمكن القول " أن الحكم هنا مالطي ، وإن يكن الحاكم إنجليزيا ، فإن القضاة وفقهاء الشرع ، وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين ، وشرطة الديوان جميعهم مالطيون . " (٣) ومع ذلك فإن نظرة المالطي إلى الإنجليزى ، هي نظرة ابن الوطن إلى المستعمر ، خاصة وأن المالطيين يحبون وطنهم حباً شديداً ولا شيء يمجبهم في الدنيا مثل بلادهم . (٤) وهذا وضع طبيعي فهم ليسوا مجبرين أن ينظروا إليها بمنظور الشدياق ، على أنها صخرة قرعاء في وسط البحر . (٥)

من الشفرات القانونية والإدارية في مالطة ، أن أصحاب الشبهات يعاملون معاملة ذوي الفضل في المحاكم (٦) ، ولا يردع المعتدى ، ولا يعاد اعتبار المعتدى عليه مهما كان كريماً أو وجيباً ، وكل ما يهم الإنجليز المال المتحصل من هذه الخصومات للخرينة . (٧) ، لذلك فلا غرابة أن تكثر الخصومات ، والفسخ في البيع والشراء والمعاملات . (٨) . أعجب الشدياق قانون إنجليزى مفاده " أن كل من يدخل أرضاً تحت حكمهم يصير حراً ، وتجري عليه أحكامهم ، وقد جاء مالطة كثير من كان لديهم عبيد وإماء ، فأجبروا على تحرير رقيقهم . " (٩) كما أعجبه قانون الجنسية الإنجليزية فمن " يقيم خمس عشرة سنة ويعلم أنه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك ، حق له أن يطلب الحماية الجنسية . " (١٠) تركت العلاقة بين الحاكم والمحكوم أثراً في حياة المالطيين ، من الناحية الاجتماعية والثقافية ، وهذه ظاهرة غالباً ما تتكرر في مثل هذه العلاقة ، فدأب الضعيف أن يقلد

-
- (١) الواسطة ، ص ٢٨ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٢١ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢١ . انظر أيضاً المصدر نفسه ، ص ٥١ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

القوي الحاكم ، من هنا ، ظهرت بعض آثار ذلك عند المالطيين ، في تنظيم بيوتهم ——— وعاداتهم (١) ، وخاصة العقلة منهم .

الأحوال الثقافية في مالطة

انطلق الشدياق في حديثه عن الأحوال الثقافية في مالطة ، من اللغة المالطية — فرأى أن هذه اللغة فاسدة لا تصلح للتأليف (٢) ، ولذلك فإن المالطيين يتعلمون اللاتينية لا احتياجهم إليها في المعاملات والتجارة ، والإنجليزية لأنها لغة الحكام (٣) ، ولغة لم يؤلف بها ، وأولا تصلح للتأليف ، تظل جامدة ضمن إطار ضيق ، لا يتعدى الاستعمال المحلي في التخاطب والتفاهم ، من هنا لم يهتم الأوروبيون بدراستها ، ودرسوا العربية التي كان يجدر بالمالطيين دراستها (٤) ، ولم يشأ الشدياق أن تكون أحكامه مجرور كلمات ، فجاء بأمثلة على شعر المالطيين ، ومنه نوع يسميه أهل الجزيرة التقبيل ، فنقده لغة الشعر ، من حيث إعجام الحروف ، وقلب بعضها ، واستبدال أرواات النداء . . . (٥)

أما التعليم فإن المالطيين إذا رغبوا به ، فإنهم يتعلمون بلغات غيرهم ، وهذا ما يحدث في مدارسهم الجامعة التي تعلم الفنون واللغات (٦) ، بل حتى دار الكتـب فيها " باللفات الإفرنجية " (٧) ولدى المالطيين مدارس وقفية تعلم مجانياً ، أو مقابل مبلغ زهيد ، بالإضافة إلى دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا . (٨)

لا تقبل المرأة المالطية على العلم ، ولو شأ ذلك ، فهو من أجل قراءة الكتاب الكنائسية (٩) ، بخلاف نساء الإنجليز اللواتي يحسن " القراءة والكتابة ويؤسسن العلم

-
- (١) انظر الواسطة ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٩١ ، ٩٣ .
 - (٥) انظر أمثلة على النظم المالطي ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ، ٤٦ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

في أولادهن على صفر . (١) .

كان الوضع الثقافي في مالطة يزعج الشدياق ، ومن أجله أمضى من عمره فـ في مالطة " نحو من أربع عشرة سنة ، كان في أثناءها ركنا من أركان النهضة الفكرية في تلك الجزيرة . " (٢) حيث دعاه المرسلون الأمريكيون ، فعمل معهم في النشاط المطبعي ، وظل طيلة تلك الفترة مدير مطبعتهم ويصحح مطبوعاتهم (٣) ، وقد عمل بالإضافة إلى ذلك معلما في مدارسهم كما أفاد هو نفسه . (٤) وربما جاء صبره على هذا العمل الشاق لأنه رأى أن لغة المالطيين فرع من دوحة العربية ، وشيعة من ثمرها (٥) ، بالإضافة إلى حبه للطباعة والعمل الصحفي . (٦) كل هذا في الوقت الذي كان المالطيون يكرهون العرب ، ويفضون أن تكون لغتهم فرعاً من العربية . (٧)

اللغة والموسيقى

يربط الشدياق بين اللغة والموسيقى ، وذلك من خلال قوله بأن هناك لغة مطاوعة للغناء ، ولغة غير مطاوعة . (٨) ، ويربط بين الأصوات ومخارجها من جهة وبين الفن الغنائي ، فقد رأى أن أصوات الانجليز كلها خارجة من أزوارهم ، وهو بهذا يود القول أن لفظة الانجليز غير ملائمة للغناء ، ولكن الفرنسية أشجى لفات الا فرنج ، وربما يظرب لها من يسميها لأول مرة لكونها مع الفنة (٩) ، ولكنه لا يرى هذا حكماً نهائياً فـ أن

-
- (١) الواسطة ، ص ٧٧ .
 - (٢) رّواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث ، ص ٩٨ .
 - (٣) انظر ، إبراهيم عبده ، أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ط ١ ، ص ٥١ .
 - (٤) الواسطة ، ص ٤٤ ، انظر أيضاً الساق على الساق ، ص ٤٥٤ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .
 - (٦) انظر أعلام الصحافة العربية ، ص ٥١ . انظر أيضاً عمار الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٣ .
 - (٧) الواسطة ، ص ٩٣ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

"للمعادة تأثيراً في جميع الأحوال ، وخاصة في المنطق والألحان". (١) أى أن من اعتاد لغة قوم وسماع موسيقاهم أحبهما .

تحدث الشدياق عن اللغة بممزل عن الموسيقى والفناء ، وكانت اللغة المالطية هي محور حديثه ، فتوصل إلى أن المالطية هي " العربية شبيت بلهجات الفزاة والفتحين والدانهم ". (٢) وبين أن ما فيها من الألفاظ ، التي اعتبرها البعض غير عربية ، مثل البير والصيد ومن خلالها حكموا على أن اللغة المالطية فينيقية ، فحجتهم باطلة ، لأنه يوجد مثل هذه الألفاظ في اللغة العربية . (٣) ، ويذكر أن أسماء المواضع والأماكن في مالطة ، تعود إلى أصل عربي فغودش وهي جزيرة ، أعلاها هنودج ، والربط ، محرف عن الرض (٤) ، لذلك وعلى هذا الأساس فإن " أسماء قراها ومواضعها كلها عربية محضة ". (٥) .

يعرب المالطيون لفتهم بالجيم ، وأحياناً بالقاف ، مثل الديزج والشرج والرسحاق والغرزاق ، (٦) وهذه الحروف تسد مسد الحركات في أواخر الكلمات ، ويبدلون الحروف مثل " قولهم سهجه وسهكه ، وسحقه ". (٧) ويحذفون كذلك ، مثل قولهم قلا وتلا القلوع وطلع . (٨) ، ويرى الشدياق أن " بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة ، عدم تقييدها في الكتب ، دليل على مالها من القوة والتمكن ، عند من تصل اليهم من الأجيال ". (٩) .

تحدث الشدياق عن الموسيقى والفناء بممزل عن اللغة ، وكانت الموسيقى والفناء عند الإفرنج والعرب والمالطيين محور حديثه ، وخلص من حديثه هذا ، إلى أن الإفرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاف ويتقيدون بالنقش . (١٠) ولا يعرفون الارتجال على عكس العرب

-
- (١) الواسطة ، ص ٨٦ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ انظر ايضاً في الأدب الحديث ١/ ٧١ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ٨١ ، والنقش هو النوتة الموسيقية .

وان غناءهم مثل قرائتهم فهو لا يخلو من حماسة وتهيج ، وهم يارعون في ذلك وخاصة في الموسيقى العسكرية، وهذا لا يوجد عند العرب (١)، ولكن المالطيين يختلفون عن الطرفين " فأهل القرى منهم ليس لهم إلا أغان قليلة ، وإذا غنوا مطوا أصواتهم مطوا فاحشاً " (٢) وإذا غنوا جماعة لا " يخرجون أصواتهم إلا من مقام واحد " (٣)

يعتبر هذا الفيض من المعلومات الموسيقية عند الشدياق ، دليلاً على " تمكنه فيمانرى من تذوق النغم واستحسان الجرس " (٤) وهذا له دلالة على ولعه بالموسيقى ومن هذين المنطلقين تجرأ على الخوض في مثل هذا الموضوع ، مع أنه ظهر معذراً ومستأزناً أصحاب هذا الفن ، عند بداية حديثه (٥)

اللغة والأسلوب

قسم الشدياق " الواسطة " إلى فصول ، ونظم عرض الملاحظات (٦) ، وتحدث فسي فصوله حديثاً لا يخرج عن العنوان ، فهو عند حديثه عن " عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم " (٧) مثلاً ، لا يخرج عن العنوان قيد شعره ، وهذه المسيرة تكتاد تتسحب على بقية الفصول ، وهذا على الرغم من أنه لم يرسم ذلك في منهجه في المقدمة ، غير أنه يتضح أنه قرر الاعتماد على العقل والتجربة في حكمة على الأشياء (٨) ، ولكن ضجيجاً بالشكوى من هذه الجزيرة بل من كل صغيرة وكبيرة فيها ، تجعل المرء يتوقف عند تصريحه في المقدمة ، عندما قال انه لم يمل به هوى ولا غرض ولا انحراف عن الحق ، وأنه روى ما روى عن هذه الجزيرة بحسب ما رآه (٩) وهو بهذا القول قد هيا القارئ بأنه سيكون حيادياً منطقياً في أحكامه ، كل هذا يستوجب التساؤل باستفراب عن مدى صحة كـ

- (١) الواسطة ، ص ٨١ ، ٨٢ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- (٤) أحمد فارس الشدياق وآراءه الأدبية واللغوية ، ص ١٤٣ .
- (٥) انظر الواسطة ، ص ٧٩ .
- (٦) عقرب لبنان ، ص ١٥٣ .
- (٧) الواسطة ، ص ٥٣ .
- (٨) انظر المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ١٢ .
- (٩) انظر المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ١٤ .

الجزيرة مجردة عن الإيجابيات تماما كما صورها ، فالحيادية في الأحكام ليست على مطلقها فقد قال في حديثه عن علاقة الإنجليز بأهل الجزيرة بأن الإنجليز ذوو فضل على الجزيرة وأهلها (١) وعلى الرغم من كثرة الآراء للشعب المالطي ، في شتى النواحي فإنه لم يسمع له صوت واحد يدين الإنجليز ، فيما يتعلق بأحوال المالطيين ، في الوقت الذي وضع يده على علل وأمراض كثيرة تدين الانجليز ، وأما المنطقية ، ففي أحكامه — يؤكد وجودها ، ومن ذلك عدم استسلامه " لما تواضع الناس عليه ، وعدم التسليم — بالأفكار . " (٢) قبل مناقشتها ، فقد ناقش بوليه Pole الفرنسي الذي يقول بأن أهل مالطة قد صرفوا همهم إلى زراعة التوت وتربية القز ، ورد عليه بأن هذا الاتجاه قد فشـل عند — . (٣)

اعتمد الشدياق على مصادر جغرافية وتاريخية ولغوية في كتابته عن مالطة ، فكان أحيانا يصحح باسم المؤلف ولا يذكر اسم كتابه ، ومن ذلك قوله " وذكر بوليه المؤلف — الفرنسي . . . " (٤) وقد ذكر المعلومات دون أن يسندها إلى كتاب أو كاتب ، مثـل قوله " روى بعض المؤرخين . " (٥) أو قوله " ذهب بعضهم . . . " (٦) وربما ذكر الكتاب دون الكاتب ومن ذلك : " ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الفرائيق . . . " (٧)

يجتهد الشدياق كثيرا لتحديد هوية الأشياء ، فقد اعتمد على المكتشفات الأثرية لاثبات وجود الفينيقيين في جزيرة مالطة ، فيقول في ذلك : " وموقع هيكل عركوليس أي مرسى الشرق ، وهو من بناء الفينيقيين . وقد وجدت فيه آثار كثيرة . . . " (٨) وقد يجتهد معتمدا على اللغة ، فقد اتكأ على اليونانية والعربية والكوشونية والسريانية ، لتوضيح اسم مالطة فقال : " سماها المسلمون مالطة ، ومعنى ميليسية أو ميليتيه في لغة اليونان

-
- (١) الواسطة ، ص ٦٦ . سبقت الإشارة إلى ذلك ص ٨٩ .
 - (٢) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٨٢ .
 - (٣) انظر الواسطة ، ص ١٤ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١٨ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

النحل . . . وفي السريانية وهو اسم إله ، ولا يبعد أن يكون ذلك من الغنيقية (١)
وكثيرا ما يعود إلى المعاجم ليحكمها في اسم من الأسماء، ومثل ذلك في تسمية شبراس
وهي مكان في مالطة ، فبعد أن عرض لمختلف الاجتهادات تحكّم "الصّاح" ، وخلص إلى
أنها في الأصل شعب الرأس كناية عن أصل الشيء ومجتمعه . (٢)

اعتمد الشدياق على أسلوب المقارنة بين مالطة وأوروبا ، وبينها وبين مصر والشام
من جهة أخرى (٣) ، وهذه المقارنات ظهرت بشكل مشر أثناء حديثه عن الموسيقى ، حيث
قارن بين الألحان الشرقية والغربية ، وبين الألحان المصرية والشامية ، وذلك من خلال
حديثه عن الموسيقى والفناء المالتيين . (٤) وهو دائما يأتي بالحجة في المقارنات
ومن ذلك أنه اعتبر غناء الطليانين أعلى من غناء الانجليز بل سائر الإفرنج ، وذلك لكثرة
ما في لغتهم من الحركات ، يعكس اللغة الانجليزية التي تكثر فيها السواكن بحيث
لا تطاوع على الفناء . (٥)

ان هذه المقارنات تعد ميزة حسنة سجلها له لويس عوض (٦) ، وإن كان قد أخذ عليه
محمد عبد الفني حسن عتفه في أحكامه على أهل مالطة (٧) ، أثناء المقارنات ، حتى ليخيل
إلى قارئه أنه يتحامل على القوم . (٨) ونتيجة لهذا التمهيص والمقارنات ، اعتبر مارون عبود
أنه لم يكن "راوية أخبار ومحدثا عن الفرائب والعجائب ، بل كان عقلا جبارا يناقش في كل
غرض ، ويبحث في كل مطلب ، صديا رأيه غير وجل" . (٩) وهو يتوخى الدقة خاصة في الأمور
التي لها مساس بالاحصائيات والأرقام ، ودقته هذه تدل على اطلاعه على السجلات الرسمية

-
- (١) الوساطة ، ص ١٩ - ٢٠ ، انظر أيضا ، المصدر نفسه ، ص ٢٤ ، م . ل . ط .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨ ، شبراس ربوة بالقرب من البحر في مالطة .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٥ ، ٥٨ ، انظر البحث ص ٩١ - ٩٣ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٩ - ٨٧ ، وصيغت الإشارة في ذلك أن طرحه طرح التخبير .
وليس طرح الهاوي كما قال عن نفسه ، انظر البحث ، ص ٩٣ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
 - (٦) تاريخ الفكر المصري الحديث ، ٢ / ٢٢٨ .
 - (٧) محمد عبد الفني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩٣ .
 - (٨) المرجع نفسه ، ص ٩٣ .
 - (٩) صقر لبنان ، ص ١٧٤ .

ومتابعة الصحف التي تهتم بنشر هذه المعلومات الإحصائية ، ومثل ذلك ما عرضه عن ميزانية الانجليز في مالطة (١)، ومما أخذه لويس عوض على الشدياق في الواسطة، اهتمامه بالتفاصيل والجزئيات والثانويات ، ورأى أنه لا يتمق في الظواهر (٢)، ومثل هذا في الواسطة كثيرة، ومنه أنه تحدث عن فقر أهل مالطة وتكالبهم على المال ، وكره هذه الظاهرة فيهم (٣) ولكنه لم يتمق في الأسباب التي أحدثت هذه الظاهرة ، ولم يتعاطف مع المالتيين كما لم يتمق في طبيعة العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في الجزيرة سوى قوله ، ان المالتيين يتكلمون دائما على الانجليز (٤)، وبين الجوانب الإيجابية - على قلتها - لحكم الانجليز (٥)، ولم يتمق في كل السلبيات الناتجة عن الاستعمار الإنجليزي للجزيرة ، كما أنه ذكر أمراضا اجتماعية مثل الفقر والانحراف ولكنه لم يناقش أسبابها ولم يضع لها حلاولا مع أن هذه القضايا تعد منغذا للتمق في طبيعة العلاقة بين الانجليز والمالتيين ، بحيث تبدو الصورة أكثر وضوحا ، وفي هذه الحالة ربما يتعاطف مع المالتيين ، حيث أخذ عليه لويس عوض قلة العطف هذه (٦)، حيث يصور الشعب المالطي تصويرا بشعا وخاعة فقراهم ومتسوليهم (٧)، في الوقت الذي يبدو متعاطفا إلى حد كبير مع متسولات لندرة في كتاب الساق على الساق ، ويدعو بتأثر شديد الدولة والكنيسة للموقوف الى جانبهم . (٨)

بعد تهكم الشدياق مزية جيدة في الواسطة في بعض المواضع ، حيث يساهم إلى حد كبير في توصيل الصورة الكاريكاتورية التي يرسمها لبعض المظاهر ، ومثل ذلك وعفه لأزياء رجال القسرى في مالطة ، الذين " يشقون أذانهم ، ويلبسون طرابيش مختلفة الألوان ، مسدلة على أكتافهم ، وهي شبيهة بالأجرة ، ويمشون حفاة ، ويتحزمون بأحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب " . (٩) ويكمل الشدياق وضع اللبس على الألوان لتكتمل الصورة ، فيقول : " ويدي ما ينبغي أن يستر ، فإنامشي أحدهم على هذه

- (١) انظر الواسطة ، ص ٧١ ، ٧٢ .
- (٢) تاريخ الفكر المصري الحديث ، ٢٢٨ / ٢ .
- (٣) انظر الواسطة ، ص ٦١ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
- (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
- (٦) انظر تاريخ الفكر المصري الحديث ، ٢٢٨ / ٢ .
- (٧) انظر الواسطة ، ص ٤٩ .
- (٨) انظر الساق على الساق ، ص ٥٩٣ ، انظر البحث ، ص ٣٧ .
- (٩) الواسطة ، ص ٥٣ .

الصفة ،نظر إلى عطفية كالزوزك وإلى سراويله وحذائه .*(١)

مما يلفت النظر في الوسطة ،الواحاح والاستراحات التي يتوقف فيها الشدياق ليربح القاري ،وهذه الاستراحات متعمدة وليست على سبيل الاستطراد المعقود،وربما يفعل ذلك للتفكه والتفجير ،ومن ذلك ،أنه أثناء حديثه عن الإبدال في لغة المالطيين ،تطرق إلى ابدال السين ثاء ،فأورد شعرا في الإبدال ،وبعدها انتقل لشعر قاله في مليحة مالطية^(٢) وتحدث عن مداواة الشيء بنظيرة عند حديثه عن المقاعد الخشبية التي لا توضع عليها نمارق عند المالطيين ،التي يجلسون عليها في الدكاكين والبيوت ،فأورد شعرا في ذلك لأبي نواس وابن دريد والبحترى .*(٣) وما يشير إلى تعمد هذه الوقفات ،قوله : " فائدة يحسن استطرادها هنا .*(٤)

لغة الشدياق في الوسطة ،ليست في مستوى واحد ،ففي المقدمة كان مقلدا ،فجاءت مسجوعة مصنوعة من أولها إلى آخرها ،فهو يقول في أولها : " الحمد لله الذي أحصى كل شيء كتابا ،وأعد للمتقين جزاء حسابا ،وألهم ابن آدم أن يضرب في الأرض ويكدح لنفسه كدحا ،ويجوب مناكب البلاد ليدرك نجحا .*(٥) وفي المتن يتحدث حديثا سهلا مرسلا غير مصنوع،وكانه يحدث شخصا دون تكلف ،ويظهر هذا في قوله : " إنما قدمت هذا الفصل في كلامي لأهميته ،فإن العافية خير ما يملك الانسان .*(٦) ولكنه كان يكتب بأسلوب أدبي مؤثر ،بعيد عن الأسلوب العلمي المنطقي في بعض الأحيان ،ومن ذلك حديثه عن دار للمعزة في مالطة ،ومنه قوله : " والرابع للطاعتين في السن العاجزين عن تحصيل مصاشهم ،العادين لوداع الدنيا يدا ،والمغمضين عن رزها ونعيمها عينا ،قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار ،يعتبر بهم اللبيب ،ويتعظ بهم المستهتر في حـب هذه الدنيا الفرور ،إذ تراهم كالأغرار من الأولاد ،قد انحنت منهم القدود ،لما استوى عندهم راعي المشيب ،وانحلت منهم القوى ،بعد أن غلت منهم الأفكار والنهي ،فهم

-
- (١) الوسطة ،ص ٥٤ . الزوزك : من الزوك وهو مشي الغراب ،وهو الخطو المتقارب في تحرك جسد الماشي انظر ،لسان العرب باب الكاف ،فصل الزاي .
 (٢) انظر الوسطة ،ص ٥٠ .
 (٣) انظر المصدر نفسه ،ص ٥٩ .
 (٤) المصدر نفسه ،ص ٥٩ .
 (٥) المصدر نفسه ،ص ١١ .
 (٦) المصدر نفسه ،ص ٢٥ .

يقضون ما بقي من ظم حياتهم فكان وصاره* (١) وخلا هذه الفقرة ، فإن الشدياق في الوساطة ، يكاد يسير على وتيرة واحدة من الحديث العلمي السهل ، الذي لا يقصد من وراءه سوى توصيل المعلومة ، بلغة واضحة بعيدة عن العواطف .

لم يرسم الشدياق لنفسه منهجا واضحا في المقدمة ، وهو يبرر الاستطرادات الواردة في المتن ، بقوله عند التقديم " والحديث ذو شجون " (٢) وربما يعني استطراداته في الجزء المسمى " كشف المخبا عن فنون أوروبا " ، إذ تقرر أن استطراداته في الوساطة كانت واعية ومتعمدة على قلتها .

بين في المقدمة دوافع رحلته ، وقد ربط هذه الرحلة بحبه لبلاده ، التي يؤرقه خلوها من التمدن والعمران ، (٣) مع ما كان لها من المجد في العصور الغابرة على حد تعبيره وقد عللت نازك سابا يارر حديثه عن أمجاد العرب أنه محاولة " للحفاظ على كرامة العرب من جهة ، والتقليل من قيمة المنجزات الغربية " . (٤)

وردت في الوساطة بعض الألفاظ التي أحدثها الشدياق أو استبدل مدلولها ، مثل كلمة " المتشبعين " (٥) أي حديثي النعمة ، وأطلق على العادات ذات الصبغة الرسمية لفظ " سنن " ، (٦) وهو يعمد إلى الشعر أحيانا لتصوير الأشياء ، فقد صور بخل الإنجليز بقوله :

إذا زرت أرحيهم داراً	توهم غولاً قد اغتالهم
يخلق أبواباً ان نسوى	فطورا ويحكم إقفالهم
ومن كان فهم له خدام	يظن المعالي قد طالهم
إذا تتبوا كرسياً	ويشك من زوجه حالهم
يرى أنه محسن مفضّل	وأنّ العاثر قد نالهم

(٧)

- (١) الوساطة ، ص ٤٦ ، ورزها ، يقال للدنيا أم رز ، ودرز الرجل إذا تمكن من نعيم الدنيا ، الظم ، بكسر الظاء وتسكين الميم ، بين الشربين والوردين ، وانظر لسان العرب انظر فصل الدال ، باب الزاي ، وباب الهزة فصل الظاء بالنسبة للكلمة الثانية .
- (٢) الوساطة ، ص ١٤ .
- (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
- (٤) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٤٠ .
- (٥) الوساطة ، ص ٥٣ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

يتضح مما سبق أن الشدياق عندما كتب بواسطة ، لم يكن متعاطفا مع الشعب المالطي ، صحيح أنه وضع يده على العلل والأمراض في مختلف نواحي الحياة ، ولكنه لم يصف العلاج لهذه العلل ، كما فعل في الساق على الساق ، إذ أن الأمراض الاجتماعية التي شاهدها في مالطة ، لا تختلف كثيرا عن الأمراض التي رآها في البلاد العربية ، ومع ذلك فقد كان رآه في الوساطة أن يظهر المالطيين كأجمل الأجرب الذي لا دواء له ، وإن كان عذره أن العرب أهله وبلادهم بلادهم فإنه أشار إلى أن مالطة تكاد تكون عربية بلغتهم وان تداولت عليها الام على مدار التاريخ ، هذا بالإضافة إلى أنه يجب أن يولي المالطيين نظرة إنسانية ، إذ تقرر أنه عرف بأنه انساني المذهب ، وإن لم يكن يحمل فكرا مكملا إزاء القضايا الإنسانية .

ان تجربة المالطيين مع الاستعمار الإنجليزي لم تحرك في الشدياق نزعاته الإنسانية المعروفة ، على الرغم من أنه عاش تجربة القهر الفكري من جهة ، كما عاش تجربة الاحتلال لوطنه وما ترتب عليها من قهر لشعبه وأهله ، وإن قيل ان البلاد العربية آنذاك لم تكن قد اكتسوت بنار الاستعمار ، فاعتقد أنه لا يفوت الشدياق أن القهر هو القهر أي كان مصدره ، وإلا لما رفضه للمصريين من الأتراك منطلقا من حسه القومي .

أما ما عدا ذلك من الأمور المتعلقة ، بالأرض المالطية ، والمناخ ومساوي الطعم والشراب ، فلا تعطى الشدياق مبررا أن يستغرب حب المالطيين لبلادهم ، فإنه قد تقرر أن حب الوطن لا يكون له مبررات وأسباب ، إلا إذا أراد الشدياق أن ينظر المالطيين لبلادهم بعينيه ، ويحسوا قيمتها بإحساسه ، فإذا كان الإنجليزي المستعمر ، يعتبر هذه الصخرة — كما وصفها الشدياق — عزيزة لمجرد أهداف عسكرية واستعمارية ، فكيف ينظر إليها المالطي ، الذي يعيش على أرضها منذ وعي ، والشدياق الذي يكون فكرة مثالية لدى القاري فيما يتعلق بالأرض والوطن والحرية في كتاب الساق على الساق ، كان حريابه أن ينظر إلى المالطيين على أنهم جد يرون بأن يحسوا حسا إيجابيا اتجاه هذه القضايا ، فمن حقهم أن يكرهوا الإنجليزي وأن يهربوا عليهم على حد تعبيره .

وفي اللغة والأسلوب ، فقد ظهر أن سير الشدياق ، كان سيرا واعيا ، فكان يعرف سلفا ماذا يريد أن يقول ، ولم تحكمه رغبته في الاستطراد المعفوي الطويل للخروج بالقاري

عن صلب الموضوع ، وظلت لغته سهلة واضحة ، تتلاءم مع مهمته باعتباره رجالاً _____
يوصل المعلومة إلى القارئ من كل المستويات ، وظلت اللغة هاجساً من هواجس _____
حتى في الوساطة ، حيث أفرد للغة المالطية فصلاً خاصاً ، محصّ فيه قضاياها وظواهرها _____
بالإضافة إلى حديثه العام عن اللغة في ثنايا الكتاب ، ويرجح قولاً على قول _____
وإن أخذ عليه شيء فهو عدم تحديد مصادره تحديداً وافياً ، يساعد القارئ في _____
التوصل إلى مبتغاه من هذه المصارد .

* * * * *

كشف المخبا عن فنون أوروبا

طبع الكتاب أول مرة في تونس سنة ١٨٦٦ م ، وأما الطبعة الثانية فكانت في الاستانة سنة ١٨٨١ م مع كتاب "الواسطة في معرفة أحوال مالطه" حيث جمع الاثنان ضمن جلد واحد (١) ، ولكن عماد الصلح لم يذكر هذه التفاصيل في البيلوغرافيا التي جاءت في كتابه "أحمد فارس الشدياق" إذ لم يذكر سوى أن كشف المخبا طبع في الاستانة سنة ١٨٨١ م (٢) ، والطبعة المعتمدة في هذا البحث هي الطبعة الأولى .

هناك إشارة في نهاية الكتاب ، تبين بدقة التاريخ الذي تم فيه طبع الكتاب ، وهو شوال سنة ١٢٨٣ هـ بمطبعة الدولة التونسية (٣) ، بالإضافة إلى إشارة أخرى مفادها أن الانتهاء من كتابة الكتاب ، كان في جمادى سنة ١٢٧٩ هـ ، ولم يحدد المؤلف هل كانت جمادى الأولى أم الآخرة ، وربما كان هذا التاريخ يشير إلى الزمن الذي أهدى فيه الشدياق الكتاب إلى خير الدين التونسي ، إذ جاء هذا التاريخ بعد بيتين من الشعر يشيران إلى هذا الأهداء :

هذا الكتاب هدية مني إلى مولى الفضل خير الدين .
إن كان يقبله فتلك صنيعه تكسو صنيعي حلة التزيين . (٤)

لم يقسم الشدياق الكتاب إلى أبواب وفصول ، بل جعله على نفس واحد ، وممّع ذلك يمكن تقسيم مادته على النحو التالي :

القسم الأول : رحلته إلى أوروبا ابتداءً من مالطة ، ومشاهداته في طريقه وقد كانت هذه الملاحظات والمشاهدات عابرة ، مثل عبوره السريع من البلاد التي شاهدها في الطريق ، مثل صقلية و نابولي وليكورنة وباريس ، وفي هذا الجزء تحدث عن ظروف فرنسا السياسية ، بعد إعلان النظام الجمهوري .
القسم الثاني : وصوله إلى بلاد الإنجليز ، وحديثه عن أحوالها وعادات أهلها ، وقد اتكا كثيراً

. The Encyclopaedia of Islam, Vol, II, P. 801.

- (١) انظر
- (٢) انظر عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٢٦٥ .
- (٣) انظر أحمد فارس الشدياق ، كشف المخبا عن فنون أوروبا ، تونس ، ١٨٦٦ ، ص ٣٨٦ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨٦ .

على كتب التاريخ والجغرافيا، وتوسع في ذلك توسعا ملحوظا، ثم تحدث عن الزراعة، والمنازل والعادات والطبقات الاجتماعية والقوانين، والصحافة، وتخلل هذا القسم استطرادات كثيرة أبرزها "مطلب في الكبر" (١)، و"مطلب في الشاي" (٢)، وقصة الملكة ماري استيوارت التي كانت سببا في زيارته لاستكتلندا، وأسهب في حديثه عن محنتها مع الملكة اليمانيات (٣)، القسم الثالث: سفره من لندرة إلى بولون في فرنسا، حيث تحدث في هذا القسم عن المدنية العربية، وكان هذا شجنا من الشجون التي أثارها الضريبة التي تؤخذ على الزائر أو المغادر لبلاد فرنسا ثم تحدث عن باريس حديثا غير طويل، مبررا ذلك بأن "العالم الأديب الشيخ رفاع الطهطاوي، قد ألف كتابه النفيس المسمى بتخليص الإبريز في تلخيص باريز" (٤)، مما يعني بالغرض ولا يستدعي الإطالة، وأنه إنما يذكر ما أضرب عن ذكره الطهطاوي. وفي هذا الصدد، تحدث عن باريس في التاريخ، ثم وصف كنائسها، وجسورها، ودورها، وطرقها، وأسواقها، وبعد ذلك عقد مقارنة بينها وبين لندرة، من حيث الخدمات العامة، والجيش والشرطة والمعالم، والأطعمة، والطبقات الاجتماعية القسم الرابع: حديث عن ماضي فرنسا في مجالات العلم والأدب والسياسة، والحرب الفرنسية الإنجليزية، وهذا يقوده إلى حديث مطول عن جان دارك وقصتها (٥). القسم الخامس: العودة إلى لندرة، وقد بحث فيها مفصلا، إذ نالت الحركة الاقتصادية والصحافة في هذا الجزء نصيبا وافرا من التركيز، وفي النهاية يعقد فصلا عن الستة، وهو جزء من لندرة حيث تتم الحركة التجارية.

-
- (١) كشف المخبا، ص ١٢٠.
 - (٢) المصدر نفسه، ص ١٨٥.
 - (٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
 - (٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
 - (٥) انظر المصدر نفسه، ص ٢٨٠-٢٨٨، وجان دارك، بطلة فرنسية قادت الفرنسيين إلى النصر ضد الانجليز في معركة (باتي) الشهيرة، وذلك سنة ١٤٢٩م ووقعت في يد الانجليز أسيرة سنة ١٤٣١م، وحكم عليها بالموت حرقا بتهمة السحر.

اللغة والأسلوب

يختلف أسلوب الشدياق " في كشف المخبا " عن أسلوبه في كتاب " الساق على الساق " من جهة ، وعنه في " الواسطة " من جهة أخرى ، فبينما هو أدبي فـي " الساق على الساق " قائم على البلاغة بعناصرها المختلفة ، و مطعم ببعض هذا فـي " الواسطة " ، فهو هنا أسلوب تقريرى علمي ، ومن هنا فإن ذلك " انتقال تام من بيان الفنان ، إلى بيان الرحالة والمؤرخ وعالم الاجتماع " . (١) وهذا ما جعله كتاباً سهلاً لا تعمل فيه ولا تقليد . (٢) وقد استعاض عن ذلك ، بالتوسع والدقة ما وسع به الأمر ، وخاصة في مجال الأرقام والتواريخ ، فيقول مثلاً : " في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من أيلول سنة ١٨٤٨ م سافرنا من مالطة " (٣) وهو دائماً بعيد عن التخمين ، وأمثلة ذلك كثيرة في " الكشف " ، منها حديثه المدعوم بالأرقام عن القوة العسكرية لدى الانجليز والفرنسيين ، فيما يتعلق بعدد الجنود ، والبوارج ، والمدافع (٤) وإن أخذ عليه شيء ، يصدر هذه المعلومات ، فهو أنها جاءت مبشرة هنا وهناك فـي غير ترتيب ولا نظام حيث انعدم التبويب والتنظيم ، وهذا الأمر يقضي للحديث عن خطة الكتاب ، إذ أنه من المستبعد أن يكون الشدياق قد سار على خطة مسبقة ، ويدعم هذا الشك ، أنه كثيراً ما كان يضرب عن الخوض في بعض المعلومات ، بعد أن يدخل مـن القاري شوطاً طويلاً ، ثم يعود فجأة مذكراً ومتذكراً بعدم الجدوى من الحديث فـي ذلك (٥) ، والكتاب يفتقر إلى الفصول والأبواب التي تنضوي تحتها معلومات محددة وربما ترتب على ذلك توسعه في السرد التاريخي ، بطريقة مفضة للنظر (٦) ، والتشتت فـي ذكر التفاصيل والجزئيات ، التي وإن جاءت بهذه الفوضى ، فإنها تنبيء عن قوة ملاحظة واعتناء بأحوال الشعوب . (٧) ، ولكن مع وجود القيمة الكبيرة لهذه الجزئيات

- (١) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، قضية المرأة ، ص ٣٩ .
- (٢) الفنون الأدبية وأعلامها في الأدب العربي الحديث ، ص ١٥٥ .
- (٣) كشف المخبا ، ص ٦٧ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
- (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .
- (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٣١٢ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .
- (٧) في الأدب الحديث ، ١ / ٧٦ .

إلا أن ذلك لا ينفي هذا العيب عن "الكشف"، حيث يضع القاري في زحمة المعلومات والاستطرادات، فبينما يتحدث الشدياق عن عادات التفاؤل والتشاؤم عند الانجليز ويتقصى كثيرا منها، يدخل فجأة في الحديث عن السحر والشموعة، وإذابة دون أن يشعر القاري، يتحدث عن القانون الانجليزي (١)، مما يجعل القاري ينس من أين بدأ وكيف انتهى إلى هذا الموضوع. هذا بالإضافة إلى الاستطرادات الكثيرة التي جاءت بوعسى من الشدياق، وجاء البعض الآخر عفويا، ومن الاستطرادات الواعية، ما كان له عنوان واضح مثل "مطلب في الشاي" (٢) وحتى هذه الاستطرادات الواعية، كانت مركبا للشدياق يستطرد من خلالها دون أن يشعر إلى أمور أخرى، فبينما هو يتحدث عن "الكبر عند الانجليز" (٣) ينتقل بالقاري للحديث عن الميراث والزواج والأديان والترفيه (٤) فيحس القاري بأن للحديث بداية، وأنه لا نهاية له، إلا بانتهاه الكتاب تقريبا، من باب أن أمرا يفضي إلى أمر، والحديث ذو شجون.

ومن الاستطرادات العفوية، حديث الشدياق عن الرقص والمرأة الانجليزية فازا به يتحدث عن طليح مجذور على لسان ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)، ثم يفضي به الأمر لمناقشة قضية لغوية يرد فيها على الحريري (ت ٥١٦ هـ) (٥)، وهذا النوع غالباً لا يطول وينتهي بكلمة (انتهى)، ثم يعود إلى الموضوع، كما أن هذا النوع من الاستطراد يعد تغييرا مريحا للقاري، خاصة وأنه غالبا ما يكون ذا علاقة بالأدب واللغة، فيتعمد المرء قليلا عن الأرقام والزخم المتوالي من المعلومات، والشدياق في هذه الاستطرادات مهما أطال فإنه يعود، وهذه الظاهرة تدعو إلى الظن بأن الشدياق كان يكتب كل ما يمر بخاطره ومع هذا، فإن ذلك يعد "استقلا في الرأي واعتمادا على النفس" (٦) وهذا واضح في إصرار "الشدياق" أن يكتب قصة "جان دارك" كاملة.

ومن ملامح الأسلوب في "الكشف" الحديث المقارن باستمرارية (٧) إذ يتناول

- (١) انظر كشف الصبا، ص ١٣١، ١٤٢.
- (٢) المصدر نفسه، ص ١٨٥، مر ذكر ذلك ص ١٠٢ من البحث.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠، مر ذكر ذلك ص ١٠٢ من البحث.
- (٤) انظر المصدر نفسه، ص ١٧٠.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٨٠.
- (٦) بناء النهضة العربية، ص ١٩٧.
- (٧) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث قضية المرأة، ص ٤٠.

الشدياق من خلاله الإيجابيات والسلبيات في الأطراف التي يقارنها ، وتتجلى فـسـي ذلك دقة عجيبة ، حتى لكأنه " يضعها في كفتي الميزان " . (١) ومن هذه المقارنات ماتكون أطرافها ثلاثة ، وربما أكثر في بعض الأحيان ، بالإضافة إلى المقارنات الثنائية .

من المقارنات الثنائية ، مقارنة حياة سكان القرى في بلاد الشام من جهة بحياة سكان قرى الإنجليز من جهة أخرى (٢) ، ومقارنة المرأة الإنجليزية بالفرنسية (٣) ، وعادات الزيارة عند العرب والإنجليز . (٤)

والمقارنات الثلاثية الأطراف ، غالباً ما تكون البلاد العربية أحدها ، ومن ذلك النباتات عند الإنجليز والفرنسيين وفي بلاد الشام (٥) ، وكان في كل ذلك يتوخى العدل ولا ينظر إلى العيوب فقط ، فهو في الوقت الذي يمدح الإنجليز لقلة حسدهم وتظلمهم (٦) يستأ من طبخهم ، وطعامهم ، وتكلفتهم الزائد على المائدة (٧) ، وهذا العدل ينسحب على جميع الأطراف . (٨)

اتكأ الشدياق في الكشف على عدة مصادر وعناصر ، أما المصادر فمنها كتب التاريخ والجغرافية والصحف ، فالكتب بعضها عربي ، مثل " تاريخ مصر " لعبد اللطيف البغدادي وبعضها أوروبي ، مثل كتاب " تاريخ الرومانيين " لـ غيبون Gibbon ، ولكن هذه المصادر على تنوعها وكثرتها ، جا بعضها ناقص التحديد ، فقد يذكر اسم المؤلف ولا يذكر كتابه ، فكثيراً ما يقول : قال فلان كذا . . وربما جا الخبر مجهول المصدر تماماً ، ومن ذلك قوله " يقال أنه في زمن الملكة اليبابيت لم يكن في جميع مملكة انجلترا أكثر من ألفي فـسـس " . (٩) ومن الصحف ما كان محدد التحديد دقيقاً فيقول مثلاً : " ذكر صاحب الجرنال المسمى أخبار العالم عدد ٦٨٤ ، أن الإنجليز يتطعمون من لقاء المرأة

-
- (١) صقر لبنان ، ص ١٢٥ .
 - (٢) انظر كشف المخبا ، ص ٧٥٠ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .
 - (٨) يلاحظ في هذا المقام أن هذا العدل كان مفقوداً عند الحديث عن المايطيين
 - (٩) انظر البحث ، ص ٩٩ .
 - (٩) كشف المخبا ، ص ٨٢ .

بنعله ، بعد أن سقطت من القوطه . (١)

لا يصدر الشدياق حكماً إلا بعد أن يدرسه من وجوهه كافة ، لذلك اعتبر بعض العادات الإنجليزية التي لا تروق الشرقي ، وخاصة طعامهم وشرابهم ، بأن ذلك لا يعيبهم فيقول : " العادة كما يقال خامس طبيعة ، أوليس هنود لوزيانا يأكلون نوعاً من الشراب الأبيض بالطح بدل الخبز ، وهنود آرتوكوكو يأكلون أيضاً نوعاً من الطين اللزج الأبيض . . . " (٢) . والشدياق منطقي في ربط النتائج بالأسباب ، فهو يعرف أن التقدم الصناعي يفضي إلى القوة العسكرية والسياسية ، وهذا واضح في حديثه عن قوة الإنجليز العسكرية . (٣) حتى أن هذه المنطقية تص الجانب العقائدي ، فهو يرى أن الجنة نعيم المسلمين لأن بلادهم حارة ، ولكن الإنجليز لا يرون هذه الجنة مغرية ، فجننتهم النار ، ومن هنا عبد الفرس النار على حد قوله لشدة البرد في بلادهم (٤) ، وهذا تلميح من الشدياق على أن القرآن تعامل مع الإنسان العربي ، بطريقة تدل على فهم نفسه وبيئته .

ومن الأمثلة الأخرى على منطقية الأحكام حديثه عن علاقة الجو بالنشاط والعمل فهو يرى أن سكان المناطق الباردة أقدر على البناء وتحمل المشاق ، ويستنتج من ذلك أن الغزاة غالباً ما يكونون من الشمال ، أما سكان المناطق الحارة ، فلم يلب لهم الجلوس على المشاق ، ولكنه يخرم القاعدة بنفسه ، عندما يستثني من ذلك سكان جزيرة العرب الذين خرجوا فاتحين وعمروا الأرض . (٥)

يبدو الوصف في " الكشف " على نمطين :

الأول : وصف عابر لبعض المظاهر والأشياء ، التي لا تكون تجربته إزاءها قد نضجت وفي هذه الحالة لا يعدم وسيلة لتصويرها ولو من الخارج ، بطريقة تقربها إلى القارى ، ومثال هذا النوع ، وصفه لبعض المدن الأوروبية ، التي لم يمكث فيها طويلاً ، مثل جنوى ونابولي ومرسيليا . . . فهو بعد أن يصف جنوى ويحسن بأنه لم يقرب الصورة يقول : " ومــــا

(١) كشف المخبا ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩١ .

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٩٢ .

(٥) انظر المصدر نفسه ص ٩٣ .

أشبهها إلا بدمشق . (١)

الثاني : وصف عميق الغور للبلاد والشعوب ، وخاصة عندما تتعمق التجربة وتطول ، سواءً إزاء الأمور العادية أو المعنوية ، وهذا واضح في حديثه عن باريس ولندن والعادات والقوانين والأخلاق في كليهما .

يرى لويس عوض أن الشدياق " يحمل معه أينما انتقل مشاكله الخاصة . " (٢) وهو لم يجانب الصواب بهذا القول ، لأن الشدياق ليس مفكراً ، ولكنه أديب شاعر بالدرجة الأولى ، ولهذا فإنه يحمل معه دائماً قلق الفنان واضطرابه ، هذا بالإضافة إلى أن الهموم والمشاكل الذاتية تكون مفتاحاً للحديث عن أمور كثيرة ، ومن ذلك ملامح القانون الانجليزي المتعلق بضح الجنسي ، الذي قفز إلى الكتاب لشدة اهتمام الشدياق بالحصـول عليها (٣) ومن ذلك أيضاً ، لون الحياة في قرى الانجليز ، حيث صورها تصويراً دقيقاً ، من خلال ردود فعله إزاءها ، منطلقاً من إظهار مهمته الرسمية عندما كان فـي قرية من قرى الانجليز . (٤)

يتبسط الشدياق مع قارئه تبسطاً يجعله قريباً إلى النفس ، فهو يخاطبه مخاطبته الصديق لصديقه ، يجلس الواحد منهما قبالة الآخر ، ومن ذلك قوله : " والحاصل أن الشتاء داخل الديار في لندرة أهناً وأهون ، وذلك لاعتنائهم بغرض المساكن والدرج ، وبكـون المواقـد قابلة لوقـد الفحم كـامراً ، وأنت خبير بأن بناً الحجر يحدث رطوبة . " (٥) ، ومن ذلك أيضاً : " فإن ابتدرتني لتقطع عليّ كلامي بأن تقول . . . (٦) وقوله : " فإذ المـ تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها ، فذلك دليل على فساد مزاجك . " (٧) يؤخذ على " الشدياق " في " الكشف " تكراره لبعض المعلومات ، وهذا التكرار ينقسم إلى ثلاثة أقسام :-

- (١) كشف المخبأ ، ص ٦٨ .
- (٢) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، قضية المرأة ، ص ٢٧ .
- (٣) انظر كشف المخبأ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ . حيث يشتكي من الوضع في القرية التي فقد فيها ولده .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ .

الأول : تكرار الكثير من المعلومات الواردة في " الساق " ومثال ذلك قوله في " الساق " إلى أن قدر الله رب الموت والحياة أن أخذ الصبي سمال في تلك القرية ، ولما كانت قرى الإنجليز الصغيرة كغيرها من قرى البلاد ، من أنه لا يوجد فيها أطباء مهرة ، كان لابد من مشاورة طبيب . . . (١) ويقول في " الكشف " بصدور الحادثة نفسها ، فلم أثبت أن فجمعت بولد لي وحيث لم يكن في القرية ، ولا في مايلبيها طبيب يوثق بعلمه . . . (٢) ، ومثال ذلك حديثه عن الطعام والشراب في بلاد الإنجليز في الكتابين (٣) ، ومن تتبع ذلك وجد الكثير من التكرار .

الثاني : تكرار بعض ما جاء في " الواسطة " ، وهو كثير أيضا ، ومثال ذلك قوله في " الكشف " عن لغة الإنجليز : " وليس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سوا " تكلم بها جاهل أو عالِم — أو امرأة أو ولد وصوتهم من أزوارهم بخلاف الفرنسية . . . (٤) وفي الواسطة يقول : " وأصواتهم من أزوارهم . . . (٥) .

الثالث : تكرار في " الكشف " نفسه ، ومن ذلك ذكر الملاكمة ، ومفهومها ، وتعليمها فـ في المدارس وإجرائها بين العامة والخاصة من الإنجليز (٦) ، وذكر ميلاد نابليون وتاريخه واحتفال الفرنسيين بذلك (٧) ، وقد كرر حديثه عن تربية الأطفال في باريس حيث لا يخرجون إلى الشوارع إلا مع الكبار ، حتى لا تدوسهم العجلات (٨) ، والغريب أن هذا النوع من التكرار في الكتاب الواحد ، قد جاء في صفحات متقاربة ، مما يجعل تبريره صعبا .

امتاز الشدياق بدقة اختياره للألفاظ ، وذلك لتعطي المدلول اللائم ، وأمثلة ذلك استعماله كلمتي تزخر وطفى في موضعين متقاربين ، حيث أراد بالأولى الخير ، وفـ في الثانية الخراب والدمار ، وذلك عند حديثه عن فيضان نهري صون ودون ، ويحسن إيـ

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٦٠٦ .
 - (٢) كشف المخبا ، ص ٢٠٧ .
 - (٣) انظر الساق على الساق ، ص ٥٩٦ — ٥٩٧ ، انظر أيضا ، كشف الخبيـ
 - ص ١٨٧ — ١٨٨ .
 - (٤) كشف المخبا ، ص ١٤٥ .
 - (٥) الواسطة ، ص ٨٦ .
 - (٦) انظر كشف المخبا ، ص ١٢٣ ، ٢٠٧ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٤ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ ، ٢٧٢ .

اللغظتين في موضعيهما تماما لتظهر هذه الدقة فيقول : " ولا تكاد تضي سنة من دون أن تزخر شواطئه على الأرضين ، وقد طغى في هذه السنة ، حتى كانت الناس تسير فسي شوارع المدينة في قوارب ، فهدم كثيرا من البيوت والجسور . " (١) واستعمل كمتسي يطفر ويتزحلق بالمعنى نفسه ، ولكن للدلالة على أن الطفر إنما يكون على الماء الجسامد بينما يكون التزحلق على الجليد ، وجاء ذلك في العبارة التالية : " وكانت الأولاد تطفر على المناقع والبرك ، كما تطفر على الصخرة الصماء والتزحلق على الجليد عارة شائعة عند جميعهم ، حتى أن البرنس البورت زوج الطكة يطفر مع خواصه في موضع خاص . " (٢) واستعمل النفي والتفريب (٣) في موضعين متقاربين لنفسه الثانية الأولى .

يستعمل الشدياق أحيانا ألفاظا مجازية للدلالة على صور حقيقية ومن ذلك قوله في وصف فقراء القرى " فلهذا لن تجد في القرية أحدا ذا رواة ورياش إلا مستأجر الأرض وقسيس القرية . " (٤) ، ويستعمل ألفاظا مهطلة أو قليلة الاستعمال مثل المزر والمذيق (٥) ، بمعنى النبيذ والحليب ، ومناق (٦) أي امرأة ولود ، واستعمل كلمتي كيف ومناصع (٧) ، للدلالة على المرحاض في مواضع مختلفة .

الشدياق مفرد بتحليل المسميات ، ومعرفة أصولها ، ومثال ذلك كاليفورنيا التي رأى أن معناها من العربية في كلمتي قالي بمعنى قلى اللحم ، وفورنيا من القرن ، وأضاف أن معناها بالإسبانية الأتون الحامي ، والإسبانية مشحونة بالألفاظ العربية (٨) على حد تعبيره وحلل معنى الابرة المغناطيسية بالطريقة نفسها ، إذ أنها بالفرنسية فلور دلي ، وهذه تعني المسلة أي الابرة (٩) ، وهو بذلك يوحي بأن أصل الاختراع والتسمية عربيان .

هناك زخم من الألفاظ الأجنبية المترجمة ، والمصطلحات التي أطلقها الشدياق على بعض الأدوات والمظاهر ، وفيما يلي أقدم جدولا إحصائيا لكل منهما :

- (١) كشف المخبأ ص ٧١ ونهر صون هو نهر السين .
- (٢) المصدر نفسه ص ٩٠ .
- (٣) انظر المصدر نفسه ص ١٤١ .
- (٤) المصدر نفسه ص ٧٦ .
- (٥) المصدر نفسه ص ٢٨ انظر القاموس المحيط فصل الميم باب البراءة .
- (٦) المصدر نفسه ص ١٢٨ ، انظر القاموس المحيط ، فصل الميم والنون ، باب القاف .
- (٧) المصدر نفسه ص ٨٥ و ٢٩٠ .
- (٨) انظر المصدر نفسه ص ٩٥ ، انظر أيضا المصدر نفسه ص ٣١١ ، معنى لندره
- (٩) انظر المصدر نفسه ص ١٠١ .

١ - المصطلحات

الرقم	المصطلح	* الصفحة	ملاحظات
١	ظيارة	٢١٩	
٢	جرنال	١٣١	من اللغة الفرنسية بمعنى الصحيفة أو الجريدة
٣	الماكه	١٢٣	سماها الطهطاوى (البوكسة) كما ذكره الشدياق ص ١٢٣٤ .
٤	منظار	٢٩٦	ترجمة من Balcon .
٥	الباحرة	٢٢٨	أطلق عليها سفينة النار في الكشف ص ٧٢ .
٦	الرتل	١٠٢٥ ٧٥	بمعنى القاطرة .
٧	راموز	٧٥	بمعنى عينة تجارية .
٨	عجلات ، عواجل ، محافل	١٠٢	العربات التي تجرها الخيل تتسع لفرد أو اثنين ، وأما محافل لعدة أشخاص .
٩	الموحى	١٠٤	جهاز إرسال البرقيات ، وجمعه على " مواحي " .
١٠	آلة النار	١٠٥	أى الآلة البخارية .
١١	كواغد	١٠٦	عجلات ورقية وبنيكية .
١٢	الامتحان	١٣٨	بمعنى التحقيق في الجريمة مع المتهم .
١٣	المولك	١٤٨	صندوق البريد .
١٤	الشعر العارية	١٨٤	ما يسمى في يومنا هذا " باروكه " .
١٥	الثقاف	٣٢٥	شرطة تتزيا بالزى المدني - التحرى .

* انظر الصفحات في كشف المخيا عن فنون أوروبا .

وأما الألفاظ المترجمة والمسميات ، التي وردت في الكشف ، وعني الشدياق بترجمتها —
فهي : —

الكلمات المترجمة عن الانجليزية

الرقم	الكلمة الاجنبية بحروف عربية	الكلمة بالحروف الانجليزية	الصفحة	ترجمها الشدياق
١	باسپورت	Passport	٢٢٩	من اللغة الانجليزية (جواز السفر)
٢	نيوبورت	NewPort	٢٥٤	العرس الجديد .
٣	بست لك	Best Luck	١٨٧	بخت آله .
٤	ميكاس	Michaelmas	١٣٤	عيد ميكال .
٥	الاكليس	Clubs	١٧٥	منتديات .
٦	كمفورت	Comfort	١٨٥	الهناء .
٧	هسباتيليتي	Hospitality	١٨٥	طعام الضيف .
٨	كوپكرز	Quakers	٢٠١	المرتشمين ، (جماعة دينية مسيحية) .
٩	مير	Mayor	٧٢	ضابط البلد .
١٠	إنجن	Engine	١٠٤	مزجيجة .
١١	جيبسي	Gypsy	١١١	نور .
١٢	بيف ستيك	Beef Steak	١١٨	شواء البقر المطح .
١٣	هاف كراون	Half Crown	١٤٣	نصف دورو إنجليزي .
١٤	بانوراما	Panorama	٣٣٤	عرض صور حية (ملخص شرحها) .
١٥	تيمس	Times	٣٧٥	أوقات .
١٦	مورتن أدفرتيزر	Mortin Advertiser	٣٧٦	معلن الصباح .

بقية الكلمات المترجمة عن الانجليزية

الرقم	الكلمة بالحروف العربية	الكلمة بالحروف الانجليزية	الصفحة	ترجمتها الشدياق
١٧	بالون	Balloon	٢٩٦	منطاد .
١٨	راغ	Dug	٢٩٤	طبنجة .
١٩	دلجانس	Delegance	٧١	المجدد .
٢٠	باساج	Passage	٢٣٠	ممر .
٢١	هايد بارك	Hyde Park	٣٦٢	غضفة .
٢٢	اكتون والتون		١٣٠	يوم الملاكمة بين الاهلين .
٢٣	انستيتيوشن	Institution	٢٤٢	معلم .
٢٤	بروفات	Prophet	٢٧٤	النبي .

كلمات مترجمة عن الفرنسية

الرقم	الكلمة بالحروف العربية	الكلمة بالحروف الفرنسية	الصفحة	ترجمتها الشدياق
١	بنسيون	Pansion	٢٤٢	مرآب .
٢	مونت مارتر	Montmartre	٢٤٣	مَجْزِر .
٣	ثياطر	Théâtre	٢٤٦	طهى .
٤	اوبرا توميك	Opéra Comique	٢٤٦	طهى الضحك .
٥	تايل دوت	Table d'autre	٢٥٢	مائدة الضيوف .
٦	تابلو فيفان	Table au vivant	٢٥٤	الصور الحية .
٧	بالي رومال	Palais au vivant	٢٥٤	القصر الطوكي (اسم مسرح في باريس
٨	شانزلزى	Champs-Élysées	٢٥٥	روضة الاصفيا .
٩	آرك تريumph	Arc de Triomphe	٢٣٦	قنطرة النصر .
١٠	بلاس دى لا كونكورد	Palais de la - concorde	٢٣٠	ساحة الوفق .

ربما تبدو هذه الترجمات لانسان هذا الزمان غير ذات جدوى ، ولكنها في وقتها كانت ذات قيمة كبيرة ، خاصة في زمن لم تكن اللغتان الإنجليزية والفرنسية معروفتين للإنسان العربي بشكل واسع ، لذلك تعتمد الشدياق التعريف بهذه المسميات كما يلفظها أهلها ، وذكر معناها في اللغة العربية ، وهو عندما يكتب اللفظ الأجنبي بحروف عربية ، يعلم أن ذلك أقرب وسيلة لتعريف العربي بهذه المفردات ، خاصة وأن المعاني تساعد في تقريب صورة الأشياء ولفظها في لفتها - ولو بحروف عربية - يساهم في تعريف القاري بشي* عن لغة الإنجليز والفرنسيين ، وهذه الخطوة من الشدياق تعد جرأة في التعريب ، ودليلا على عدم انهماؤه أمام الآراء الحضارية الغربية ومصطلحاتها ، بالإضافة إلى قناعته بسعة العربية لكل ذلك . أما المصطلحات التي لا يزال قسم كبير منها قيد الاستعمال ، فقد وضعها بدافع إحساسه بضرورة إيجاد المقابل لبعض الآراء والأشياء الغربية ، في اللغة العربية فكانت الباخرة والمنطار والملاكمة التي نستعملها حتى الآن .

والشدياق في لفته في " الكشف " يتوخى الدقة ، ويبحث عن الكلمة التي تساهم في توصيل المعنى ، بطريقة لا تقبل التخمين ، كما أن أسلوبه يتلاءم إلى حد كبير مع مهمة الرحالة ، وعلى الرغم من أن حديثه " يتصل ويتوالى ولا يقف عند فقرة جديدة ، بحيث لا يحتاج لك أن تتنفس الصعداء " . (١) إلا أن هذا كله لا ينفي عن " الكشف " قيمته العلمية ، حتى أن الشدياق نفسه أحس بهذا التوالي والتداخل ، فكان يتوقف كثيرا في واحات ومحطات ، ليعوض القاري عناءه في متابعة الزخم في المعلومات ، ثم يعود بسـه إلى الموضوع مرة أخرى ، وربما جاء هذا الزخم والتوالي والتداخل ، لعدم انتهـاجه خطة محددة .

الجواب والمقالة الشدياقية

كان حلم الشدياق بالصحافة قديما ، وذلك قبل أن تحط به الرحال في استانبول في العقد السادس من القرن التاسع عشر ، وقد ظهر ذلك الحلم في كتابه " الساق على الساق " ، حيث تحدث عن الصحافة وأهميتها بالنسبة للشعوب ، ودورها في الحياة الثقافية ، وحث أغنيا " العرب على التعاون لإنشاء المطابع (١) ، وفي " كشف المغيبات " تحدث حديثا مفصلا عن الصحافة من حيث نشأتها ، وتاريخها ، وتاريخ الطباعة وتطورها وصناعة الورق وتطوره ، وأسهب في الحديث عن الصحافة والصحف في أوروبا . (٢)

استطاع الشدياق تحقيق هذا الحلم فأنشأ " الجواب " في عاصمة الدولة التركية وكانت ظروف نشأتها مواتية من الناحية السياسية ، حيث كان جو العاصمة التركية يتسم بصراع عنيف ، وهذا الصراع انعكاس لحركة الاستقلال التي بدأت في الولايات العثمانية من قبل القوميات المختلفة ، بالإضافة إلى ظهور الحياة الدستورية ، والنزاع العثماني الروسي ، وكانت الأطراف الدولية الأخرى ذات نشاط مواكب لهذه الأحداث مجتمعة (٣) صدر العدد الأول من " الجواب " يوم الخميس في ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٧٧ هـ الموافق ل ٣١ أيار سنة ١٨٦١ م ، ويبدو أن هذا العدد من الجواب مفقود كما أفاد عمار الصلح ، حيث رآب في البحث عنه ولم يجده . (٤) وكان قياسها " ٣٣ x ٥٠ سم والصفحة مقسمة إلى ثلاثة أعمدة ، وفي كل عمود خمسون سطرا ، وهي ذات أربع صفحات حروفها من النسخ الاسطنبولي من قياس ١٤ . (٥)

جمعت بعض مواد الجواب في سبعة أجزاء ، تحت عنوان " كنز الرغائب في منتخبات الجواب " وقد جمعها سليم الشدياق ، نجل أحمد فارس الشدياق ، مما ساعد على وصول هذه الصحيفة لأيدى الدارسين بسهولة .

(١) انظر الساق على الساق ، ص ٥٢٢ ، ٥٢٧ .

(٢) انظر كشف المغيبات ، ص ٣٧٥ - ٣٨٣ .

(٣) انظر عمار الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٤) انظر المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٧ ، انظر أيضا الصورة المرفقة وهي لعدد

من أعداد الجواب ص ١١٦ .

الوكيل في تونس في سلك الملاك ابن الوالي

في بيروت بالمرجع جليل محمد البربر وأولاده الكرام

في لندن عذرة مستقلة عدد ٢٧

في طرابلس عند مستور حكاكا وبال

عصر القاهره عبد الجبار افي الدشي بالموسى

في طرابلس الشيم الجوابا جلاط

الخارج

١٢٧٨
١٢٧٩
١٢٨٠
١٢٨١
١٢٨٢
١٢٨٣
١٢٨٤
١٢٨٥
١٢٨٦
١٢٨٧
١٢٨٨
١٢٨٩
١٢٩٠
١٢٩١
١٢٩٢
١٢٩٣
١٢٩٤
١٢٩٥
١٢٩٦
١٢٩٧
١٢٩٨
١٢٩٩
١٣٠٠

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات
مستل وكان في صبيحة قد اذبح فيها ما بلغت على ان
يستوفى ثلاثة بارونا فلما في الخبر جري استمرا وان اذبح
احد منهم الدكانين الا ان النار انتشرت وزادت حتى الى اعل
الهيرونة فدمار الناس بهرون من الدانه خوفا وجزعا فغضب
امر المشايخ البعة باقفا احدى قولي اناسي بان يصدد الى
اعلى الارض مع وضع لاطفاء النار فصددهم ارميا البسة
وتعه جماعة من المنكر واطفأوا النار وسلك مشايخ الدارود
والجد قد الاية اعترف بها عوار بعين دكانا وحدث هيه
اللات الاضغى المورما ليه ما يشهد وصدق هيه

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

مستل وكان في صبيحة قد اذبح فيها ما بلغت على ان

يستوفى ثلاثة بارونا فلما في الخبر جري استمرا وان اذبح

احد منهم الدكانين الا ان النار انتشرت وزادت حتى الى اعل

الهيرونة فدمار الناس بهرون من الدانه خوفا وجزعا فغضب

امر المشايخ البعة باقفا احدى قولي اناسي بان يصدد الى

اعلى الارض مع وضع لاطفاء النار فصددهم ارميا البسة

وتعه جماعة من المنكر واطفأوا النار وسلك مشايخ الدارود

والجد قد الاية اعترف بها عوار بعين دكانا وحدث هيه

اللات الاضغى المورما ليه ما يشهد وصدق هيه

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

مستل وكان في صبيحة قد اذبح فيها ما بلغت على ان

يستوفى ثلاثة بارونا فلما في الخبر جري استمرا وان اذبح

احد منهم الدكانين الا ان النار انتشرت وزادت حتى الى اعل

الهيرونة فدمار الناس بهرون من الدانه خوفا وجزعا فغضب

امر المشايخ البعة باقفا احدى قولي اناسي بان يصدد الى

اعلى الارض مع وضع لاطفاء النار فصددهم ارميا البسة

وتعه جماعة من المنكر واطفأوا النار وسلك مشايخ الدارود

والجد قد الاية اعترف بها عوار بعين دكانا وحدث هيه

اللات الاضغى المورما ليه ما يشهد وصدق هيه

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

مستل وكان في صبيحة قد اذبح فيها ما بلغت على ان

يستوفى ثلاثة بارونا فلما في الخبر جري استمرا وان اذبح

احد منهم الدكانين الا ان النار انتشرت وزادت حتى الى اعل

الهيرونة فدمار الناس بهرون من الدانه خوفا وجزعا فغضب

امر المشايخ البعة باقفا احدى قولي اناسي بان يصدد الى

اعلى الارض مع وضع لاطفاء النار فصددهم ارميا البسة

وتعه جماعة من المنكر واطفأوا النار وسلك مشايخ الدارود

والجد قد الاية اعترف بها عوار بعين دكانا وحدث هيه

اللات الاضغى المورما ليه ما يشهد وصدق هيه

وقعت في اثنان من صفر من الشهر الماضي في بعض دكانات

- احتوت الأجزاء السبعة على مواد صحفية مختلفة ، وتخصص كل جزء بمادة تختص
عن الأجزاء الأخرى ، كما أن هذه الأجزاء طبعت جميعها في مطبعة الجوائب على
فترات متقاربة على النحو التالي :
- الجزء الأول : طبع سنة ١٢٨٨ هـ ، ويحتوي على المقالات الأدبية والعلمية والاجتماعية .
- الجزء الثاني : طبع سنة ١٢٨٩ هـ ، واهتم بالأخبار والحروب بين ألمانيا وفرنسا ، وواكب
هذه الحرب حتى نهايتها .
- الجزء الثالث : طبع سنة ١٢٩٣ هـ ، ويغلب عليه الشعر ، أغلبه من نظم " أحمد فارس الشدياق " .
- الجزء الرابع : طبع سنة ١٢٩٤ هـ ، ويغلب عليه الشعر أيضا ، وهو من نظم
أديب مصر ، مدحا للجوائب وصاحبها .
- الجزء الخامس : طبع سنة ١٢٩٥ هـ ، وفيه أخبار الحوادث والحروب في الولايات العثمانية
والدول الغربية ، بالإضافة إلى الأوامر والفرمانات السلطانية والمعاهدات .
- الجزء السادس : طبع سنة ١٢٩٥ هـ ، وتخصص بالأحداث المتعلقة بالعلاقة بين الدولة
العثمانية والدول الكبرى ، بالإضافة إلى القوانين والأوامر السلطانية وما يتعلق
بالسألة الشرقية .
- الجزء السابع : طبع سنة ١٢٩٨ هـ ، وهو يهتم بالقضايا نفسها ، الواردة في الجزء السادس .

المقالة الشدياقية

- اهتم الجزء الأول والثاني بالمقالة ، وخصصت صفحتاهما لهذا الغرض وهذه المقالات
يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام حسب موضوعاتها :
- القسم الأول : مقالات عامة تتناول قضايا مختلفة ، علمية وتاريخية ولغوية
- القسم الثاني : مقالات اجتماعية وهي ما أسماها الشدياق " الجطة الأدبية "
- القسم الثالث : مقالات سياسية ، وهي ما أسماها " الجطة السياسية "

المقالة العامة

- تناول الشدياق في هذه المقالة ، موضوعات مختلفة ، تبحث في الاجتماع وتقويم
البلدان ، والحقوق والفضائل ، والكيمياء ، والقمر والهوا ، وقوة البخار والغاز وإبرة المغناطيس ،
بالإضافة إلى اللغة ، وهو يبدأ موضوعه غالبا بقوله : " قال بعض العلماء " أو " قال

بعض الفلاسفة " أو " قال بعض المحققين " وقد اعتنى في هذا النوع من المقالة بأمرين
الاول : التوثيق بذكر أصحاب الآراء ، ولكن ليس على طريقة التوثيق في البحوث ، مما
يتلأ " والمقالة الصحفية ، التي لا تتجاوز في العادة عدة صفحات ، ومن ذلك قوله في
مقالة عن الهواء " قال بودان ان تأثير الهواء أصل لكل من الدولة والديانة ، وكذا
قال ديدوروس الصقلي من قبله . " (١)

الامر الثاني : المناقشة الدقيقة للمعلومات ، والرد المنطقي عليها ، فهو يرد ويناقش الأمر
الذي طرقة بودان وديدوروس بقوله : " فكأن هذا القائل لم يفكر في أن الشيخ سعدي
ولقمان كانا من الفرس ، أو أن أرشميدس كان من صقلية . " (٢) وذلك ردا على ما قاله من
أن العلماء لا يكونون من المناطق الباردة جدا أو الحارة جدا ، وربما " لا نجد في هذه
المقالات توسع العلماء في عصرنا . " (٣) ولكنها في الوقت نفسه ، تطرح موضوعات متنوعة
بأسلوب شيق يجعل القاري يعرف الغزى الذي يرمي إليه الشدياق ، وهو تعريف القاري
بمعلومات عامة ، وتنويع ثقافته ، بأسلوب مبسط لا تعقيد فيه ، والجزء التالي من مقالته
" في الهواء " مثل على ذلك .

" قال بعض العلماء ، ان الشمس والهواء تأثيرا في كل المخلوقات من الانسـان
إلى الفقع ، قال وزعم العلامة فونتائل أن سكان البلاد الزائدة الحر والبرد لا يكونون أهلا
للمعلوم فإن العلوم إلى هذا الآن ، لم تعتمد مصر وموريتانيا من البلاد الحرة ، وبلاد السويد
من الأقاليم الباردة ، ولعل بقاها في جبل الأطلس في إفريقية ، وفي بحر البلطيق ، ليس
عن مجرد عرض واتفاق ، ولا ندري إن كانت هذه الجهات ليست حدودا لها ، أو أنسه
يصح لنا أن نترجى أن ينبغ مؤلفون جاهزون عن أهل ليلاند ، أو من بلاد السودان ، وقال
المؤلف شروان فيما وصف به بلاد الفرس ، إن حرارة القطر توهن كلا من البدن والعقل
وتخمد نار المخيلة التي لا يد منها . " (٤)

لا يبد والشدياق في هذا النوع من المقالة غامضا ، وربما استطاع القاري التعرف
إلى الموضوع الذي يريده من قراءته للسطرين الأولين ، وهذا ينطبق على المقالات العلمية

(١) أحمد فارس الشدياق ، كنز الرغائب في منتخبات الجواب ، الأستانة ١٢٨٩ هـ / ١٥٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٥ / ١ .

(٣) شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) كنز الرغائب ، ٥ / ١ .

كافة ، وتبين هذه المقالات ذات الموضوعات المختلفة ، سعة اطلاع الشدياق على العلوم المختلفة ، وعلى منتجات الفكر الانساني في مختلف الفنون ، مع أن بعض هذه القضايا علمي بحت ، ولكنه يوظف أسلوبه الأدبي بذكاء ، مما يجعل المقالة سهلة القبول والفهم .

المقالة الاجتماعية

سأها الجلة الأدبية ، أيضا ، ويسوقها بأسلوب قصصي (١) ، ويكن موضوعها نقدا وتوجيها ، يفضيها آراءه الاجتماعية (٢) ، وهي متميزة من حيث التعبير وطريقة التفكير والانغلات من القيود النثرية التقليدية (٣) .

يبتدي الشدياق هذا النوع من المقالة بقوله من الناس ، ويرى مارون عبود أن هذا الأسلوب ، الذي ينطلق من تحليل لخواج النفوس ، وسير الأعماق النفسانية إنما يدل على أن الشدياق كان يعتمد على عينة ، ويدرك أمورا ربما يمر بها غيره من الكرام دون أن يجد فيها شيئا هاما (٤) ، ويرى محمد يوسف نجم أن طريقته في المقالة وخاصة بدايتها تعد " خطوة نحو خلق الشخصيات القصصية " (٥) ، وهو يبتعد في المقالة الاجتماعية عن الاستطراد المؤلف في الكتب الأدبية الأخرى التي ألفها ، ويستعيز عن ذلك بالعمق ودراسة التفاصيل (٦) ، ويجري فيها على " طريقة الترسل المطلق " (٧) والنموذج التالي يبرز هذه السمات :-

" من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره ، فتراه أبدا حريصا على جمع فرائده وإيضاح منهجه ، وتسهيل وعره ، فأجل أضمنه عنده ، أن يفهم القول كما عناه قائله ، وأن يفهمه غيره كما فهمه ، فمثله كمثل الكريم الذي يستفيد ويفيد ، وفي الحقيقة فإن الكرم كما يكون فسي إفاة العلم ، فالكريم من العلماء يفرح لسؤال الطالب ، ولا يمل من السائلين ، وإذا أجاب

- (١) صقر لبنان ، ص ١٤٧ .
- (٢) عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١١٧ .
- (٣) مصادر الدراسة الأدبية ، ٤٧٢/٢ .
- (٤) انظر ، صقر لبنان ، ص ١٤٤ .
- (٥) القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ٢٤٧ .
- (٦) محمد عبد الغني حسن ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٨٥ .
- (٧) المرجع نفسه ، ص ٨٦ .

عن شي* ، أو آلف شيئا ، جعل أقصى همه وعنايته في توضيح عبارته وتصريحها حتى لا تكون مظنة للتأويل والقال والقليل ، فهو لا* الذين ينفع الله تعالى بعلمهم وعطيتهم وهو لا* الذين بعد وفاتهم يخرج عليهم كثيرون من الطلبة ، كما كانوا في حال حياتهم فلا يزال كلامهم نورا يضي* على الناس ، ولا تزال بركة مساعيهم ومقاصدهم ناصية السفراس* (١) .

ثم يتناول النقيض ، ويبين الجوانب السلبية فيه فيقول :* ومنهم من يتعلم العلم لينفع به نفسه دون غيره ، إلا أن ذلك النفع الذي استأثر به يموذ بالضرر عليه ، كمن يتعلم الفقه ليصير به عونا لواحد على آخر ، فيبذل قصارى جهده والحالة هذه في أن يصير الحق باطلا والباطل حقا* (٢) .

يمرر السهكم اللادع في المقالة الاجتماعية خاصة ، فيقول في المقالة نفسها متبهما على النوع الثاني من المتعلمين فيقول :* بل يمتعض أيضا من مدح غيره على علم شي* من اللغات الأجنبية ، فإذا قيل له إن فلانا على إسماعته بالعربية يعرف اليونانية ، قال وأنا أيضا أعرفها* تيكاني إيلادو قالون* (٣) وإذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال :* دوست يراد خوش ، إلا أن الله تبارك وتعالى قد فضلي منذ الصبا على أهل العصر* (٤) .

من يلق نظرة على السطر الاول من كل مقالة اجتماعية ، يستطيع أن يتعرف على القضية أو الشخصية التي يود الشدياق الحديث عنها ، وفيما يلي السطور الاولى لبعض المقالات الاجتماعية في كثر الرغائب :-

* من الناس من يتكلم على حسب آرائه * (٥)

* من الناس من يتصدر في المجالس ويحادث كل مجالس * (٦)

* من الناس من يتزوج المرأة لجمالها لا لكمالها ، وللونها لا لبونها ، ولغناها ولحنها لا لجمالها * (٧)

-
- (١) كثر الرغائب ، ٢٠٦/١ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ٢٠٦/١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٢٠٧/١ ، العبارة اليونانية تعني ، كيف اليونان أهلي جيدة ؟ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ٢٠٧/١ ، العبارة الفارسية تعني ، الصديق الطيب أخ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ٢٠٦/٢ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ٢١٥/٢ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ٢٢٠/٢ .

" من الناس من يتعب في شبابه لراحته في شبابه ، لعله أن زمن الشباب يحول بينه وبين رؤوسه " (١)

" من الناس من يولد في النعمة ، أي ينشأ وحوله من يخف إليه بالخدمة " (٢)

" من الناس من يكلف بحلم واحد ، أو فن واحد ، أو صفة واحدة ، فيقتصر علمه عليها ويستغل بها طول عمره " (٣)

يلاحظ القاري لهذه البدايات ، أن الشدياق غالباً ما يختار النماذج السلبية في المجتمع فينقدها ، ويبرز مساوئها ، ويقابلها بالنماذج الإيجابية ، ويرسم ملامح هذه النماذج بذكا ، منذ الوهلة الأولى .

ربما يبدأ هذه المقالات ، بأحكام تعكس تجربته في الحياة ، ومثال ذلك " من عاشر الناس وقام فيهم مشهوراً ، وحلّ منهم محلاً مذكوراً ، وجب عليه ألاّ يقول لهم إلاّ بالحق " (٤) ، وقوله : " من عرف الدنيا ثم ركن إليها ، كـان من أحصى الحمقى " (٥)

المقالة السياسية

تعتبر مقالات الشدياق السياسية ، على صفحات الجوائب ، ذات دلالات متعددة منها أن صاحبها كان على اطلاع واسع ومستمر على التيارات الفكرية ، والعلم بالأحداث العالمية وتطوراتها (٦) ، ومنها ظهور العنصر الشخصي في هذه المقالات ، بحيث يستدل القاري من خلالها على آرائه السياسية الخاصة ، وهو غالباً ما ينطلق في مقالاته هذه من حدث معين ، فيلقي عليه الضوء ، ويبين موقفه منه ، بأسلوب لا قسوة فيه ، ناصحاً وموجهاً وواعظاً ، وحاتاً على أخذ العبرة من هذه المواقف التي يستنكرها ، ومثال ذلك مقالته " بعض ملاحظات تتعلق بالفرنسيين " ومنها : -

-
- (١) كنز الرغائب ، ٢٢٤ / ٢ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ٢٢٦ / ٢ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٢٢٩ / ٢ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ٢٣٧ / ٢ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ٢٤٤ / ٢ .
 - (٦) انظر ، عمار الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١١٧ .

"إنا نعظم قدر كل من يغاز على وطنه ، ويسمى في تعزيزه وتشريفه ، وفي تشريف قدر سكانه ونفعهم ، وهذه الخلّة وإن تكن عامة في أمم أوروبا ، إلا أنها في أمة الفرنسيين أشهر وأظهر ، لأن الفرنسيين كلهم على مذهب واحد ، ولهم لسان واحد ، فهم بمنزلة عشيرة واحدة في بقعة واحدة ، وإن كان بعضهم على مذهب البروتستنت ، فالحكم على الغالب ، ولهذا نعظم قدر الفرنسيين على هذه الخلّة ، ولا سيما أن لهم مآثر جليلة في جميع الممالك ، وخصوصاً في الممالك المحروسة ، فذلك حق علينا شكرهم والتوجه بحامد هم ، إلا أنا لم نستصوب هذه المرة ترعهم إلى معارضة بروسية ، إذ ليس من سبب سديد لهذا ، فإن الذي أوردته كتاب جرنالاتهم من الأسباب ، امتناع ملك بروسية مخاطبة موسيو بنديتي سفير فرنسا . . . " (١)

ويتضح من هذه المقالة خاصة ، والمقالات السياسية عامة ، أن الشدياق كان يتوخى دائماً ، أن تكون الأحداث ذات عبرة للمواطنين في السياسة ، مينا الضرر الذي يترتب على المواقف المرتجلة ، كما أن هذه المقالات ، تعد وثائق هامة ، واكبت أحداثاً تاريخية كثيرة ، وأرخت لها بأسلوب أدبي ، وألقت عليها الضوء ، بما لا يقدر عليه المؤرخ العادي ، تحليلًا وتمحيصًا ، مما يساعد على فهم العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

كان الشدياق على صلة جيدة بالصحف الغربية ، مما ساعده على تغذية "الجوائب" بالمقالات السياسية ، وفي كثير من الأحيان ، يبدأ هذا النوع من المقالة بإدراج الخبر من هذه الصحف ، ومثال ذلك "أدرج في بعض جرنالات نيويورك بأمريكا" . "و" ذكر في بعض الصحف الألمانية " (٢) . "و" ذكر في التيمس نقلاً عن مكاتبه سيدان . . . " (٤) ، ويعتمد على وكالات الأنباء ، ولكنه لم يكن يثق بكل خبر من أخبارها ، فحينئذ أسلوبها ويعلق عليها ، ويحلل ما تزوده به من الأنباء ، فهو يتحدث في صدر مقالة سياسية عن اعتداء الجرمانيين على الانجليز بقوله : " قد شكونا غير مرة من أخبار التلفزيون لما فيها من التناقض ، والغموض ، والاقتضاب

(١) كنز الرغائب ، ٨/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٦٢/١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤٠/٢ .

والركافة ، والسخافة ، ولا بد لنا هذه المرة أيضا من إعادة الشكوى ، لأننا نرى السدود قد زاد فشا ، وتأشرا ، فكأن روتر وشركاه ، بل كل من يتصدى لتأدية الأخبار قسدا سكر من غمرات الحرب . (١) وتتصدى لبعض الأخبار ، فيحليل ويستنتج ، ولا يهتم كليا على وكالات الأنباء ، فهو يتحدث في صدر مقالة سياسية ، حول دخول الطوك فكتور أمانويل مدينة البابا بقوله : " قد طال تمجينا من طول سكوت روتر وشركائهم عما جرى للطوك فكتور أمانويل بعد دخوله رومية مع ثلاثة من وزرائه ، فهل أنزل البابا منزل الزائر أو الجائر ، أو الزائر من زار . . . (٢) وبعد هذا التساؤل يحلل الحدث فيستقصيه ، معتمدا على معرفته بالعلاقات الدولية ، وعلاقة البروتستانت بالكاثوليك في أقطار الدنيا

ومما بلغت النظر في المقالة في " الجواب " اهتمام الشدياق بقضيتها —
بارزتها —

الأولى : الترجمة من اللغات الأخرى .

الثانية : اهتمامه بالقضايا الإنسانية التي كانت محور اهتمام المجتمع الانساني فسي زمنه ، فالترجمة مهتمة بجانبين ، الجانب العلمي فيما يتعلق بأخبار المكتشفات ، حيث تحدث عنها ، وصاغ ملامحها بأسلوب أدبي ، والجانب الأدبي ، حيث ترجم أو قرّب بتعبير أدق ، بعض الآثار الأدبية الأوروبية ، ومن ذلك ، حكاية تتحدث عن زنجي أمريكي تحرر من العبودية رسميا ، ولكنه يظل عبدا من خلال تعامله مع المجتمع الأمريكي ، وكان الحكاية المترجمة تريد القول أن العبودية لا تزال قائمة في أمريكا ، على الرغم من صدور القرارات الرسمية بتحرير العبيد ، أيام أبراهام لنكولن (٣) وترجم حكاية — تهورات دنكيشوط " وقرّب مضمونها وأسلوبها من ذهن القارئ العربي بقوله في بداية الحكاية : " من الكتب المنسوقة في الطليانية على نسق كتاب

Giovanni Boccaccio

الف ليلة وليلة ، كتاب يسمى حكايات بوكاتشيو

كان مولده سنة ١٣١٣ ، وهو من مشاهير المؤلفين في إيطاليا . . . (٤)

(١) كنز الرغائب ١٤٢/٢ — ١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٤٠/٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ٦٧/١ — ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٧/١ . تعرف هذه الحكايات باسم

وهذه الحكايات المترجمة ، كان يوظفها لخدمة قضية ما ، فالأولى للحديث عن العبودية والثانية لتعريف القاري بطرف من الأداب الغربية .

وأما القضايا الانسانية ، التي كانت موضوعا لكثير من مقالات الشدياق فهي الحرية في مختلف مظاهرها ، وأبرزها العبودية والتمييز العنصري ، وغبالإضافة إلى حكاية زنجي السابقة ، فهناك مقالة حول بيع الرقيق في الاستانة ، تحدث فيها عن هذه الظاهرة ، وسلوكيات المجتمع ، ثم خاطب القاري بقوله : " على أنك اذا تأملت فسي أصل بيع هؤلاء الجواري ، علمت أنه فاسد لا يسوغه مسوغ سوى العادة ، إذ هو مخالف للانسانية ، فضلا عن كونه مغايرا للدين " (١) وأراد الحرية للمرأة والطفل في مقالا تتخلفه فأراد للطفل أن يتحرر من أساليب التربية الخاطئة المبنية على الوسواس والأوهام والأضاليل . (٢)

تحرر الشدياق في مقالاته من السجع في أكثر الأحيان ، ولكن اللغة ظللت هاجسا من هواجسه ، كما كانت في كتبه الأخرى ، الساق ، والواسطة ، والكشف ولذلك تراه بين الوقت والآخر ، يهبط فيها ، وتستوقفه في مقالاته ففي مقالة بعنوان في الخل قال : " قال في القاموس الخل منفرج ما بين الشيتين ، ومن السحاب مخارج الماء ، الى أن قال بعد ثمانية أسطر ، والخل الوهن في الأمر والمتفرق في الرأي . . . (٣)

ذكر أديب مروءة في كتابه الصحافة العربية ، أن مهمة المقال الصحفي هي تفسير المحسوسات ، وشرح المؤثرات ، وربط الأحداث بعضها ببعض ، والموازنة بين الصور المختلفة لخبر من الأخبار ، ثم الشرح والتوجيه والإرشاد والاهتمام باحساسات القراء ، (٤) ولو تناول المرء مقالة الشدياق المعنونة " بعض ملاحظات تتعلق بالفرنسيين " (٥) لتبين أن أغلب هذه الجوانب واردة في مقالة الشدياق المذكورة فهو يتحدث عن الشعب الفرنسي ومآثره ، ويبين أسباب الحرب بين الفرنسيين والبروسيين مما يتناقض مع مآثر الفرنسيين ، وهو ينصح الفرنسيين بعدم التسرع بإعلان الحرب

(١) كنز الرغائب ، ١ / ٨٣ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ١ / ٨٧ ، مقالة بعنوان " الفرق ما بين الشرق والغرب " .

(٣) المصدر نفسه ، ١ / ٣٨ .

(٤) أديب مروءة ، الصحافة العربية نشأتها وتطورها ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٣٧ .

(٥) سبقت الإشارة الى هذه المقالة ، انظر كنز الرغائب ، ٢ / ٣١٥ .

ويوازن بين صورتهم المألوفة في أذهان الشعوب ، وما وصلوا اليه عندما شغفوا بالحرب كل هذه الجوانب تبين أن الشدياق قد سبق زمانه في مضار المقالة ، وأنه سار على نهج لم يهمل فيه أى عنصر من عناصر المقالة الصحفية المعروفة لدينا في هذا الوقت . يتضح مما سبق أن الشدياق الصحفي " كان من السابقين إلى توفير الفصول المتنوعة الغنية على الجريدة العربية " (١) ما جعل " الجوائب " ، " مدرسة أدبية سياسية جوّابة " (٢) ولكل ذلك كانت تتمتع " بتأثير كبير على جمهور القراء العرب " (٣) والفضل يعود إلى الأسلوب من جهة ، وتنوع الموضوعات في المقالات وما صاحب ذلك من العمق والتحليل ، بحيث أصبحت " من الصحف الأولى في العالم " (٤) والشدياق في " طليعة كتاب المقالة في العالم العربي " (٥)

* * * * *

-
- (١) صقر لبنان ، ص ١٣٠ .
 - (٢) نصوص التعريف في الأدب العربي ، عصر الاحياء والنهضة ، ص ٣١٥ .
 - (٣) ز . أ . ليفين ، الفكر الاجتماعي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، الطبعة الأولى ، ص ٢٦٢ .
 - (٤) فسي الأدب الحديث ، ١ / ٨٦ .
 - (٥) مصادر الدراسة الأدبية ، ٢ / ٤٧٢ .

الفصل الثاني

الشدياق والأدب الغربي

- أولا : تفاعل الشدياق مع الأدب الغربي – ملامح وإشارات .
- ثانيا : الشدياق والترجمة من الأدب الغربي .
- ثالثا : الشدياق والمسرح الغربي .
- رابعا : تأثير الشدياق بالأدب والفكر الغربيين .

- ١ . الأسلوب والافتكار .
- ٢ . الدين والسياسة .
- ٣ . الحرية والمسؤولية .
- ٤ . الشدياق والرومانتيكية .

الفصل الثاني

الشدياق والأدب الغربي

كان رحيل الشدياق إلى مالطة ، فرصته الأولى للاطلاع على الأدب الغربي وربما كان لمعطه في مطبعة تعود إلى مرسلين أمريكيين لمدة أربع عشرة سنة ، أثر هام في تعميق معرفته المبكرة بالغرب ، وهو إذ ذاك شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر (١) وبعد هذه التجربة الطويلة من خلال المطبعة والترجمة والتصحيح ، ارتحل إلى أوروبا فأقام في إنجلترا وفرنسا مدة تزيد على خمسة عشر عاما (٢) - أتقن أثناءها اللغة الانجليزية " ولا شك في أن ترجمته للتوراة ، دليل على اضطراره بها " (٣) وقد أفرد للغة الانجليزية بحوثا ومناقشات ، إلى جانب الخبرة العملية التي اكتسبها أثناء ترجمته للتوراة من الإنجليزية إلى العربية (٤) ، وأما اللغة الفرنسية فقد تعلمها في باريس رغبة وحبه بها (٥) وترجم عنها بعض المختارات الأدبية للامارتين Lamartin وشاتوبريان Chateaubriand وفي هذه الترجمات إشارة إلى تمكنه من اللغتين الإنجليزية والفرنسية (٦) لذلك ملك الجرأة لدراسة آداب القوم ونقدها ، ومن منطلق ضرورة رصد ما يرجح ذلك ، فقد رأيت أن أبين الإشارات والعلام التي وردت في مؤلفاته الأدبية وأوضح إلى أي مدى كانت علاقته بهذه الآداب ، ثم أبين الأشكال الأدبية التي رصدتها في هذه المؤلفات ، وورد فعله إزاء هذه النماذج معجبا أو ناقدا أو رافضا ، لأبين بعد ذلك مدى تأثيره بالفكر والأسلوب الغربيين ، والحركة الرومانتيكية ، التي كانت

-
- (١) انظر إبراهيم عبده ، أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٥١ .
 - (٢) ارتحل الشدياق إلى مالطة سنة ١٨٣٤ ، وإلى أوروبا سنة ١٨٤٨ .
 - (٣) شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٢١ .
 - (٤) انظر الواسطة ، ص ٨٦ ، وكشف المخبا ، ص ٢٧٣ .
 - (٥) انظر الساق على الساق ، ص ٦٣٨ ، إذ تبادل الشدياق مع رجل فرنسي بحديث يعلم كل واحد منهما لفته للآخر .
 - (٦) انظر كشف المخبا ، ص ١٢٨ ، ٢٦١ ، حيث يقارن الشدياق بين الأدبين الانجليزي والفرنسي مقارنة خبيره .

سائدة في فرنسا وانجلترا عندما كان الشدياق هناك .

تفاعل الشدياق مع الأدب الغربي - ملامح وإشارات

يبدأ الشدياق " الساق على الساق " بإشارة دالة على اطلاعه على مؤلفات الغربيين ، ومعرفة أساليبهم ، فتحت عنوان " في إهدا " هذا الكتاب : يقول : " لما جرت عادة المؤلفين من الإفرنج أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من تميز في عصرهم بالفضائل والمقامات ورويت عنه مآثر جليلة في إكرام العلم وأهله ، رأيت هنا أن أحذو حذوهم . " (١) وكانت أساليب الإفرنج في متن الكتاب فضلا عن الإهدا ، واحدة من الأمور التي أشعر الشدياق قارئة بأنه عيسى بينة منها ، فهو يقارن الأساليب الغربية بالأساليب العربية فـ في الكتابة ، ولم يكتف بالإشارة إلى ذلك ، بل جاء بنماذج حيدة ، فوصف الحمار بالأسلوب العربي ، كما وصفه بالأسلوب الغربي (٢) ، ووصف الرجل قبل الزواج بالأسلوبين أيضا (٣) فقال مثلا يصف الحمار بالأسلوب العربي : " فانه كان زبونا بليدا ، حرونا عنيدا تارزا قد يهدا لا يكاد يخطو الا بالهراوة ، واذا رأى نقطة ماء في الأرض ، ظنّها بحرا ذا طفاوة فأجفل منها أجفال النعام ، ووجل كما يوجل من الحمام . " (٤) ووصفه بالأسلوب افرنجي فقال : " فانه كان حمارا ولد حمار ، وأمه أتان من جيل كلهم حمير ، وكان لونه يضرب إلى السواد ومرشمره كسر القتاد ، مصلم الأذنين ولا نشاط ، أعسم الرجلين باري الأعاط ، أدرم أفوه أدرم أقره ، يفرح في سسه ويرفـس عند نخسه . " (٥) ويرى محمد أحمد خلف الله أن الشدياق بهذا العرض للأسلوبين ، أراد أن يبين الفرق بينهما من حيث السجع

(١) الساق على الساق ، الإهدا .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١١١ (زبونا : الغبي ، انظر الفيروز آبادي ، فصل الزاي باب النون ، تارزا :

اليابس لا روح فيه ، الفيروز آبادي ، فصل التاء باب الزاي ، أعسم : مفاطه متينة ، فصل العين

باب الميم ، الأعاط : أي لا شعر على جسده ، فصل الميم باب الطاء . أدرم : لا

يظهر له حجم من كثرة الشحم فصل الدال باب الميم ، أفوه : واسع الفم ، فصل

الفا باب النون ، أدرم : شديد السواد ، فصل الدال باب الميم . أقره : مثقوب

الجلد من كثرة القوبا ، واسوداد البدن أو تقشره من شدة الضرب فصل القاف

باب الهاء .

(٥) الساق على الساق ، ص ١١١ .

والعطف والإضافة وصيغ الأفعال . (١) ذلك أن الشدياق يرى أن لغة الإفرنج "لهم
تزل على حالة الطفولية" . (٢) وهو يعني بذلك "أنهم يوردون جملة بعد جملة
اقتضاباً من دون حرف عاطف ، اعتماداً على نقطة أو فاصلة" . (٣) ويوردون بعض
الجميل "من غير مناسبة" . (٤) وهذا واضح في وصف الحمار بأنه "كان حماراً وليس
حماره وأمه أتان من جبل كلهم حمير" . (٥) ولكن الشدياق في مواضع أخرى يسجل
ميزة للأسلوب الإفرنجي ، فهم أي الإفرنج "لا يتعمنون مثلاً على من قال فلان شم النرجس
وحبق ، أو حبق وشم النرجس ، أو شم فحبق ، أو شم حبق" . (٦) ومدار الكلام هنا على
التقديم والتأخير إذا لم يكن له تأثير هام في أداء المعنى ، بالإضافة إلى أدوات العطف
التي لا يرون في اختلافها أثراً كبيراً في المعنى ، وهذا واضح في حديثه عن
"الواو وشم" .

أعجب الشدياق من الإفرنج ، أنهم يكتبون كل صغيرة وكبيرة ، وأنه لا يعترض أحد
منهم على ذلك ، ووجته في هذا الإعجاب ، أن ما كان غير مفيد لواحد ربما يكون مفيداً
لآخر (٧) ، ولكنه أخذ على الإنجليز ربما هم في التأليف ، وذلك بأنهم يستشهدون
كثيراً بكلام من التوراة والإنجيل ترويحاً لبيع الكتاب ، ولكن هذا قليل عند الفرنسيين على
حد تعبيره . (٨)

من مآخذ الشدياق على تأليف الغربيين باللغة العربية ، وترجمتهم للتراث العربي
أنهم يأتون بالكلام "مسيوكا في قوالب أفكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قسط" . (٩)
وقد رعد لهم أخطأ كثيرة في هذا المضمار في الساق على الساق (١٠) ، ولكنه فسي
الوقت نفسه يستثني من هذا الحكم بعض المحققين من المستشرقين ، فقد أنصف سال Salle

(١) أحمد فارس الشدياق وآراءه اللغوية والأدبية ، ص ١٥٩ .

(٢) كنز الرغائب ، ١٢٩/١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٢٩/١٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٨٠/١٠ .

(٥) الساق على الساق ، ص ١١١ وردت العبارة نفسها ضمن وصف الحمار على الطريقة
الإفرنجية .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤١٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(٨) انظر كشف المغيب ، ص ١٩٢ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ . انظر أيضاً المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

والساق على الساق ، ص ٦٩٠ .

(١٠) انظر الساق على الساق ص ٦٨٦ - ٦٨٩ .

الذي ترجم " القرآن الكريم " (١) وستر آلان Allen الذي ترجم " ألف ليلة وليلة " (٢)
وترستون Treston الذي ترجم خمسا وعشرين مقامة من " مقامات الحريري " (٣)
وكاترمير Cattermear الذي حقق كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " للمقريزي (٤)
ونعى على بعض المستشرقين غرورهم الباطل ، وبعثرة المعلومات لإيهام الناس بأنهم
علماء (٥) كما تحدث عن أرباب " شعراء " فرنسيين ، حديث من يعرفهم جيداً
ومنهم المستشرق دى ساسي Silvestre de Sacy الذي برع باللغتين العربية
والفارسية ، وجورج صاند George Sand ، والشاعر لا مارتين Alphonse Lamartin
والكسندر دumas (٦) ومن القدماء ، فينلون Fenelon
مؤلف تلماك وموليير Moliere ، ولا فونتين La Fontain وفولتير
Voltaire ومونتسكيو Montesquieu (٧)
لم يكتف الشدياق بذكر الأسماء بل تعداها إلى الأدب نفسه ، لذلك نجده
يعقد موازنة بين الشعراء العرب من جهة ، وشعراء اليونان والرومان والطلبيين
والنصاويين ، والانجليز من جهة أخرى ، وهو بهذا الصدد يذكر أن من نبع من
الغربيين في مجال الشعر طة ، بينما شعراء العرب أكثر ، وعلم ذلك بأن مزية
الكرم عند الإفرنج غير موجوده كما هي عند العرب ، منذ العصر الجاهلي
ولذلك لم يعرف لليونانيين غير هو ميمروس Homeros ، وللرومانيين غير
فرجيل Vergilius وللطلبيين طاسو Tasso
وللنصاويين شلر Schiller وللفرنسيين راسين Racine
وموليير Moliere وللانجليز شكسبير Shakespeare ومطون Milton
وبعرون Byron .

-
- (١) كشف المخبا ، ص ١٢٥ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .
 - (٤) الساق على الساق ، ص ٤٠ ، ٦٣٩ .
 - (٥) كشف المخبا ، ص ١٢٤ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

بينما شعراء العرب المبرزون أكثر من أن يعدوا. (١) ويقارن الشدياق شعر الطرفين — ف يأخذ على الغربيين أنهم " لا يلتزمون فيه الروي والقافية ، وليس عندهم قصيدة واحدة على قافية واحدة ، ولا محسنات بدعية ، مع كثرة الضرورات التي يحشون بها كلامهم " . (٢) وربما تكون هذه الإشارات بداية للدراسات المقارنة في القرن التاسع عشر. كما تطرق إلى أغراض الشعر الغربي ، القديم والحديث ، وما يتصل منه بالمجون ، فأفاد أنه ليس في شعرهم الجديد منه شيء ، ولكن شعرهم القديم ملي به مثل الشعر العربي وعلل ذلك أن الرجل في الغرب الحديث يجد ضالته من النساء وراء الباب ، مما لا يعود هناك داع للمجون في الشعر. (٣) ولكن المجون في نثر الغرب كثير إلى درجة أن من ألفوا فيه قد أفحشوا أكثر من مشاهير العرب في المجون أمثال ابن حجاج وابن أبي عتيق وابن صريع الدلا* فذكر منهم دين سويفت Jonathan Swift واستنـ

John Cleland وكلياند Lurrence. sterne (٤)

من ملامح الشعر الإفرنجي التي ذكرها الشدياق أنهم لا يرون أقطع من الفزل في قصائد المدح ، ويكرهون وصف المرأة بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل ، نجلاً العيينين ، سوداً الفروع (٥) ، وكأنه يريد القول ، أنهم على نقيض العرب في ذلك كما أنهم لا يرون أقطع من التشبيب بفلام (٦) ، وينكرون على العرب المبالغة في وصف المدوح ، والمدح عندهم ضرب من التاريخ ، يذكرون فيه أعمال المدوح ومساعيه وفضله

- (١) الساق على الساق ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ذكر الشدياق أن شلر نساوي وهو ألماني كما هو معروف .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦٧ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .
- * ابن حجاج هو حسين بن أحمد ت ٣٩١ هـ ، انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٤٢٦/١ . وابن أبي عتيق ت ٦٨٠ هـ ، انظر لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة فـ أخبار غرناطة ، القاهرة ١٩٠١/١٥٨٣ — ٤٨٤ ، وابن صريع الدلا* ، محمد عبد الواحد ، ت ٤١٢ هـ ، انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، ٣٨٣/٣ — ٣٨٤ .
- (٤) الساق على الساق ، ص ٥٨٤ ، ٥٨٥ .
- (٥) كشف المخبأ ، ص ٣٠٣ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ .

على من تقدم من الطوك ، ولا يستعملون أدوات العرب في التشبيه مثل الأسـد
والسحاب والطود والمدر والسيف ، ويرون ذلك من البتذل (١) ، وهم في كل ذلك
على نقى العرب تماما في ملامح شعرهم وأسلوبه .

تعتبر هذه الملاحظات على شعر الإفرنج ، محاولة جادة من الشدياق لتقريب
صورته من ذهن القاري العربي ، الذي لم يكن آنذاك يعرف لغات هؤلاء القوم معرفة
تمكنه من التعرف على آثارها ونتائجها ، وقد أخذت عليه نازك سابا يارد ، أنه كـسـان
يحكم على شعر الإفرنج بمقاييس النقد العربي القديم . (٢)

الشدياق والترجمة من الآداب الغربية

اهتم الشدياق بهذا الجانب في أعماله الأدبية ، " الساق " و " الكشف
و " الجواب " ولم يكن يترجم خبط عشواء . بل كان يتخير المادة التي يترجمها
مبينا الدافع والغرض الذي يجعله يختار مادة ما لترجمتها إلى العربية ، ويوظف
هذه المادة لإيصال فكرة معينة إلى القاري ، ففي الساق ترجمتان : الأولى
من مقدمة ديوان لا مارتين Lamartine والثانية جزء من رحلة
شاتوبريان chateaubrian فقد وظف الأولى ليهين حرص الفـسـر
" على تقييد كل ما يقع عندهم " (٣) ويظهر ذلك في الجزء التالي من هذه الترجمة
فيقول في وصف بلاد العرب : " وكانت العرب يدخنون التبغ في قصبات لهم طويلة

(١) انظر كشف المخبيات ، ص ٣٠٣ .

(٢) انظر الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ١٩٨ .

(٣) الساق على الساق ، ص ١٠١ . الرحلة التي يشير اليها الشدياق

إلى القدس ، وقد ظهرت سنة ١٨١١ ، وقد كانت الرحلة في توجيهها العام

تهدف إلى إدارة الدولة العثمانية ولهذا ركز شاتوبريان على بلاد اليونان

وحاول أن يستثير عاطفة الأوروبيين في تركيزه على استعمار العثمانيين

للليونان انظر Kindler Littrature Lexikon, 13, 1986,

Munchen. P. 107 12-13.

وهم ساكنون وينظرون إلى الدخان متصاعدا كأعمدة زرقاء لطيفة ، إلى أن يضمحلوا
 في الهواء ، اضمحلا يشوق الرائي ، والهواء ، إذ ذاك شفاف لطيف . . . إلى قوله : ثم إن
 صهيبي من العرب جعلوا الشعر في مخال من شعر المعزي ، ووضعوها في أغصان
 الخيل وهي حول خيمتي ، وأرجلها مربوطة في حلق من حديد ، وهي غير متحركة ، ورووسها
 مخفوضة إلى الأرض . " (١) ولتأكيد الغرض نفسه ترجم من رحلة شاتوبريان Chateaubrian
 إلى أمريكا ما صورته : " وكان منزل رئيس الدول المتحدة عبارة عن دار صغيرة منبوعة
 على أسلوب انجليزي في البناء ، من دون خفرة عندها من العسكر ، ولا حشم داخلها
 فلما قرعت الباب ، فتحت لي جارية صغيرة ، فسألتها هل الجنرال في البيت ؟ فأجابته
 نعم " (٢) ومن خلال هاتين الترجمتين يخلص العرب إلى الحقائق التالية : -
 أولا : يريد الشدياق أن يخبر القاري العربي بأن المؤلف في الغرب يكتب ما يحس به
 ولا يخشى لومة لائم ، وأن القاري لا يعترض على شيء من ذلك ، لقناعته بأن الكاتب
 يكتب للناس جميعهم ، ومن هؤلاء الناس من يستمتع ويستفيد من التفاصيل والجزئيات
 ثانيا : أن الشدياق حسن فهمه واستفاد من الفرنسية الدقة في التعبير ، وأنه بلغ
 من هذه اللغة بلغا حسنا . (٣)
 ثالثا : أنه عندما كان يترجم ، لم يتقيد حرفيا بالترجمة ، وكان يهيمه أداء المعنى بالشكل
 الذي أراد الكاتب ، وهذا واضح من قوله في ترجمة جزء من رحلة شاتوبريان حيث
 قال " ما صورته . " (٤)
 هناك بعض الترجمات في " كنز الرغائب " ، منها قصة بعنوان " حكاية زنجي " (٥)
 وحكاية أخرى عن مغامرات دونكيشوط Don Quixote ففي الترجمة
 الأولى أراد أن يعرف القاري بعلام العبودية في أمريكا ، وفي الثانية أراد أن يعرفه
 بنمط من أنماط التأليف في الغرب ومن هذا المنطلق ، أفاد بأن حكاية

(١) الساق على الساق ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) انظر شفيق جبري ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٢٢ .

(٤) الساق على الساق ، ص ١٠٢ .

(٥) كنز الرغائب ، ١٠ / ٦٧ .

(٦) المصدر نفسه ، ١٠ / ٢٧ .

دون كيشوط DonQuijute التي أورد ترجمتها هي حكاية من مجموعة حكايات على نمط " ألف ليلة وليلة " . (١)

كان الشدياق يتخير المادة التي يريد ترجمتها ، ومن هذا المنطلق تنوعت مصادره ، فترجم " قصة زنجي " عن صحيفة أمريكية لم يذكر اسمها ، وحكاية دون كيشوط لبوكاتشيرو Giovanni Boccaccio وترجم ثالثة عن كتاب لم يذكر اسمه لسائح انجليزي ، كان قد ساح سبع سنين في سيبيريا وبلاد التتار . (٢) وفلسفي الترجمة الأخيرة أراد أن يعط القاري ، وهذا رآه في القصص الأخرى التي ترجمها حيث كان يتوخى هدفا ، فيبرزه للقاري بشكل واضح وصرح .

وعلى صفحات " الكشف " ترجم قصتين ، الأولى قصة الطلعة ماري ستيفوارت Mary Stuart عن بوليه Pole (٣) ويبدو أنه تصرف في هذه الترجمة حيث فهم القصة ثم سرد وقائعها ، وأضفى عليها طابعا حزينا مشوقا ، مع أن القصة وردت ضمن إشارة تاريخية عن علاقة الطلعة ماري مع البصايات Yassbatte بالإضافة إلى مولدها وزواجها وديانتها ، كل ذلك عن بوليه ، ثم يكمل القصة عن مجهول بقوله : " وما ذكر عن هذه الطلعة على سهل الإسهاب ، هو أن الطلعة البصايات كانت قد حسدت لها على صيتها وجمالها ، فأضمرت قلبها ، فمن ثم أمرت أحد كتابها المسمومين دايصون Dysson بأن يكتب أمرا بذلك " . (٤) ثم يصف لحظات ما قبل إعدامها وصفا مؤثرا فيقول : " ثم غطت وجهها بخنديل أسود واستوت على الخشبة ، وجعلت تتشد فصلا من الزمامر ، ثم اضطجعت وجعلت تقول : رب إني في يدك أضع روحي فتقدم الجلاذ وضرب عنقها ، فقطع رأسها بضربتين " . (٥) .

لم يترجم الشدياق هذه القصة عبثا ، وإنما جاء بهذه الترجمة ليبين للقاري من خلالها طرفا من تاريخ أوروبا بالإضافة إلى الصراع والتعصب الديني ، ومع وجود هذا الهدف لم ينس الشدياق أن يبرر سرده للقصة فيقول قبلها : " ومن قرأ قصة الطلعة ماري وهي مسجونة ، وما لقيت من الضر والنكد ، فلا يطك عبراته عليها ، ولمعري أنه لم يشقني السي

(١) كز الرغائب ١ / ٢٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٤ .

(٣) انظر كشف المخبا ، ص ٢٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .

رؤية سكوتلاند غير صورتها ، وقصرها ، وذكر أيامها . " (١) وهذه العبارة تدل على أن الشدياق قرأ قصتها ، ولكنه لم يذكر من أي مصدر ومن هو الكاتب ، ولكن الحقيقة أنه نقل إلى العربية هذه القصة ، وكان المدار عنده على المعنى ، دون أن يتقيد حرفياً بالنص الذي ترجم عنه .

ترجم الشدياق في " الكشف " حكاية شعبية إنجليزية ، تصور الفقر في بريطانيا وكان هدفه من هذه الحكاية ، أن يصور للقارى مدى ما يعاني فقرا تلك البلاد من الحاجة والإحباط (٢) ، كما ترجم قصة جان دارك Jean d, Arc لفولتير وقد فعل في هذه الترجمة ما فعله في قصة الطلعة ماري ستيوارت ، حيث تحدث عن الحرب بين فرنسا وإنجلترا من الناحية التاريخية ، ومهد بحديثه هذا لظهور البطلة جان دارك (٣) وسرد القصة على سبيل الإسهاب أيضا ، ومصدره بالإضافة إلى فولتير كتاب " عثر عليه في تاريخ بلاد الانجليز . " (٤) لم يذكر اسم صاحبه ، ويعتمد في بعض المعلومات على كتاب اسمه " أبجدية الأوقات " ، مما يجعل القارى على يقين بأن الترجمة لم تكن مباشرة ، وإنما كانت معلومات مختزنة في ذهن الشدياق من هذه المصادر ، لخصها في سبع عشرة صفحة ، وفي النهاية بين مارآه من اختلاف الروايات حول جان دارك ، ورأى أن هذا الاختلاف أمر طبيعي ، حيث لا يتفق راويان حول حدث واحد على حد قوله . (٥)

الشدياق إذن لا يترجم فقط ، بل يعلق تعليق الباحث عندما يقتضي الأمر ذلك ويفصل الأقوال والروايات بإشارات مفادها اختلاف المصادر التي يأخذ عنها ، حتى لا يقع القارى في اللبس ، وفي ترجمته لهذه القصة ، أراد أن يبرز صورة ناصعة للمرأة النموذجية كما أراد أن يثبت المعرفة والخزي لكل من " تسبوا في إهلاكها . " (٦) والمصادفة الغريبة أن أبرز قصتين ترجمهما في " الكشف " ، كان محورهما المرأة المثالية ماري ستيوارت وجان دارك .

-
- (١) كشف المخبا ، ص ٢٢٢ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .
 - (٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

تَكَادُ الترجمة تكون ظاهرة متميزة اهتم بها الشدياق في اعماله الأدبية، وهذه الترجمة بالإضافة إلى كونها ظاهرة ملموسة فإنها تدل — كما سبق القول — على معرفته الجيدة بلسان الإنجليز والفرنسيين (١)، حيث يشير في مواضع أخرى إلى ما يرجح هذه الحقيقة فاللغة الفرنسية كما رآها "تطفح بالاستعارات والكنايات، ولولا هما لضاقت بهم العبارة عن تأدية أكثر المعاني". (٢) ومع ذلك فإن هذه اللغة "أشجى لغات الإفرنج جميعاً". (٣) بينما يرى لغة الإنجليز "كثيرة السواكن". (٤) مع وجود بعض الفضائل لهذه اللغة ومنها خصوصيتها في تأدية التراجيدي والكوميدي فهي "أطوع على ذلك من غيرها". (٥) وأما اللغة الطليانية فهي أكثر اللغات الأوروبية طواعية، وخاصة في الإنشاء، لكثرة ما فيها من الحركات (٦)، ومعرفة الشدياق لهذه الأسرار، أتاحت له القدرة على التصدي لترجمات المستشرقين من اللغات الشرقية، ولعل الأخطاء المضحكة التي أوردوها للمستشرق لي Lee في ترجمته للكتاب المقدس، خير دليل على ذلك (٧)، وأتاحت له القدرة، ليدرس الأدب الغربي شعراً ونثراً، ويضع يده على الثغرات والمآخذ، ويبين ما أعجبه منها وما لم يعجبه، وكان على رأس الموضوعات التي رفضها الرواية الغربية لكثرة ما فيها من التكلف والاسفاف (٨)، ولكنه أعجب بالمرح الغربي مما دفعه أن يتحدث عنه حديثاً مفصلاً.

الشدياق والمرح الغربي

قبل أن يخوض الشدياق في موضوع المسرح، أراد أن يؤكد لقارئه حقيقة، وهي

-
- (١) انظر البحث، ص ١٢٦.
 - (٢) كشف المخبا، ص ٢٧٣.
 - (٣) الواسطة، ص ٨٦.
 - (٤) المصدر نفسه، ص ٨٦.
 - (٥) كشف المخبا، ص ٣٢٩.
 - (٦) انظر المصدر نفسه، ص ٣٢٩ انظر أيضاً الواسطة، ص ٨٦.
 - (٧) انظر المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٩، انظر أيضاً الساق على الساق، ص ٢٢٤-٢٢٥.
 - (٨) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

أن التراجيدي والكوميدي " كليهما يعدان من الأدبيات " (١) وهو بهذا القبول يلجأ إلى عدم معرفة الأدب العربي لهذا الفن ، ولكنه في الوقت نفسه لا يستبعد " أن شعراء العرب حين كانوا يتناشدون الأشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجبه يمسها حوكا في النفوس ، مع اقترانها بالحركات والاشارات " (٢) ومن منطلق إحساسه بأهمية المسرح ، تحدث بالتفصيل عن كل العناصر كما رآها في المسرح الغربي ، ومن هذه العناصر :-

أولا : النص المسرحي ، وقد رأى أن التمثيل ، كما رآه في الغرب " يتجاذبه نوعان من التاريخ والأدب ، وإعادة الحوادث والوقائع الماضية ، فتصير كأنها مشاهد بالعيان (٣) ويدخل في النص المسرحي أحيانا " الأشعار الرائقة والقصائد البليغة " (٤) ولعظم شأن هذا الفن عند الغرب ، فإن أعظمهم قد ألفوا فيه ، الخطباء المصنفون والأدباء البارعون " (٥) ، وذكر الشدياق أن هذه النصوص على نوعين : كوميدي أو تراجيدي ومهما كانت اللغة التي يتحاور بها الممثلون فإن " الحركات والإشارات جميعها واحدة " (٦) وأرجع الفضل في اختراع التراجيدي إلى الظليان ، ثم اقتدى بهم أهل فرنسا ، وأول من ألف به حسب رأيه ، يوناني هو أورو بيبس Euripides وذلك سنة ٤٨٠ ق م (٧) وهذه المعلومات لا تدل على أن الشدياق اعتمد على المشاهدة فحسب وإنما قرأ عن تاريخ المسرح وتطوره ، وعرف أسرارها أيضا .

ثانيا : الممثلون تحدث بهذا الصدد عن صلاحية الأدوار ، وملاءمتها للصوت والشكل " فمن كان مديد القامة جهوري الصوت أمتنع ، خصصوه بأن يمثل الأمور التي فيها حماسية ومن كان لطيفا رخصا خص بها شأنه الاستشفاع مثلا والملاطفة والتعلق ، ومن كان حزينة ، خص

-
- (١) كشف المخبيات ، ص ٣٢٩ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .

بالأمور السخرية^(١) وتحدث عن هموم ومتاعب الممثلين ، وصور الى أى مدى تكون مهمتهم صعبة ، وضحا معاناتهم البرد حين تضطربهم أرواحهم أن يرتدوا الطلابس الرقيقة ، ومن معاناتهم أيضا التكرار للدور نفسه عدة ليال^(٢) ، ولوح الى المبالغ التي تكلف انجاز أى عمل مسرحي مما يعكس أهمية هذا العمل^(٣) ، بالإضافة الى حجم المعاناة في حفظ الممثلين للنصوص المسرحية عن ظهر قلب فيقول : " ولو عرفت قدر ما يسره هؤلاء اللاعبين عن ظهر القلب لأعظمته جدا ، فان كلا منهم يحفظ من القصص والنوادر ما يكون أكبر حجما من ديوان المتنبي " ^(٤) ويشير الى عنصر خفي من عناصر المسرحية ، وهو ما نسميه الطقن فيقول : " وقد يوارون شخصا بيده الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان حتى اذا زهل المتكلم عن شيء رده " ^(٥) .

ثالثا : الديكور والملابس والمكياج .

يقول الشدياق في الديكور كما رآه في مسارح الغرب : " وفي هذه المواضع مسن الآلات والمناظر ما يحير الناظر " ^(٦) ولكن هذه المناظر متغيرة وليست ثابتة وذلك على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ^(٧) وذلك لتكون ملائمة للمسرحية ، وكذلك الملابس ، فلا بد أن تكون ملائمة للشخصية ، ومكان وجودها في البيت أو العمل ، وذلك ضروري لماله من الدلالة على الشخصية وظروفها ومهمتها وعطها ^(٨) ، ومن هنا تتغير الأزياء طبقا لذلك ، فربما يتزيا الفتى بزي الشيخ ، ويتفتى الشيخ ، وفي تفتى الشيخ الذي يتحدث عنه ، يشير بطريقة غير مباشرة الى المكياج ، والشدياق معجب بسبب

(١) كشف المخبا ، ص ٣٢٧ . خزقة : القصير القائمة الذي يقارب الخطو لقصرة انظر الفيروز آبادي فصل الحاء باب القاف .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣١ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ، انظر ايضا المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .

باتقان هذه الصنعة ، ويرى من الصعب التمييز بين الصغير والكبير من الممثلين ، بفضل تضافر المكياج ولياقة الممثلين . (١)

أشار الشدياق إلى أشكال أخرى من التشثيل المسرحي ، فتحدث عن التشثيل الصامت ، وهو ما يعرف الآن بمسرح الإيماء ، وذكر اسمه بالإنجليزية بنطوميم (٢) ، وقد أضاف بأن هذا النوع من المسرح له جوانب كثيرة ، ومميزات يصعب حصرها ، بحيث أن له " شجونا وفنونا أكثر من الكلام ، ولا تكاد تدخل تحت حد أو تعريف ولا تنتهي إلى مدى " . (٣) ولفت نظره في المسرح الخدع الكثيرة التي يدهش المشاهد لرؤيتها . (٤)

من باب وجود علاقة مكانية بين المسرح ورقص البالية ، أشار الشدياق إلى هذا الرقص ، وحاول تقريب صورته من ذهن القاري ، فعرّفه بأنه نوع من الرقص " مخالف للرقص المعمود في المراقص ، فإنه هنا أكثر خفة وصنعة وموازنة ، فقد ترقص المرأة على رؤس أصابعها عدة دقائق ، أو تمشي كذلك القهقري ، وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات في بلادنا تقريباً " . (٥) والملاحظ أن الشدياق بالإضافة إلى دقته في تصوير هذا الرقص قد استغل صوراً ملموسة للإنسان العربي ، ليعلم أنه قد وصل الصورة المبتغاة .

لم ينس الشدياق بطبعه الناقد ، أن يضع يد القاري على منافع المسرح ومضاراه وذلك من خلال تجربته ورؤيته الخاصة ، فقد أعجبه من هذا الفن " كثرة الحفظ وحسن الأداء " . (٦) من قبل الممثلين ، ولفت نظره الفوائد الاجتماعية والثقافية للمسرح ، فهو يعلم المشاهدين " المحامد والمكارم " (٧) كما " يعلم الفصاحة والبلاغة " . (٨) لأن كل

(١) كشف المخبا ، ص ٣٣٠ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ (Pantomime) نوع من الدراما الروائية تصحبها الموسيقى والرقص والتبريج ، التشثيل الصامت .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٤ ، سمع الطهطاوي (البال) ولم يسمه الشدياق انظر رفاعة رافع الطهطاوي ، تخلص الإبريز إلى تخلص باريزه القاهرة ، دار التقدّم

١٣٢٣ هـ ، ص ١١٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .

ما يقال فيه " من الكلام الفصح " (١) وفضلا عن هذا كله فهو يسلي الجمهور فيقنع فيه " ما يسرى به عن الشكلى حزنها " (٢) ومن أجل هذا كله لا يستغرب الشدياق إقبال الجمهور عليه إقبالا شديدا إلى درجة أن بعض الناس " يحرمون أنفسهم لذة الأكسـبـل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه المـلـاهـي " (٣)

أخذ الشدياق على المسرح في الغرب بعض المآخذ الخلقية والفنية، أما الخلقية فمنها أن المترددين على المسرح في الغرب، وبخاصة النساء " يتعلمن كثيرا من الحيل والأسباب الموصلة إلى الوصال، وتبدل البعولة بالعشاق " (٤) وساء من المظلمة لنفسه أن " نصف تمثيلهم إنما هو هزء بالمترولين " (٥) وفي كلتا الحالتين فإن ذلك لا يعد مخلا بالحيا، فذلك عندهم أمر عادي. (٦) والشدياق بهذا القول إنما يقيس الخلقيات بقياس الرجل الشرقي، مما يجعل الحكم أمرا غير نهائي، وانسحب هذا الحكم على بعض المشاهد المسرحية، مثل ظهور أفخاذ النساء، وتقبيل الرجال لهن (٧)

أما مآخذ الفنية على المسرح الغربي، فلم يعممها على كل الأعمال المسرحية وضها أنهم ربما لا يختارون الممثل الملائم للدور الملائم، كأن تنشأ امرأة ضعيفة شعرا حماسيا، وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى عنصر الإخراج المسرحي، الذي لم يلفت نظر الشدياق فيتحدث عنه بتفصيل أكثر، كما لم يعجبه أيضا حديث الممثل إلى نفسه وحتى يقرب الصورة جاء بمثال على ذلك فيقول: " يقول المحب وقد أعيته الحيلة فسي وصال محبوبته، كيف أفعل الآن وقد سدت عليّ مـذاهب الآمال، فلم يبق لي إلا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا... " (٨) وهذا الذي لم يعجبه هو ما يسمى بالمصطلح النقدي الحديث المنولوج Monologue أو الحوار، ويعد الآن مهـزـة عند الممثل الذي يبرز مكنون نفسه ويحاورها، ولكن حرارة هذا الحوار واتقانه هي التي

(١) كشف المخبأ ص ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٣٣١.

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣٤.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٣٤.

(٨) المصدر نفسه ص ٣٣١.

تقرر مقدار نجاحه .

أخذ الشدياق أيضا على المسرح الغربي بعض الخدع . ومنها أن الممثل يحمل آلة موسيقية ، ويوحى للجمهور بأنه يعزف عليها ، بينما الذي يقوم بهذا المعزف شخص آخر لا يشاهده الجمهور ، ويحبذ لو أن الممثل نفسه يفعل ذلك (١) وهو بهذا يريد أن يكون الفنان شامل الإحاطة بمختلف ضروب الفن ، مع أنه تحدث عن أعبائه وهمومه يضاف إلى ذلك أن الموهبة لا تتأتى للممثل في كل ضروب الفن .

لفت نظر الشدياق أمر يدل على أنه يدرك قيمة المسرح وضرورته للجمهور ، وهذا الأمر هو غلاء المقاعد بحيث لا يعود يتبوأها إلا أهل الاستطاعة (٢) وهو يدعـو بهذه الإشارة أن يكون المسرح لكل الطبقات لتعميم الفائدة ، ولا يريد أن يكون حكرا لطبقة القادرين ، كما ساءه من المسرح في الغرب ، المواعيد التي تعرض فيها المسرحيات حتى صار ذلك تقليدا مملأ ، حيث يبدأ التمثيل الساعة السابعة ، وينتهي في الحادية عشرة ليلا ، وهذه العادة ، تفرض على النص المسرحي حشوا كثيرا وسخافات ، وهو بهذا الصدر يتمنى لو أن القائمين على المسرح في الغرب ، يقصرون الوقت ويستغنون عن كل أنواع الحشو (٣) ، وهو يريد أن يقول أن الزمن مفروض على النص المسرحي ، وفي الوقت الذي يجب أن يكون العكس هو الصحيح .

بهذا الفيض من المعلومات عن المسرح الغربي ، ووضع اليد على الإيجابيات والسلبي من عناصر المسرح وجزئياته ، يستطيع المرء أن يطلق على الشدياق صفة ناقد مسرحي ، شرط أن يأخذ باعتباره الزمن الذي عاش فيه ، وعدم نضوج هذا الفن لدى العرب نضوجا كافيا ، ولكنه وإن كان ينطلق في نقده من منطلقات خلقية ، في بعض الأحيان معذورا لأنه رجل شرقي له قيمة وتقاليد ، وفي كل الأحوال كان حديثه عن المسرح الغربي حديثا سهلا ، توخى فيه الدقة ، ورصد كل ما من شأنه أن يعرف القارئ بما هيـئة هذا الفن وعناصره ، ومن أجل ذلك دأب على إبراز أمثلة ، هي عبارة عن مشاهد من مسرحيات مختلفة شاهدها ، ومنها ، تمثيل رجل فرنسي زار لندن (٤) ، وتمثيل فتـح

(١) انظر كشف المخبا ، ص ٣٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣١ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .

الإسبان لبيرو في أمريكا الجنوبية (١)، وعرس لأحد ملوك الهند (٢)، واحتسب يتأكد تماما أن هذه الأمثلة تفي بالغرض، أتبعها بعثال حي من التراث العربي (٣)، مصرأ على توضيح فكرة المسرح، وليس أدل على شدة اهتمامه وإعجابه بهذا الفن، من تنبيهه لو أن العرب القدماء نقلوا عن اليونانيين هذا الفن كما نقلوا الفلسفة (٤) ونظرا لأن العثال الذي جاء به من التراث العربي، يهدف إلى تقريب صورة المسرح للقارئ، فإنه يعد مشروع مسرحية جاء في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، فمن المفيد تسجيل هذا المشروع كاملاً:

يقول الشدياق: "مثال ذلك إذا أريد تمثيل ماجرى بين السمؤال وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه أن يسلمه الدروع التي كان أودعها عنده أمرو القيس، نصبوا مكاناً شبيهاً بالقلعة، وجاءوا بدروع وسيف وشخصين مثلي امرئ القيس والسمؤال، فيكون هذا لباساً لباس الملازم لبيته المشتغل بأمور نفسه، وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشعر الشخص الممثل لا مرئ القيس في أن يخاطب الآخر، بأنه قام له هم في النفس اضطره إلى مفارقة الوطن، ومباينة السكن، فإن المعالي لا تدرك إلا بجهد النفس والمخاطرة وإزالة المصون من النفائس والرغائب، وما أشبه ذلك من الكلام الحكيم، وينشد في خلال ذلك أبياتاً يتمثل بها كقول المتنبي مثلاً:

تريدن إدراك المعالي رخصة ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل .
أو قول الآخر:

يفوص البحر من طلب اللالكي ومن رام العلى سهر الليالي .
ويتأوه في أثناء الخطاب ويحرك رأسه، وينظر نظر المستشع الثافه إلى أن يفرغ من الإنشاد، والناس منصتون، لا تسمع لأحد منهم نأمة، ثم يأتي بالأدع والسلاح، ويسلمها للسمؤال، فيأخذها منه، ويعد أن يتوادعا، وينشد كل منهما أبياتاً، دعا لصاحبه

-
- (١) انظر كشف المخبا، ص ٣٣٢ .
(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٣٣٣ .
(٣) انظر كشف المخبا، ص ٣٢٨-٣٢٩، مشروع المسرحية كاملاً . كتب أنطون الجليل مسرحية بعنوان السمؤال أو وفاة العرب، انظر محمد يوسف نجم، المسرحية فني الأدب العربي الحديث ١٨٤٧-١٩١٤ بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧، ص ٣١٥-٣١٧ .
(٤) انظر المصدر نفسه، ص ٣٣١ .

على ما يقتضيه المقام ، يدخل السموأل حصنه ويرخي الحجاب ، وبعد قليل يرفـُـع
ويأتي الشخص الممثل بن الحارث ، بلباس فاخر يدل على صفته ، ومعه جند وأعوان شاكي
السلاح ، ويطلب الدروع من السموأل وهو متهدد له ومتوعد ، ويمثل بأبيات تدل على
شدة بطشه وسطوته بين أقرانه ، كقول الفرزدق مثلاً :-

وكنا إذا الجبار صقر خـُـدّه ضربناه حتى تستقيم الأـُـخـارِعُ .
أو كقول المتنبي :-

الخيلَ والليلَ والبيداءُ تشهد لي والرمحَ والسيفَ والقرطاسَ والقلـُـمَ .

فيجيبه السموأل من حصنه بالنع ، وينشد أبياتا تدل على وفائه وصدق نيته ، وشرف نفسه
ثم تدور بينهما المحاوراة ، إلى أن يقبض الحارث من أخذ الدروع ، فيمهد إلى ابن السموأل
فيأخذه ويذبحه بمرأى منه ، وهنا يرخي السجف ، ثم بعد قليل يظهر السموأل ، ويبيـُـده
الدروع فيذهب بها إلى أقارب امرئ القيس ، ويسلمها لهم ، وينشد أبياته المشهـُـورة
وهنا يتم الفصل .^(١)

ان هذا المشروع بالإضافة إلى فائدته في توصيل فكرة الشدياق ، فإنه أراد أن يرينا
" إلى أي حد يمكن تحويل الأحداث التاريخية والأسطورية إلى تمثيلات . " (٢) ، وتصميم
الشدياق على توصيل فكرته من خلال نموذج حي ، وأوحى لأحد الأدباء اليسوعيين بعلـُـله
الأب خليل ارده ، بوضع تمثيلية كاملة : (٣) حول الفكرة نفسها .

تأثر الشدياق بالأدب الغربي

الاسلوب والأفكار

من خلال الترجمات المختلفة على صفحات الجوائب والساق والكشف ، يتبين المرء
إلى أي مدى تمكن الشدياق من الفرنسية والانجليزية ، وبالتالي يرجح احتمال تأثره
بالأدب الغربي ، وهذا الاحتمال بحاجة إلى أمثلة مدعمة .

-
- (١) كشف المخبأ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٢) أحمد فارس الشدياق ، وآراؤه الأدبية واللغوية ، ص ١٤٨ .
(٣) عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٩١ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

الأسلوب :

هناك قرابة واضحة بين الشدياق في قصة القسيس من جهة ، وبين فولتير في قصة " كنديد " من جهة أخرى ، وقبل الحديث عن مدى هذه القرابة أورد ملخصاً لقصة القسيس ، وملخصاً لقصة كنديد .

ملخص قصة القسيس (١)

كان هذا القسيس حائكا قصير القامة ، يعمل على نول للحياكة ، وكان حظـه العاثر له بالمرصاد في كل الأحوال ، فلما لم يفلح في هذه المهنة ، لكثرة سقوطـه في حفرة النول ، عمل في التجارة ، فاكترى حانوتا ، ولكن كبر أنفه حال دون نجاحه ، حيث لم تقبل النساء على الشراء منه ، ثم أصبح راهبا ، فاقتلعت عينه ، وهو يحاول النفاذ إلى أحد البهوت خلصة ، فطرده قسيسه ، وانتقل إلى دير آخر ، ولاقى هناك من طباخ الدير عنتا وسوء معاملة ، لا تحتاجه على قلة السمن في الطعام ، مما حدا بهذا الطبيبـا أن يفرق رأس القسيس في خابية السمن ، ثم انتقل إلى دير ثالث ، حيث تظاهر بالصلاح والتقوى ، فأعجب به رئيسه ، وأرسله إلى بلد يخدم الناس في ديرها ، فأقام عند تاجر رعاه تبركابه ورجاه أن تحمل زوجته العاقر ، فأنفق القسيس على زوجة التاجر مالا كثيرا بعد أن ارتبط معها بعلاقة محرمة ، مما جعل رئيسه يطرده ، وظل حظه العاثر له بالمرصاد أينما اتجه وحيثما حل .

ملخص كنديد لفولتير (٢)

نشأ كنديد في قصر جميل ، ثم طرد منه بعد أن رآه سيده يقبل ابنته كونيغونـد حيث ربط بينهما حب صادق ، فارتحل كنديد هائما على وجهه ، حتى وصل بلاد البلفار وهناك سجن وجلد من قبل الحاكم الذي يحكم مزاجيا ، وذلك لاختبار مدى تحطمـه ثم عفا عنه الملك ، وسار معه للقتال مرغما ، مما حدا به أن يفر إلى قرية لقي فيها معلمه بنغلوس وارتحل الاثنان إلى اشبونـه ولما وصلاها ، وقع فيها زلزال مريع ، وبعد الزلزال

(١) انظر الساق على الساق ، ص ١٥٠ - ١٦٣ .

(٢) انظر فولتير ، كنديد ، ترجمة عادل زعيتـر ، دار المعرفـ

جلد على اليته من قبل التفتيشيين ، وذلك لأنه أيد رأي استاذة في أن كل شيء حسن بل أحسن ما يكون ، على الرغم من الزلزال والموت والدمار ثم يلتقي بحبيبتة أسيرة عند البلغار ، فيقتل من أجلها تاجراً يهودياً وقاضياً يقاسمها فراشها عنوة كل واحد جزءاً من الأسبوع ، وبعد أن يقتل غريمه يفر إلى قادس ويصحبته حبيبتة وخادماتها المعجوز ، ثم ينفصل عنهما ويرحل إلى الهرغواي ليقابل شقيق حبيبتة الذي يرفض تزويجه منها فيقتله ويهرب ، ويقع بين قوربدانيين هم الأوريون ، وينجو منهم بأعجوبة ، وظل كذلك حتى وصل إلى الدورادو ، ولكن حظه العاثر ، ألج عليه أن يهادرها عائد إلى أوروبا محملاً بالأموال الطائلة ، وكانت محطته الأولى فرنسا ، التي تم فيها ابتزاز أمواله من الشرطة والموصات ، ثم ارتحل إلى الهندية لملاقة حبيبتة ولكنه بدلاً من أن يجدها وجد ملوكاً وأمراً ارتبط معهم بصدقة ، تعرف من خلالها إلى حظوظهم العاثرة ، فكلهم مخلوع ومهدد ، ثم ارتحل إلى الآستانة فوقع في الرق ، وفي كل رحلاته وتنقلاته كان كل من يلاقه ويرتبط معه بعلاقة ماء يجده ذاتاً حظ عاثر مثله .

يلاحظ من يتتبع القصتين ، أن البطل في كليهما عاثر الحظ فكذلك الطالع ، لا يكاد يخرج من مصيبة حتى يقع في أخرى ، أما كنديد فسوء حظه لأمر خارج عن إرادته ، وهو إيمانه المطلق بأفكار استاذة بنغلوس وتنطخض هذه الأفكار ، في أن كل شيء حسن بل أحسن ما يكون مهما كانت المصيبة (١) ، بينما يعود سوء حظ القسمين إلى أمر خارج عن إرادته أيضاً ، وهو قصر قامته وكبر أنفسه .

توجد واحدة في حياة كنديد قضى منها جانباً من حياته مرتاحاً سعيداً ، وهي إلى الدورادو ، وتوجد واحدة مماثلة للقسمين ، قضى فيها شطراً من حياته ينعم بالسعادة وهي بيت التاجر ، ولكن البطلين كليهما تسببا في خروجهما من هذه الجنة بحثاً عن المتاعب ، أما كنديد فطمعه بمال الدورادو وزهبهما الذي كان أهلها يرونه مشلحاً حصاناً الأرض (٢) ، بحيث ملأ الأكياس منه وعاد إلى أوروبا ، ليواجه نكد الحياة مرة أخرى بينما تمادى القسمين في الإسراف ، حتى طرد من جنته التي كان فيها سيد نفسه ، وواجه كل أنواع الاحترام والتبجيل في بيت التاجر على خلاف ما تعود .

(١) انظر كنديد ، ص ٢٣ .

(٢) انظر المرجع نفسه ، ص ٩٦ .

ملخص قصة الشديساق

حاول قسيس أن يعيد الحياة إلى خادمه المدعو عبد الجليل، بعد موته بالطاعون وكانت مراسيم الإحياء " مضى إلى موضع مفرد ، وجثا على ركبتيه ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى أن يحقق صدق عقيدته ، وافتتح الباب ثم خرج ، وألقى نفسه على جثة الميت وجعل فمه في أذنه وهو يناديه قائلا ، يا عبد الجليل (اسم الميت) انني أدعوك باسم المسيح ابن الله لأن تعود من ظلمة الموت إلى نور الحياة ، ثم أوصى لسمع الجواب فلم يجبه أحد ، غير القسيس ركعته بأن جعل فمه بين فخذيه وهو يجمع في الدعاء وذلك على منوال النبي الياس حين صلى لإنزال المطر ، بعد قتل أنبيا ، بعل إلى قوله : " ولكن عبد الجليل بالسرع من تكرار دعا القسيس ، فإنه لم تعد روحه إليه وهو لم يعطس كما عطس ابن المرأة الذي أحياه النبي المشع على ما ذكر في الفصل الرابع من سفر الطوك الثاني . " (١) حيث استنفذ القسيس كل الوسائل ، حتى الشوربة صنعها للميت ، وجعل يضع منها في فمه ، والميت مشغول عنه .

ملخص قصة رابليه

" قتل ابستمون في معركة ، ووجد مقطوع الرأس ، ورأسه بين كفيه ، فدعا بانورج أصحابه أن يساعده في حمل الجثة ، وأخبرهم أنه سيعمد إلى إحيائه ، ثم قام ففسل عنق القتل بالنبيذ الأبيض ، ثم رش مسحوقا من الأعشاب ودعك به الرقبة ، وركب الرأس على العنق ، والوريد على الوريد ، والعصب مع العصب ، والفقرة مع الفقرة ، وهذه الدققة كي لا يشكو الميت من آلام التشنج بعد بعثه ، ثم خاط الجلد ودهنه بعرق البعوض فبدأ الميت يتنفس ، ثم فتح عينيه وعطس . . . " (٢)

القدر المشترك بين رابليه والشديساق في هاتين القصتين ، هو الأسلوب الساخر المتبهك ، يقول عماد الصلح " وإنك لتحار أيهما كان أكثر سخرية ، وأشد إيلاما ووخزا ، رابليه

(١) الساق على الساق ، ص ٣٦٢ - ٣٦٨ .

(٢) عماد الصلح ، أحمد فارس الشديساق ، ص ١٨٧ .

الذي أقام صاحبه، أم الشدياق الذي عجز قسيسه عن بيعت عبد الجليل. (١) وتجد عند الطرفين ملامح سخيرة بارزة، أكثرها إضحكا، إصرار بانوج أن يركب الوريد بالوريد والعصب مع العصب، حتى لا يتألم الميت بعد إحيائه من تشنج الرقبة، وأكثر ما يضحك في قصة الشدياق، أن القسيس عندما لم يجد فائدة من مناداة عبد الجليل في أذنيه نقل الجمجمة والدعاء والنداء بين فخذيه، فإذا ما أضيف إلى ذلك إصراره على إحيائه ولجؤته إلى الشورية، تكتمل الصورة الساخرة، وقد وظفت هذه السخيرة عند الطرفين لتعكس عدم إيمانها بالكرامات والمعجزات، وقد ذكر الشدياق ذلك مباشرة عند سرده ما كان مع النبي الياس، بينما اعتمد رابليه على فطنة القاري، ودون أن يعيده إلى مصدر قصته كما فعل الشدياق، وقد شارك فولتير الاثنين فسرد قصة إحياء يسوعي لأسيرة كونيفوند بعد أن قتلهم البلغار فيقول على لسان شقيق كونيفوند "وبرش يسوعي ما مقدسا علينا، وكان مطحا إلى النهاية، ويدخل بضع قطرات منه في عيني، ويصر الأب حركة صغيرة في جفني، ويضع يده على قلبي، ويشعر بأنه يخفق وأضعف، وتمضي ثلاثة أسابيع فأظهر كأنني لم يطرأ علي شيء". (٢)

العلاقة الفكرية بين الشدياق والأرب الغربي

يلمس قاري الشدياق، أنه كان مطلعا على نتاج أقطاب الفكر الفرنسي، فولتير ورسو، أما فولتير فقد استشهد بأقوال كثيرة له في كتبه، وخاصة كتاب "كشف المخبيات" (٣) ويبدو تأثيره برسو في بعض المواضع والأفكار، وإن لم يصرح بذلك، وليس شرطا أن تكون هذه العلاقة وهذا التأثير، بفعل اطلاع الشدياق على آثار الغربيين فحسب، وإنما قد تكون ناتجة عن تشابه ظروفه الخاصة وظروف المجتمع الذي نشأ فيه، مع ظروف أوروبا في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث عانى الشدياق طفولة قلقة في المحيط السياسي، الذي اكتنف أسرته المتنقلة بين الجبال والساحل، بالإضافة إلى الظروف الدينية، التي فجرت في داخله بركان ثورة عارمة على رجال الدين، واثمر مقتل أخيه

(١) عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق، ص ١٨٨.

(٢) كديد، ص ٨٧.

(٣) أنظر كشف المخبيات، ص ٨٥، ٨٨، ١٦٠، ٢١٣، ٢٢٩، ٢٧٩.

أسعد ، هذه الظروف والتقلبات عانى منها فولتير (١) ، الذي " حمل حملة شعواء " على الاستعباد والتعصب الديني وسلطان الكيروس . " (٢) وقد قام الشدياق بنفسه بحملة مشابهة ، طالبا من خلالها ضرورة القيام بالإصلاح السياسي (٣) ، أما روسو فقد خالف الاثنين ، وكان يطلب تجديد المجتمع والدولة تجديدا كليا (٤) ، ولوضوح اليد على هذه القرابة والوشائج بين الشدياق من جهة ، وفولتير وروسو من جهة أخرى فقد طمست بعضها في " العقد الاجتماعي " لروسو ، وقصتي كنديد والقدر لفولتير ، فوجدت ملامح قرابة قوية بينهما وبين الشدياق .

الدين والسياسة

يقول عادل زعيتر في مقدمة " كنديد " لفولتير كان الدين أظهر ما عني به فولتير وإن بحث في السياسة . " (٥) ولكن الدين والسياسة كانا على قدر واحد من الأهمية عند الشدياق حيث عني بهما عناية بارزة (٦) ، ففي الدين كانت سخريته من رجال الدين وسلوكاتهم محورا بارزا من المحاور التي دار حولها " الساق على الساق " (٧) وتعددت المواضع والحالات التي تم فيها ذلك ، ولم يسلم رجال الدين من سخرية فولتير فيقول : " وكان قس القرية كاهنه الأكبر ، وكان الجميع يدعونه مولانا ، فيضحكون من قصصه . " (٨) وإن كان كلام القسيس محور سخرية فولتير ، فإن هذا جانب من الجوانب

-
- (١) انظر الساق على الساق ، ص ٦٢ .
 - (٢) كنديد ، ص ١٠ .
 - (٣) انظر البحث ، ص ٤٦ — ٥٥ .
 - (٤) كنديد ، ص ١٦ . الإشارة لعادل زعيتر في المقدمة .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
 - (٦) انظر البحث ، ص ٤٢ — ٥٠ .
 - (٧) انظر البحث ، ص ٤٢ — ٥٠ .
 - (٨) كنديد ، ص ٢٢ .

الكثيرة التي سخر منها الشدياق في رجال الدين ، وقد برز هذا الجانب واضحا فسي
سخرته من كلامهم الركيك وخطبهم وتأليفهم (١) ، كما أشار إلى فسادهم في مواضع
مختلفة ، وخاصة فيما يتعلق بحبهم للمال ، بغض النظر عن مصدره ، ودأبهم على انتهاك
الحرمان ، وصلاتهم غير المشروعة بالنساء (٢) ، وأشار فولتير إلى السلبات ذاتها في
رجال الدين ، وهو يتحدث عن نموذج منهم ، هو أب فرنسي ، قام بسرقة مال كنديس
وكونيغوند (٣) ، وفي موضع آخر عَم فولتير حكمه ، عندما تحدث عن تحكم الآباء اليسوعيين
في مقدرات الشعوب وأقواتهم في البرغواي وغيرها فيقول : "والآن يزيد قطر المملكة
على ثلاثمائة فرسخ وهي مقسمة إلى ثلاثين مديرية ، ويملك الآباء اليسوعيون فيها كل شيء"
ولا يملك الشعب شيئا . (٤) والشدياق مثله في هذا الاستياء من هذا الوضع
فيقول : "فإن لبطرك الطائفة المارونية دخلا له وقع عظيم وقدر جسيم . (٥) ولهم
هذا فحسب بل الفلاح غرض من أغراض رجال الدين ، وعصا واهنة يتكئون عليها (٦)
في الدين نفسه دعا فولتير إلى الدين الطبيعي ، ورفض التعصب الديني والطائفي
ومن هذا المنطلق كان شديد الإعجاب بأهل الدورادو الذين يرفضون أن يكون لهم
قساوسة ورهبان ، حيث يعبد الجميع الله ويشكرونه بالغريرة والفطرة (٧) ، ودعا الشدياق
مثل هذه الدعوة ، إذ يرى أن الإنسان تهديه غريزته إلى ما يلائمه ، وذلك في معرض
تهجعه على رجال الدين الذين يتدخلون في عقائد الناس ولباسهم (٨) ، ويرفض الألقاب
الدينية رفضا صريحا فيقول : "إن الإنسان من أصل الفطرة ليس له هنة ولا جليلة . (٩)
وتأكيد الإيمان بالدين الطبيعي ، لا يرى مانعا من ممارسة ذلك في العلاقات الإنسانية
كأن يتزوج "زيد" بهند في سهل أو على قنة جبل أو في كهف في يوم الأحد أو الاثنين

(١) انظر الساق على الساق ص ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٤ ، ٢٢٦ .

(٢) انظر البحث ، ص ٤٢ — ٤٦ .

(٣) كنديد ، ص ٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٥) الساق على الساق ، ص ٨٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٧) انظر كنديد ، ص ١٠٦ . رفض التعصب الديني والطائفي في كنديد فقط .

(٨) انظر الساق على الساق ، ص ٢٠٩ ، ٢٨٨ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ .

أو السبب (١) * رافضا القيود الدينية ، وقد شارك رسو الشدياق وفولتير في ذلك فيقول في العقد الاجتماعي : " ان يعتقد كل مواطن دينا يحبه بواجباته ، ولكن معتقدات هذا الدين لا تهم الدولة ولا أعضاؤها ، إلا بمقدار ارتباطها بالأخلاق والواجبات المترتبة على معتقها تجاه الآخرين . " (٢) وفي الإطارات أراء فولتير أن يؤكد أن كسل الأديان تغضي إلى عبادة الله واحد (٣) ، ورأى أهمية ذلك في تدعيم الأخوة الإنسانية واتفق رسو والشدياق على أهمية الدين من الناحية الخلقية ، فهو عند رسو " يشبه الضمير الأخلاقي ، ويرسخ الإنسان في الإطلاع بواجبه . " (٤) وعند الشدياق أن الدين إذا كان لا بد منه ، فهو الرقيب على الإنسان ، إذ القانون غير حاضر في كل الأوقات والأحوال . (٥)

لمح فولتير إلى فساد رجال القضاة ، عندما تحدث عن اقتسام قاض وتاجر يهودي أيام الأسبوع يقضيانها مع كونينغوند رغما عنها (٦) ، وتحدث عن مساوي القضاة ذاته ويطئه الشديد في البت في القضايا استنزافاً لأموال الناس . (٧) ، وقد أشار الشدياق إلى مثل ذلك في القوانين الإنجليزية ، في معرض حديثه عن عيوبها وشغراتها فقال : " قد تستمر بعض الدعاوى ، التي تستدعي فيها دهائ الفقهاء خمسين سنة فأكثر ، ومرة صرف على دعوى رجل اسمه بالمر ، سبعة آلاف وخمسمائة واثنان وثلاثون ليرة . " (٨) وانتقد بشدة القوانين والأحكام عند العرب أيضا ، وتسخيرهما لصالح الأقوياء ضد الضعفاء . (٩)

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٢٧٧ .
 - (٢) جان جاك روسو ، العقد الاجتماعي ، ترجمة زوقان قرقوط ، بيروت ، ص ٢١١ .
 - (٣) انظر فولتير ، القدر ، ترجمة طه حسين ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٧٥ .
 - (٤) العقد الاجتماعي ، ص ٢٢ .
 - (٥) انظر كشف المخبا ، ص ٢٧٣ ، انظر أيضا البحث ، ص ٤٥ .
 - (٦) انظر كنديد ، ص ٥٢ - ٥٦ .
 - (٧) انظر القدر ، ص ٨٤ ، ٨٥ .
 - (٨) كشف المخبا ، ص ١٤٢ .
 - (٩) انظر الساق على الساق ، ص ٢١١ .

أعجب فولتير بالديمقراطية عند أهل الدورادو ، حيث لا قضا ولا محاكمات ولا سجون (١) ، ومن المنطلق ذاته أعجب ببعض الجوانب الديمقراطية في القانون الإنجليزي فقال : " إن أميرة البالغ القدرة على صنع الخير مقيد اليدين في صنع الشر " (٢) وأشار الشدياق بأخلاق ملوك الإنجليز والتزامهم بالقانون ، وإخلاصهم بالعمل بما فيه النفع العام ، حتى لو كان ذلك على حساب راحتهم (٣) ، وأعجب أيضا بالتزام كل في تخصصه فيقول في هذا الصدر : " فإن ناظر الأمور الخارجية عندهم مثلا ، ليس له حق في أن يدق على ناظر الأمور الداخلية في شيء " وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بأن يحكم على أحد الباعة بشيء " من محراب صرحه " (٤) ويتعنى أن تطبق الديمقراطية والالتزام بالتخصص في بلاده فيقول : " فإليت شعري متى نصير نحن ولسند آدم بشرا كهؤلاء البشر ، ومتى نصرف الحقوق الواجبة لنا وعليها " (٥) وقد أعجب إعجاب فولتير بالتسامح الديني عند الإنجليز (٦) ، وشاركهما رسو في الدعوة إلى التسامح الديني ، ولكنه اختلف عنهما بأن قيده بشروط حيث يقول : " ينبغي التسامح مع جميع الأديان التي تتسامح مع غيرها " (٧)

الحرية والمسؤولية

تحتل العبودية مساحة كبيرة من اهتمام الشدياق ، وفولتير ، ورسو ، ولم يكن هذا الاهتمام مقصورا على إقليم معين بل امتد ليشمل مختلف بقاع الكرة الأرضية ، فقد صورها فولتير تصويرا بشعا عند الحديث عن قصة المعجوز ، التي وقعت في صباها تحت نسيير الرق في أماكن متعددة (٨) ، وصورها تصويرا أكثر بشاعة عند حديثه عن الزنجي الذي

-
- (١) انظر كديد ، ص ١٠٨ .
 - (٢) المرجع نفسه ص ١٠ .
 - (٣) انظر كشف المخبا ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
 - (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، انظر أيضا الواسطة ص ٢١٣ .
 - (٧) انظر أيضا كديد ، ص ١٦ .
 - (٨) العقد الاجتماعي ، ص ٢١٣ .
 - (٩) انظر كديد ، ص ٧٢ .

قطعت يده ورجله من قبل سيده الذي يسخره للعمل مع مجموعة من الزوج فـــــــي مصنع للسكر (١) ، ويعلن فولتير رفضه الصارخ للمعبودية والعنصرية من خلال رد الزنجي على كنديد بعد أن عرف الثاني قصته ، حيث يستنكر هذا الزنجي عنصرية اللون ، مفيداً بأن الناس كلهم أبناء آدم ، ولا فرق بين أبيض وأسود ، رافضاً معاملة الهولنديين البيض السيئة للزوج (٢) ، وقد كرس الشدياق جهده لمحاربة المعبودية والعنصرية بأشكالها المختلفة فهاجم المعبودية في أمريكا والأستانة ، وطالب بالحرية للإنسان ، بفض النظر عن لونه وجنسه وموطنه (٣) ، وأعلن رسو رفضه لهذه المظاهر أيضاً فقال : " إن حق الاستعباد من أيّة زاوية نظرنا إلى الامور ، حق باطل " (٤) ، وأراد الثلاثة المساواة بين الناس ، فرفض فولتير الطبقة لأنها تحول دون الروابط الانسانية (٥) ، ورفضها الشدياق داعياً الكبراء إلى تجاوز هذه العقدة ، والتعامل مع الفقراء على أساس الأخوة الانسانية " لان رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الأمير " (٦) ، وكان أقرب إلى رسو فيما يتعلق بالمساواة ، حيث رأى رسو أن المساواة لا يجب أن يفهم منها : " أن تكون درجات القوة والثراء هي نفسها بصورة مطلقة " (٧) ، وتطابق معه قول الشدياق ، عندما رأى أن " وجود الغنى والفقر في الدنيا لا بد منه ، كوجود الجميل والقبيح " (٨) ، وتركز رفضه للفقر المدقع الذي يلقى الهموم والأحزان الدائمة في قلب صاحبه " فيفضي به مرة إلى الانتحار ومرة إلى الإغراق أو الخنق " (٩) ، وقد رفض رسو الفقر ذاته الذي يصل إلى درجة أن يضطر الإنسان إلى " بيع نفسه " (١٠)

-
- (١) انظر كنديد ، ص ١١٣ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٤ .
 - (٣) انظر كنز الرغائب ، ١/٦٧ - ٧٠ ، و ١/٨١ - ٨٣ . في بيع الرقيق في الأستانة .
 - (٤) العقد الاجتماعي ، ص ٤٥ .
 - (٥) انظر كنديد ، ص ٨٩ .
 - (٦) الساق على الساق ، ص ٤٧٤ .
 - (٧) العقد الاجتماعي ، ص ٩٧ .
 - (٨) الساق على الساق ، ص ٥٩٤ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .
 - (١٠) العقد الاجتماعي ، ص ٩٧ .

اشترك فولتير مع الشدياق في رؤية بعض القضايا ، ومنها أن الرجلين لــــم يحسنا الظن بالمرأة ، ولكنهما لم يقللا من شأنها ، وقد ظهر هذا في تصوير فولتير للغدلان المستمر لبطل قصته "القدر" بسبب نماذج مختلفة من النساء ، ومن هؤلاء "سمير" و "أزورا" حتى صاح البطل صادق ، طالبا العون من الفضيلة التي يتمسك بها دائما ، (١) ورأى الشدياق المرأة وراء كل المصائب التي تحدث في هذه الدنيا . (٢)

استغل فولتير " كنديد " ليصب غضبه على خصومه ، وتكررت هذه الظاهرة في قصته فتهاجم مثلا على خصمه فريرون وصوره حسودا ، ناقص العلم والفضيلة ، وأنه من أفاعــــي الأرب (٣) ، وقام الشدياق بخطوات معاكسة ، فصب جام غضبه في " الساق على الساق " على خصومه ، ومنهم العطران اثنا سيسوس التوتنجي ، والبطريك يوسف جيش (٤) .

رأى الطرفان أن الرهبانية نوع من البطالة ، فقد قال راهب فولتير جيرفلسه في قصة " كنديد " : " قد الزني والدي وأنا في الخامسة عشرة من سني ، أن ألبس هذه الحلة البغيضة ، تركا لمال أوفر لأخي اللعين الأكبر ، الذي أدعوا الله أن يخزيه ويهم الحسد والشقاق والغيبظ بالدير ، وأقوم ببعض المواعظ السيئة ، فأنا لها مالا ، يسرق رئيس الدير مني نصفه . " (٥) ويقول راهب الشدياق " لو كنت عرفت من قبل ما أصبح اليه لما سلكت هذه الطريقة ، غير أن أبي وأمي فقيران ، وخشيا أن أكون من ذوي البطالة والتعطل فزينا لي الرهبانية . " (٦) ولم يكن حال هذا الراهب مع رهبان الدير ورؤسائه أحسن حالا من راهب فولتير ، ف رئيس راهب الشدياق " بينه وبين رؤسائه

-
- (١) انظر القدر ، ص ١٩ - ٢٦ .
 - (٢) انظر الساق على الساق ، ص ٣٢ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ٢٧٩ . كشفت الرسائل المتبادلة بين الشدياق وأخيه طنوس عن خيانة زوجة الشدياق ، وقد طلقها ثم بنى بها إنجليزية . انظر عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ٦١ ، ٦٢ .
 - (٣) انظر كنديد ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، فريرون : كاتب قسا على فولتير في مقالات كثيرة .
 - (٤) انظر الساق على الساق ، ص ٢٢٦ . انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
 - (٥) كنديد ، ص ١٥٧ .
 - (٦) الساق على الساق ، ص ١٣٨ ، انظر البحر المستفيض ، ص ٤٤ .

الأديبه الأخرى من الحسد والenvie ما بين وزراء الدول . . (١) وأما الرهبان أنفسهم فبينهم " من الخصام والطعن والحقن ما لا يوجد عند غيرهم " . (٢)

الشدياق والرومانتيكية

من الطبيعي أن الحضارات تؤثر وتتأثر ، وأن الفكر الانساني تراث مباح للإنسانية وقد كان لقاء العرب بأوروبا في القرون الوسطى ذاتاثير واضح في الفكر والحضارة الأوروبية وفي القرن التاسع عشر ، حدث لقاء عربي بالحضارة الغربية ، وتأثر الفكر والحضارة العربية بحضارة الغرب ، (٣) ، والشدياق الذي عاش ثلث عمره - وهو في مرحلة النضوج - في أوروبا ، وتعامل مع أدبائها ، وأطل على آدابها من نافذة واسعة ، بعد أن طسك المفتاح ، المتمثل في معرفته باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، كان كل ذلك كفيلا بأن يتسرك أثره على أدبه وفكره ، خاصة وأن الزمن الذي عاش فيه في أوروبا ، هو زمن أفكار الثورة الفرنسية ، وانتشار مبادئها ، وعصر الثورة الصناعية وما أفرزته من طبقة ، وعصر القوميات والتحرر ، كل هذه العوامل مجتمعة لفسها الشدياق بحس الأديب ، من خلال الأدب الغربي ومذاهبه الأدبية ، فإذا ما أضيف إلى ذلك ، أن التراث الانساني مباح لكل الشعوب وأن تراث هذه الشعوب يؤثر ويتأثر ، ويعطي ويأخذ ، فلا غرابة والحالة هذه أن يتأثر الشدياق بالمذهب الرومانتيكي ، الذي ساد أوروبا في القرن الثامن عشر ، وقوى فسي القرن التاسع عشر .

من العلامح البارزة للرومانتيكية " حب الرومانتيكيين وعطفهم على الضعفاء البائسين . . . وسخطهم واستهتارهم بممثلي السلطان في مجتمعهم ، من ملوك وقسوس وحكام وقضاة " . (٤)

(١) الساق على الساق ، ص ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣) انظر مدخل البحث ، ص ٥ - ٢٥ .

(٤) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، بيروت ، دار العودة ، ص ١٤٠ .

ويلمس قارى " الساق على الساق " خاصة ، وبقية أعمال الشدياق الأدبية . هذا الأثر بارزا ، فقد هاجم الحكام في الأقاليم المختلفة ، وهاجم تسلط الاتراك على المغرب كما هاجم القضاة ورجال الدين بجرأة نادرة ، وقد ظهر هذا الهجوم على رجال الدين والسلطة في قول واحد من أقواله : " والظاهر أن سادتنا رجال الدين والدنيا لا يريدون لرعيهم أن يتفقهوا أو يتفقهوا بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين في مهامهم الجهنم " (١) . وهاجم ممثل الحاكم في لبنان فاتمه بالجهل والغبا . (٢) ، وانتقد أسلوب الحكم والقضاة والاحكام المزاجية (٣) ، وأما رجال الدين فقد سلط عليهم الأضواء فكشف سلباتهم ، ورأى أنهم معوقون للحرية ، وذلك بتدخلهم الدائم في حياة الناس الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فوضع يد القاري على هذه العلل التي تعوق مسيرة الانسان والمجتمعات (٤) ، وظهر عطفه على البائسين من خلال رثائه لحال الفلاحين في بلاد الشام وفي بلاد الانجليز ، وهزه الفقر في لندن ، وتحدث عن مظاهره متأثرا بالغ ، يتلامس إلى حد كبير مع حذب الرومانتيكيين على الفقراء والبائسين (٥) ، وإذا كان الرومانتيكيون يؤمنون " بضرورة العقيدة للجنس البشري : أياما تكن هذه العقيدة " (٦) فقد اشترك الشدياق وفولتير ورسو في الدعوة إلى حرية الأديان ، واتفق الشدياق ورسو على الضرورة الخلقية والاجتماعية للأديان ، كما التقى الشدياق وفولتير بالدعوة إلى الدين الطبيعي (٧) ومن هذا المنطلق ، كان إعجاب الشدياق شديدا بحرية الأديان في بلاد الانجليز (٨) ، ومن المنطلق ذاته " فتح باب التأويل فسي

-
- (١) الساق على الساق ، ص ٨٤ ، انظر أيضا البحث ، الأحوال الاجتماعية والثقافية والدينية ، ص ٢٩ - ٤٦ ، حيث سبقت الإشارة إلى ذلك بالتفصيل .
- (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٤ .
- (٤) انظر البحث ، ص ٤٢ - ٤٦ ، حيث سبقت الإشارة إلى ذلك .
- (٥) انظر الساق على الساق ، ص ٥٩١ - ٥٩٨ . انظر أيضا الكشف ، ص ١٧٥ ، ٣٧٢ .
- (٦) الرومانتيكية ، ص ١٦٥ .
- (٧) سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الدين والمساواة ، انظر البحث ، ص ١٥٠ .
- (٨) انظر كشف المخبا ، ص ١٩٥ ، حيث قال " يذهب الإنجليز إلى السماء من أي طريق يشاء " .

الدين تأويلاً حراً. (١) وهذا من ملامح الرومانتيكية، التي تتسم بالجرأة فـي البحث، وتجاوز حدود الموروث في العقيدة، ودون الوقوف عند حد النصوص الشرعية (٢) وهذه الجرأة الغربية للرومانتيكية مثلة في الشدياق، هي ثمرة القلق الروحي التي كانت لها صفات مشتركة في كل مكان. (٣) ونتيجة لمثل هذا القلق ترمد الشدياق على الموروث الماروني الكاثوليكي وتتبع المروتستانتية، وربما كان تحوله إلى الاسلام ثمرة لهذا القلق، الذي يدفع صاحبه دائماً للبحث عن الراحة والخلاص.

اتجه الرومانتيكيون اتجاهها يدعو إلى إزالة الفقر، وكرسوا أعمالهم الأدبية يدافعون عن هذا المنهج الإنساني، وخاصة بعد عام ١٨٦٢م، ممثلين في فكتور هوجو — الذي كتب تحقيقاً لهذا الغرض — البؤس سنة ١٨٦٢م، وعمال البحر سنة ١٨٦٦م، والرجل الذي يضحك سنة ١٨٦٩م. (٤) وكان الشدياق في هذه المدة في أوروبا، لذلك رافع عن فقراء الشرق والغرب على السواء، (٥) وصور حالتهم البائسة وأولى "مشكلة الطبقات في أوروبا والشرق اهتماماً كبيراً". (٦) إذ وصف الطبقات الخمس في بلاد الانجليز، وبين الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية بينها. (٧) ولكنه لم يسبر أغوار هذه الآفات ولم يضع الحلول لمشاكل الاستغلال والفقر، وكل الذي فعله، دعوة إنسانية للأغنياء أن ينفقوا إلى جانب الفقراء، (٨) ولا تستبعد نازك سابا يارد أن يكون الشدياق فـي في كل هذه الدعوات، قد تأثر بالمناخ الفكري الذي كان سائداً في أوروبا، حيث كانت الحركة الرومانتيكية في أوج قوتها. (٩) ومن أجل هذا الغرض الإنساني هاجم

-
- (١) الرحالون العرب وحضارة الغرب، ص ١٥٢، انظر أيضاً بهذا الصدرة قصة أسعد الشدياق، الساق على الساق، ص ١٨٢ - ١٨٩.
 - (٢) الرومانتيكية، ص ١٥٤.
 - (٣) انظر، آرنست فيشر، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، مصر ١٩٧١، ص ٧٤.
 - (٤) انظر، ف. ل. سولنبي، الرومنطيقية في الأدب الفرنسي، ترجمة أحمد دمشقي، بيروت، الطبعة الأولى، يوليو ١٩٦٠، ص ٦٩.
 - (٥) انظر الساق على الساق، ص ١٢٠.
 - (٦) الرحالون العرب وحضارة الغرب، ص ١٥٤.
 - (٧) انظر كشف المخبا، ص ١١٥ - ١١٧، انظر أيضاً الساق على الساق، ص ٥٩١ - ٥٩٦.
 - (٨) انظر الساق على الساق، ص ٥٩٢.
 - (٩) انظر الرحالون العرب وحضارة الغرب، ص ٤٤.

الشدياق السلطتين الدينية والزمنية وبين آفاتهما: (١)، وبين أن كل معاناة الفقراء جاءت نتيجة لرجعيتهما، وربما كان ذلك صدى لآراء رسو في العقد الاجتماعي، (٢) إذ دعا الشدياق دعوة مشابهة للأخوة بين البشر قائلاً: "كونوا يا عباد الله إخواناً، فإنكم من أب واحد وأم واحدة". (٣) ويريد من الناس مشاركة ومفارقة، أن يروا في بعضهم أهلاً وإخواناً. (٤) وقد نادى بالدعوة ذاتها تولستوى. (٥)

وفي الأسلوب الرومانتيكي قال فكتور هوجو، إنه انعتاق من الصنعة وتحرر من الشخصية، وذلك لأن العبقرية تحتقر العمل والصنعة وتبدع صوراً تلقائية، مما يجعل العمل الأدبي ذا طابع عقلي. (٦) والشدياق رائد عربي في هذا المجال، حيث دعا إلى الانعتاق من الصنعة، وهاجم الأسلوب التقليدي في التأليف، وطبق هذه الثورة على نفسه أولاً، وقد جاء "الساق على الساق" خير دليل على ذلك، وفي شكله الأدبي وأسلوبه، ومن المنطلق ذاته هاجم الشعراء وأغراضهم، والخطباء وخطبهم، والمؤلفين ومؤلفاتهم. (٧) وطبق على نفسه أولاً كل هذه الدعوات، وأثبت لنفسه الحرية التي "ترفض كل قيد وكل ارتباط". (٨) وأسلوبه في "الساق على الساق" ينطبق عليه الأسلوب الرومانتيكي عند الكاتب الواحد، فهو متغير "من عاطفي مؤثر، إلى ثوري قوي، ومن ساخر متهم، إلى هادي أليف". (٩) وهذه الطامح ربما تكون مصادفة، لوجاءت لمرة واحدة، ولكنها ظهرت مرات عديدة في الكتاب الواحد وهو "الساق على الساق".

-
- (١) انظر البحث، الأحوال السياسية والدينية، ص ٤٢ - ٥٠.
 - (٢) الرومانتيكية، ص ١٤١.
 - (٣) الساق على الساق، ص ٣٨٨.
 - (٤) انظر المصدر نفسه، ص ٣٩٠.
 - (٥) انظر ويليامز، ك.، وبعزات، وكليانت بروكس، النقد الأدبي، تاريخ موجز النقد الرومانتي، ترجمة حسام الخطيب، دمشق، ١٩٧٥، ٣/٦٦٤.
 - (٦) الرومانتيكية في الأدب الفرنسي، ص ٤٦.
 - (٧) انظر البحث، الأحوال الثقافية، ص ٢٩ - ٣٤.
 - (٨) ضرورة الفن، ص ٧٥.
 - (٩) الرومانتيكية، ص ٢٤٠.

الفصل الثالث

الشدياق والحضارة الغربية

- أولا : الأحوال الاجتماعية في أوروبا .
- ١ . الطبقات الاجتماعية .
 - ٢ . الأخلاق والعادات والتقاليد .
 - ٣ . المواسم والأعياد ، والأزباء والعلايس .
 - ٤ . العلاقات الاجتماعية والأسرة .
 - ٥ . المرأة .
- ثانيا : الدين والسياسة .
- ثالثا : الأحوال الاقتصادية .
- ١ . الصناعة .
 - ٢ . التجارة والزراعة .
- رابعا : الثقافة والعلوم والمخترعات .

الفصل الثالث

الشدياق والحضارة الغربية

يبدو أن طول المدة التي قضاها الشدياق في أوروبا ، وتحديدًا في بريطانيا وفرنسا ، بالإضافة إلى طبيعة الشدياق المتسمة بدقة الملاحظة ، والفضول الشديد جعلاه قادرًا على رصد لكثير من الملاحظات والظواهر في أوروبا ، لذلك جـاء "كشف المخبا" حافلاً بالكثير من وجهات النظر التي تتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية والدينية ، وقد صاحب العوامل السابقة رغبة شديدة من الشدياق في التعرف إلى كل غامض (١) ، وكان لانخراطه في الحياة الاجتماعية أثر كبير في التعرف إلى ظواهر غامضة تستعصي على الرؤية العابرة ، فلم يكن وجود الشدياق في أوروبا بعد إنهاؤه ترجمة الكتاب المقدس ذات صفة رسمية ، مما أتاح له حرية السفر والتنقل والتفاعل ، وخاصة بعد أن سافرت زوجته إلى استانبول وبقي وحده في أوروبا . (٢)

يمالغ الفصل الموسوم بـ "الشدياق والحضارة الغربية" ، الحياة الاجتماعية الأوروبية من حيث الطبقات ، والأخلاق والعادات والتقاليد ، كما يتعرض لعادات الزواج والجنائز والمعتقدات الخرافية ، والمواسم والأعياد والأزياء والملابس ، والمرافق والبيوت وقد تم إفراد عنوان منفصل عن المرأة وكل ما يتعلق بها ، وخاصة علاقتها بالرجل ، ثم الحديث عن الدين والسياسة وتناول مسألة الحرية والمساواة ، والنظم الإدارية ، والقوانين المدنية والشرعية ، ودور الدولة في التنظيم والمرافق ، وتم رصد ملاحظات الشدياق فيما يتعلق بالجيش والشرطة والأمن ، وملاحظاته في الأحوال الاقتصادية فسي مجالات الصناعة والتجارة والزراعة ، ومن ثم في مجالات الثقافة والعلوم والمخترعات وما يتصل بها من مدارس ، وجامعات ، ومكتبات ، وجمعيات علمية ، وقد كان الشدياق فسي كل ذلك يضع يد القارى على السلبيات والإيجابيات ، بعيداً عن الانبهار التام بالحضارة الغربية .

(١) انظر كشف المخبا ، ص ٢١٥-٢١٧ ، حيث أصر الشدياق أن يتعرف على التلفزيون بكل جزئياته بعد أن تقدم بطلب رسمي إلى مديره الذي رفض ذلك ، مما حدا به أن يكرر الطلب حتى وافقت الجمعية المسؤولة على طلبه .

(٢) انظر الساق على الساق ، ص ٦٤٧ .

الأحوال الاجتماعية في أوروبا

من أبرز ما عنى به الشدياق في أوروبا الأحوال الاجتماعية، وبخاصة الطبقات التي بنى عليها كثيرا من جوانب الحياة الاجتماعية، وقد انعكس التوزيع الطبقي على الأخلاق والعادات والتقاليد (١)، وعند الأوروبيين بعمامة، وعند الانجليز بخاصة.

الطبقات الاجتماعية

يكشف المتتبع لكلمات الشدياق، أنه كان شديد الاهتمام بالحياة الاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه، وقد وقف الشدياق في ملاحظات كثيرة عند الوضع الطبقي في أوروبا، وأفرد انجلترا بالاهتمام والتحليل في هذا الصدر، في حين لم يتوقف عند الظاهرة نفسها في المجتمع الفرنسي، ويرى الشدياق أن المجتمع الانجليزي آنذاك ينقسم "إلى خمس طبقات" (٢) هي: الطبقة الأولى، وتشمل الأمراء والوزراء والأشراف والنبل، وذوي المناصب السامية، ويلحق بهم الأساقفة. الطبقة الثانية، وتشمل الأعيان الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم، لا من معاطاة شغل أو حرفة.

الطبقة الثالثة، وتشمل العلماء والقضاة والفقهاء، ويلحق بهم القسيسون والتجار الكبار. الطبقة الرابعة، التجار أصحاب الدكاكين والكتّاب الذين يعيشون على الاحتراف. الطبقة الخامسة، أهل الحرف والصنائع والمعلمة والفلاحون وهم الجمهور الأكبر. ولا يظهر هذا التوزيع رقة الشدياق فحسب، ولكنه يكشف عن معرفته الجيدة بالمجتمع الإنجليزي كما يكشف عن معرفته لطبيعة العلاقة بين هذه الطبقات، فالطبقة الخاصة في بريطانيا "يتجنبون معايشة العامة ما أمكن، ولذلك سببان أحدهما وهو المشهور عند الناس، عظم الفرق الحاصل بين الغريقتين في الأطوار والأخلاق" (٣) ويحاول الشدياق أن يضع يده على الأسباب التي تكمن وراء هذه الطبقية، فيرى أن أحد الأسباب ترجع

(١) انظر الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث، ص ٩٨.

(٢) كشف المخبا، ص ١١٥ انظر التوزيع كاملا ص ١١٥-١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

إلى أن فاتحي الجزر البريطانية " إنما كانوا من فرنسا وشمالى أوروبا ، ومعلوم أن هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على الأرض ، وعلى المراتب والألقاب الشريفة . " (١) وهذه المعلومة التي طرحها الشدياق ، لها دلالتان ، الأولى : أن الطبقة عند الإنجليز قديمة ، والثانية : أن سكان البلاد الأصليين هم الذين يشكلون الطبقات الدنيا ، وظلت الطبقة الأولى محافظة على امتيازاتها وسماتها ، فهم " كالزيت لا يختلطون بغيرهم أنفة وتكبيرا . " (٢) وأما الأصل من أهل البلاد فهم " الحريون بأن يقال لهم بريتانيون أو إنجليز ، لكونهم بقوا على قديم شؤونهم وأطوارهم . " (٣)

يضع الشدياق يده على مظاهر اجتماعية نتجت عن هذا الوضع الطبقي ، الذي يظهر فيه التفاوت الكبير ، ومن هذه المظاهر ، أن هذه الطبقات لا تتزاج ، " فالتقنيات للفنانيين والمثلات للمثقلين " (٤) . ولذلك أيضا ، فإن الفقراء يهابون الأغنياء ، ويكرمونهم ، على عكس الفرنسيين فالفقراء أعداء الأغنياء (٥) . ويبدو أن الإنجليز قد ألفوا هذا الوضع ، فعندهم " كل ينحاز إلى شكله ونده . " (٦) بينما لم يستسلم الفرنسيون لذلك فهناك " تختلط الأكابر بالأصاغر . " (٧) والطبقة الأولى من الإنجليز لا يخالطون أحدا كما سلف القسول حتى في أماكن سكناهم فهم " يسكنون في حارات معلومة من المدينة . " (٨) وغالبا ما يكون ذلك في طرف لندن الشمالي ، أما الجنوبي فهو " مختص بأهل الضعة والخمول . " (٩) ويتجلى هذا التمايز الطبقي في الأرياف الإنجليزية ، فالنظام الإقطاعي هناك يؤثر على الأوضاع الاقتصادية ، وهذا النظام هو سبب " فرط فقر الفلاحين . " (١٠) الذين " لاحظ لهم في النهار الآ الشغل والعمل ، وفي الليل الرقود . " (١١) وفي كثير من الأحيان

(١) كشف المخبا ، ص ١٦٢ . ويعني بالفاتحين النورمانديون .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧١ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٣٧٢ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(١١) كنز الرغائب ، ١ / ١٩٣ .

تجد أعدادا من أهل الطبقة الدنيا "معطلين"، متترعين إلى ارتكاب كـ...
شـ... (١) وقد رصد الشدياق مجموعة من الآثار السلبية المترتبة على هذا التوزيع
الطبقي ومنها :-

أولا : "يعمد الفقراء والمعطلون في القرى إلى حرق أكدام القمح والشعير" (٢) وهو
بهذا الصدر يرصد المسبب وراء ذلك، فيفيد أن كل ذلك يحدث "تشفيا من مستأجرى
الأرض" (٣)

ثانيا : نهب الكنائس وسرقة البيوت (٤)

ثالثا : الدعارة التي تمارسها النساء الفقيرات من أهل القرى (٥)

رابعا : الموت من الجوع أو البرد ، أو النوم على الأماكن القذرة (٦)

خامسا : ترك الأهلين من الفقراء أولادهم من شدة الإملاق (٧)

سادسا : الهجرة من البلاد ، حيث يهاجر من بلاد الانجليز في السنة " مليونان
وخمسمائة ألف " (٨)

وينسحب الشقاء أحيانا ، على أهل الطبقة الرابعة من التجار فهم "على غناهم وثروتهم
فإن أحدهم يقضي النهار كله ، وهزيعا من الليل واقفا على قدميه" (٩) ومثلهم
الصناع من الطبقة الخامسة ، وفي المحصلة النهائية ، يرى الشدياق أنه "لا فقيرو
أشقى من فقير لندرة ، كما أنه لا غني أترف من غنيها" (١٠) وفي الأرياف ، فالفلاحون
هم "أشقى خلق الله" (١١) ، والفقراء في المدينة والأرياف يعانون من الأوضـاع
الاقتصادية السيئة ، وفي لندن أفاد الشدياق أن "مئة وثمانين نفسا ما بين رجل

(١) كشف المخبأ ، ص ٨٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٦

(٥) الساق على الساق ، ص ٥٥١

(٦) كشف المخبأ ، ص ٧٦

(٧) المصدر نفسه ، ص ٧٦

(٨) المصدر نفسه ، ص ٨٢

(٩) الساق على الساق ، ص ٥٩٦

(١٠) كشف المخبأ ، ص ٣٧٢

(١١) الساق على الساق ، ص ٥٩١

وامرأة وولد ، يسكنون في أربع وثلاثين حجرة ، وفي حجرة أخرى رجلان مع امرأتهم وأرملتان ، وثلاث بنات ، ورجل عزب ، وثلاثة أولاد ، فحطبتهم أربعة عشر نفسا ، تبسّوات كل عيلة زاوية من الحجرة .^(١) وينحي باللائمة على الأغنياء الذين " تعبّد موائدهم بما عليها من الأطعمة الفاخرة ."^(٢) حتى أن كلابهم " تنه على كثير ممن بني آدم ممن يتضورون جوعا ."^(٣) فقد تقرر عند هؤلاء الأغنياء أن " التصدق على الفقراء يحطّهم على الكسل والتواني ، فما يعمطون فقيرا إذا مروا به ، ولو كسّر عرياناً ."^(٤) كما يحمل الدولة والكنيسة مسؤولية هذا الوضع الذي قام أساسا على التفاوت الطبقي ، وغالب بانهائلهما يترتب عليه من السفاح والعهر على حـد تعبّيره^(٥) ، وهو بهذا الصدّد بينه الأغنياء ، ويذكر الفقراء بأن " حاجة الغني إلى الفقير أشد من حاجة الفقير إلى الغني ."^(٦)

لم تشغل الشدائد قضية الطبقات الاجتماعية في فرنسا كثيرا ، ولكنّه أوحى للقاري ، بوجود بعض التفاوت الطبقي هناك ، ففي حديثه عن أهل مرسيليا قال : إن أهل هذه المدينة " يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة تناب محـلا خاصا بها ."^(٧) وأوحى بوجود أكابر وأصاغر ، فقراء وأغنياء^(٨) ، ولكن طبيعـة العلاقة بين هذه الطبقات ، تختلف عنها في بلاد الإنجليز كثيرا ، فالاختـلاط بين هذه الطبقات موجود ، بالإضافة إلى أن فقراء فرنسا ، أجزأ على أغنيائهم من فقراء الإنجليز^(٩) ويعود الفضل في ذلك للشورة الفرنسية التي ساوت بين الطبقات بينما بقي الوضع على حاله في إنجلترا ، لذلك فإن زائر فرنسا يرى الخاصة منهم والعامة يتمشون في الحدائق والفياض ومواضع الفرج والغنا ، حتى يظن أن أهـل

(١) كشف المخبا ، ص ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(٥) انظر الساق على الساق ، ص ٥٩٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩٢ .

(٧) كشف المخبا ، ص ٦٩ .

(٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

باريس كلهم سباهلة .^(١) بينما يجتمع كبرا الإنجليز في نواديهم الخاصة ولا يدخل أحد إلى هذه النوادي، إلا إذا امتلك شهادة تؤكد انتماءه لطبقة الخاصة^(٢) بل وحتى الحقائق والغياب "مجمولة لخط الكبرا".^(٣) وعلى العموم فإن العدالة الاجتماعية معدومة في بلاد الإنجليز، سواء في القرى أو المدن^(٤)، بالإضافة إلى انعدام التراحم بين هذه الطبقات، مما يؤدي في المحصلة، إلى نقمة الطبقة الدنيا على الاستغلال البشع الذي تمارسه الطبقة الأولى، وهو بهذا الصدر يعيب على النظام الاقتصادي الذي يكرس مثل هذه الظواهر المترتبة على التمايز الطبقي^(٥)، حيث ربط بين الفقر عند الإنجليز، والنظام الاقتصادي المتبع، المبني على نظام الطبقات.

تحدث الشدياق عن فئة من المجتمع الإنجليزي، لم ينسبها إلى أية طبقة وهم النور والمعروفة عندهم باسم Gypsy ووصفهم بأنهم يعيشون عيشة النور فسي بلاد الشام، وليس لهم مقر معلوم للإقامة، ومصدر رزقهم السرقة وقراءة البخت، ويقال لشيخهم ملك، ولهم لسان خاص^(٦)، ونسأولهم جميلات جدا، حتى أن زوجة الدكتور لي الذي كان يعمل الشدياق معه في ترجمة الكتاب المقدس منهم، وقد وصفهم الشدياق بالدانة، ولذلك فإن الإنجليز لا يصاهرونهم ولا يجاورونهم.^(٧)

-
- (١) كشف المخبا، ص ٣٧٢، سباهلة : مفردا سبهلل أى مختالا غير مكترث فسي عمل دنيا ولا آخره، ويمشي سبهللا، إذا جاء وذهب في غير شي، انظر القاموس المحيط فصل السين باب اللام.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ص ٣٤١.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٣٦١.
- (٤) انظر المصدر نفسه، ص ٧٥ - ٧٦ - ٨٦ - ٨٧، انظر ايضا الساق على الساق ص ص ٥٩١ - ٥٩٤.
- (٥) انظر المصدر نفسه، ص ٣٧٢.
- (٦) انظر المصدر نفسه، ص ١١٢.
- (٧) انظر المصدر نفسه، ص ١١١ - ١١٢.

الأخلاق والعادات والتقاليد

ربط الشدياق أخلاق الإنجليز وعاداتهم وتقاليدهم ، بالطبقة التي ينتمون إليها في أكثر الأحيان ، وعمم بعض العادات على الإنجليز ، وتوسع في بعض الأحيان فعممها على الإفرنج ، وعقد مقارنات في هذا الصدد بين الإنجليز والفرنسيين ، وبين الإيجابي والسلبي من هذه العادات والأخلاق ، وقد لفت نظر الشدياق عند الإنجليز عامة عفة الأمانة " فهم حريصون على ما يؤمنون عليه . " (١) وتتمثل هذه الأمانة في أنهم قليلو الفضول " فلا يفتح أحدهم كتابا جاءه باسم آخر بل يبذل جهده في إيصاله إليه ، أو رده إلى المالك . " (٢) وتظهر هذه الأمانة في مصلحة سكة الحديد ويستشهد الشدياق على ذلك ، بأن رجلا " نسي كواغد مالية بمائة وست وخمسين ليرة ولما عرف اسمه ردت عليه . " (٣) وأثبت للإنجليز صفة الصدق ، وخاصة عند كبار المسؤولين فهم " لا يعدون بشي " لانهية لهم على وفائهم . " (٤) لذلك لا تجد عند الإنجليز عرقوب على حد تعبيره ، فهم " متى وعدوا لا بد أن ينجزوا فلا محال ولا مطال " (٥) ومن صفاتهم الخلقية الإيجابية أنهم " لا يقبلون المصانعة والرشا من أحد . " (٦) ومن طباعهم الحسنة أن " يشقوا بمن جربوا عليه الجد والاستقامة ، فيأتمنونه على زوجاتهم وبناتهم . " (٧) هذا بالإضافة إلى عزة النفس وصونها عن الإذلال (٨) ويحسد لهم رفقهم بالخدم (٩) ، ومن باب اعتزازهم بأنفسهم فانهم يعطون بدأب فسي

-
- | | |
|-------|--|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٥٤ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٥٤ . المولى : مكتب البريد ، انظر البحث ، ص ١١١ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٠٦ . كواغد ، تعني أوراق ، وهي كلمة تركية مفردة كلغد . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٥٣ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٥٣ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ١٥٤ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٥٨ . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٧٤ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٦ . |

شبابهم ليرتاحوا في شيخوختهم ، فلا يحتاجون للتسول أو ملازمة الملاجي* (١) ومن مظاهر رفقهم بالخدم ، أنهم لا يصرفون خادماً إلا بعد إشعاره بثلاثة أشهر (٢) ، وأما أشرف الانجليز ، فقد حمد لهم عدم استغلال مراكزهم ضد العامة ، ويفعل الفرنسيون ذلك (٣) ، والمحصلة فإن الانجليز " كل مشغول بهم ، ومهموم بشغله " (٤) ومن حسن أخلاقهم ، أنهم " لا يشمتون ويكرهون العبث والنكاي بالخصم " (٥) وقد فضّل الشدياق الانجليز على الإفرنج " فهم ذوو معاهد شهيرة ، وفضائل كثيرة ، ليست في غيرهم من الإفرنج " (٦) وساء من الفرنسيين بعض الصفات الخلقية منها أن " مودتهم يقطينية . . . لا تثبت أن تذوي ومواعيدهم عرقوبية ، طالما وعدوا وأخلفوا ، ومنوا فأزهدوا وحالفوا فحنثوا ، وعاهدوا فنكثوا ، يبهشون بالمغتربهم ويهشون ، ثم هو إن لازمهم ملوّه وإن غاب عنهم نسوه " (٧) وهم في كل ذلك مخالفون للإنجليز (٨) ، إلا أن هؤلاء أيضاً قد سجل لهم بعض السلبات كالطيش والنزق والبخل والفسق والكبر ومد الرجلين في وجه الجليس . (٩) وهو يدرك أن البلاد " التي تكثر فيها الفضائل ، تكثر فيها الرذائل " (١٠) لذلك كله لم يستغرب وجود السلبات في خلق الإفرنج عامة ، والإنجليز خاصة ، ولكنه إنصافاً لفئات المجتمع الإنجليزى لم يشأ أن يعمم أحكامه فنسب الفسق للأعيان في المدن (١١) ، والنزق والطيش لرجال الانجليز ، قبل أن يعرفوا الشخص الذى يتعاملون معه (١٢) ، وأما البخل ، فقد استثنى منه " المصلح " .

-
- | | |
|------|--------------------------------|
| (١) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٥٦ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٦ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٥ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٤٨ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٤٨ . |
| (٦) | الساق على الساق ، ص ٥٨٩ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٦٤٣ . |
| (٨) | انظر البحث ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ . |
| (٩) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٢٨ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ٥٢٨ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ٥٨٥ . |
| (١٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٥٤٨ . |

وذوى الحرف. (١) من الإنجليز، وعم هذه الصفة على البقية، حتى إنجليز مالطة (٢)، وفي صدر المقارنة بينهم وبين الفرنسيين، رأى أن الإنجليز يشكّل عام، أكرم من الفرنسيين (٣)، الذين يوجد فيهم البخل في كل شيء، ماعدا المراقص ويخلطهم مضروب به المثل (٤) على حد قوله، بينما تجد بين الإنجليز بعض الكرماء، وخاصة سكان الأرياف، فالواحد منهم قد "يدعوك إلى صرحه في الريف، فتقيم فيه الأسبوع والأسبوعين، وأنت الأمر الناهي". (٥) بينما يبخل عليك كبراً المدينة برد التحية (٦)، ومن هذا المنطلق استاء الشدياق من أهل الدار التي سكن فيها في كمبردج حيث "كانوا يشاركونه في طعامه، ولا يشركونه في لحمهم وشحمهم". (٧) ولكنه نفى عن الإنجليز صفة الكبر بفهومها السائد، فالكبر "في وجوههم، وأكثر منه في ألسنتهم وقلوبهم". (٨) ويشارك الإنجليز والفرنسيون في اهتمامهم بالألقاب، وإن كان الإنجليز أكثر حرصاً على ذلك، حيث لا يرون فضلاً للإنسان بدون اللقب (٩)، ومن هذا المنطلق فإن كبراً هم يحبون السمعة، فقد يتبرع الواحد لجمعية خيرية بمبلغ طائل ولا يرق قلبه لامرأة فقيرة حافية تحمل رضيعين، وذلك لأن الجمعيات تنشر أسماء المتبرعين بالصحف (١٠)، ومع أنهم أثرياء إلا أنهم لا يؤدون الدين في وقتهم ويماطلون في دفع الأجور، ويختلف الفرنسيون عنهم في هذه الصفة السيئة، حيث يدفعون ما عليهم عند وقته، أو قبل ذلك (١١)، وأثرياء الإنجليز وكبراً هم "ينفسرون من الرخيص وإن يكن نفيساً، ويتهافون على الغالي وإن يكن خسيساً". (١٢) وهذه

-
- | | |
|------|---|
| (١) | كشف المخبا، ص ٣٦٨. |
| (٢) | انظر الواسطة، ص ٧٦. |
| (٣) | انظر كشف المخبا، ص ١٨٥. |
| (٤) | انظر الساق على الساق، ص ٦٤٣. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ٥٢٢. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ٥٢٢. |
| (٧) | المصدر نفسه، ص ٥٤٨. |
| (٨) | كشف المخبا، ص ١٦٩. |
| (٩) | انظر المصدر نفسه، ص ١٦٣، والساق على الساق، ص ٦٣٢. |
| (١٠) | انظر المصدر نفسه، ص ١٦٩. |
| (١١) | انظر المصدر نفسه، ص ١٦٧، ١٦٨. |
| (١٢) | المصدر نفسه، ص ١٥٩. |

الصفة هي استكمال لحب الظهور والسمعة التي سبق ذكرها . ومع وضوح هذه الصفات السلبية ، للكبراء والأعيان من الانجليز للعامة ، إلا أن الناس يقدرونهم في مجمل العادات والتقاليد التي يبتدعونها ، وهذه الصفة عامة عند الإفرنج أيضا . (١) ويخلص الشدياق إلى حقيقة مفادها أن عامة الفرنسيين أفضل ، وأن خاصة الانجليز أجمل وأفضل . (٢) وخاصة في معاملة الغرباء ، حيث أن عامة الفرنسيين لا يسخرون من الغرباء إذا رأوه مخالفا في زيه وأطواره ، بخلاف سفلة لندن فإنهم يسلقونهم بالكلام . (٣) وأما خاصة الانجليز ، فمن صفاتهم : إطفائهم الغرباء بعد معرفتهم لهم . (٤) ويخالفهم أعيان الفرنسيين الذين استاء الشدياق منهم كثيرا ، حتى أولئك الذين حمل إليهم كتب توصية ومنهم لا مارتين ، وهؤلاء الخاصة لا يتنازلون لدعوة أحد إلى منازلهم . (٥) بينما يهتم الانجليز بمن يحمل إليهم كتب التوصية ، بشرط أن يظهر استغناءه عنهم (٦) وغير ذلك لا يهم الانجليز . إن كان جاره قاضي القضاة أو وزير الوزراء ، أو شرطيا أو جلوازا . (٧) وأما من يضطرون إلى معاملته ، فهم يحبون إضافته صفة عالية عليه ، خاصة إذا جاءهم من البلاد الأجنبية (٨) ، وغاية ما يريدونه من الغرباء أن يحسن التصرف ويسد الدين (٩) ، وهم على أية حال أفضل من الفرنسيين في هذا المجال ، حيث لا يتورع هؤلاء ، عن سرقة الغرباء وابتزازهم ، ومع ذلك يريدون منه أن يعدحهم ويظهرهم (١٠) ، والانجليز يحبون ذلك أيضا ، ولكنهم يحسنون معاملة الغرباء ، لذلك يسموهم أن يتركهم الغرباء وفي قلبه شيء عليهم (١١) ، ويستثنى من هذا الحكم على

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٢٢ . |
| (٢) | كشف المخبا ، ص ٢٩٣ . |
| (٣) | الساق على الساق ، ص ٦٤٠ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٥٤٨ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٤٢ . |
| (٦) | انظر كشف المخبا ، ص ١٥٨ . |
| (٧) | الساق على الساق ، ص ٥٨٩ . الجلواز : الشرطي ، انظر القاموس المحيط - فصل الجيم باب الزاي . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ٤٩٨ . |
| (٩) | انظر كشف المخبا ، ص ١٥٠ . |
| (١٠) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٣٩ . |
| (١١) | انظر كشف المخبا ، ص ١٦٩ . |

الانجليز كبرا* مدينة Bath وغالبيتهم من المتقاعدين العسكريين الكبار. (١)
يحمد الشدياق للإنجليز التوقيت الجيد للزيارة ، وفي الوقت ذاته بمسح
صراحتهم مع الزائر ، إذا كانوا غير مستعدين لها (٢) ، وقد يرافق الإنجليز زائرهم
زائره في كل الأحوال إلى الباب ، حتى عندما يطلب منه الإسراع في عرض حاجته
والفرنسي يفعل ذلك إشارة منه إلى عدم الملل من زائره (٣) ، ولكن الشدياق كره ممن
الإنجليز وخاعة أعيانهم عادة متبعة في الزيارة ، ورأى أنها مضيعة للوقت والمال ، ومفادها
أن يكتب الزائر اسمه على بطاقة يسلمها للخادم ، وهو بدوره يسلمها لسيدة (٤) ، وإذا
كان الإنجليز زائرا لا مزرورا فإنه " لا يمد يده ولا طرفه إلى ما بين يديك من الصحف
وإذا أراد أن يقرأ كتابا ، لم يلمسه إلا بعد أن يستأذنه " (٥) وقلة قصولهم تتعطل
في أن الزائر منهم إن رأى عندك امرأة أو نساء فلا يسأل شيئا عن ذلك (٦) ، وهم
على العموم يحبون الزيارة في وقت الضحى ، وتشتط الأعيان على الزائر أن يتخلل باللباس
الفاخر ، ويستهنون من الزائر الفضول في لمر العتاع (٧) ، ولا فرج عامة إذا زارهم
أحد ولد بهم مريض " فلا يترك مريضه ويقعد مع الزائر للسلام والكلام " (٨) وبالمقابل
فإن عابثهم أيضا ، لا يحبذون اصطحاب المدعو أحدا من أصدقائه ، وربما رفض الداعي
لقاءهما (٩) ، وإذا كان المدعو لا يعرف أحدا فلا يسلم عليه ، وغاية السلام في الزيارة
أن يسلم الزائر على من يعرف فقط ، والفرنسيون يحيون الجمع بوضع اليد على الرأس أو رفع
البرنيطة (١٠) ، والنساء عند الإنجليز لا يسلمن باليد بل بإشارة من الرأس ، وإذا
توطدت المعرفة يسلمن باليد (١١) ، وإذا كانت تحيتهن إلى أحد من الخاصة ، ينحنين

-
- | | |
|------|----------------------------------|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٠٦ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٥٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٦ ، ١٥٠ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٥ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٥٤ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٨ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . |
| (٨) | الساق على الساق ، ص ٤١٥ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٥٦٦ . |
| (١٠) | انظر كشف المخبا ، ص ١٧٦ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . |

له عند كل سؤال وجواب ، وأما الغلمان فيغمسون أيديهم على رؤوسهم ، وهذا مــــا يفعله الخادم مع مخدومه (١) ، ومن آداب الزيارة عند الإنجليز وبخاصة في حضرة النساء " ألا تحك الزائر * بحضرتهن موضعاً من جسمه ، ولا يبصق ولا يسعل ولا يخط ولا يفجر ولا يتجشأ ، ولا يتنحج ، وأن لا يشم منه رائحة التبغ . " (٢) ويبدو أن هذا التنطيس الزائد عند خاصة الإنجليز ، جعل زائريهم قلة ، وخاصة ممن لا يعرفون مراسيم هذه الزيارات . (٣)

لم يرصد الشدياق للإنجليز على المائدة صفة إيجابية واحدة ، ومن السلبيات التي رصدها برؤية الرجل الشرقي " أن تقعد النساء على المائدة مكشوفات الأذرع والصدر . " (٤) العجائز والصبايا على السواء ، ويستغرب " أن المدعوين يأكلون في بيوتهم قبل أن يحضروا المائدة . " (٥) وذلك حتى لا يأكلوا كثيراً مما يسو " صاحب المائدة ، وعندما يفرغ الزائر من الطعام يجب أن يضع الشوكة والسكين متوازيين (٦) وأسوأ من ذلك كله أن الإفرنج جميعهم " لا يفسلون أيديهم بعد تناول الطعام ، غير أن الكبراء منهم يغمسون أصبعاتهم في صحاف صينية ، يضعها الخادم أمامهم على المائدة ، ثم ينشفونها من دون صابون ، وربما تعضضوا وألقوا الماء فيها من أفواههم بحضرة الضيوف ، وكذلك تفعل النساء . " (٧) ويستعمل أصحاب العيال من الإنجليز جرساً " ليجتمع المتفرقون من أهل البيت " (٨) وإذا فرغوا من الطعام فن عادتهم " أن يشربوا على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم ، أو كما يقولون على صحتهم . " (٩) وفي المناسبات الهامة ، يشربون على صحة ولي العهد . " (١٠) وإذا شربوا على اسم امرأة ، طرح الشارب شيئاً من ثيابه ، ف يلتزم جميع الحاضرين أن يفعلوا مثله . " (١١) وذكر

(١) انظر كشف المخبا ، ص ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٣) انظر الساق على الساق ، ص ٤١٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٥٠ .

(٥) كشف المخبا ، ص ١٨٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٨) الساق على الساق ، ص ٤٣٧ .

(٩) كشف المخبا ، ص ١٨٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

المآدب يقود للحديث عن الطعام ، وهي قضية أرقّت الشدياق في بلاد الإنجليز خاصة، حيث كان المطبخ الإنجليزي من الأمور التي نغر منها ، في الوقت الذي كان المطبخ الفرنسي من أكثر ما أحبه عند الفرنسيين، ولم يترك فئة أو طبقة عند الإنجليز إلاّ وتحدث عن طعامهم ، فأما الأغنياء من الإنجليز فإنهم " يستخدمون طبّاخين فرنساويين ، ويتلذذون بأنواع من ألوان " (١) ، وأما العامة منهم فيأكلون أطعمة غريبة ، مثل اللحم المنقوع بالدم (٢) ، ويتخذون " نبيذا من جميع الفواكه ، من أشهر نبيذ التفاح " (٣) ويخلطون القهوة بالهندباء ، والقمح بالهرطمان ، وبقيق البطاطه والفول . . . وسكرهم مخلوط بالرمل والطين ، وحليبهم نصفه أو ثلثاه ماء ، والبيض ينقعونه في الصيف في ماء الجير فيستغير طعمه (٤) ، و " لا حرج على بيع المنتن من اللحم والسّمك ، والفج من الأثارة ، والفاسد من كل شي " (٥) ويتعجب الشدياق من أنهم " لا يعافون من أكل اللحم المنتن وغيره ، فإن الأرنب والفزال لا يأكلونهم إلاّ بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما " (٦) " ويأكلون الدم مخلوطا بالشحم " (٧) وسلطان مائدة الإنجليزي هو البطاطة (٨) ، وفي الأرياف يأكلون الحلوا قبل الطعام ، ويشربون الحليب بالطح ، ويأكلون الرشاد مع القهوة (٩) ، وأغنياء الريف لا يعرفون من الطعام " غير الشوا " وهذا القلقاس " (١٠) وحتى شواؤهم يحبونه " غير ناضج وربما قطّر دمه من الصفحه " (١١) فإذا ما أضيف إلى ذلك ، مراعاتهم " حركات فم الآكل ويديه " (١٢) تصبح الدعوة عندهم ضربا من الأسر ، وهذه الظاهرة ، ظاهرة الطعام

-
- (١) كشف المخبا ، ص ١٩١ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٠ ، انظر أيضا الساق على الساق ، ص ٥٩٧ ، الهرطمان : الشوفان انظر المعجم الوسيط باب الهاء فصل الطاء .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، انظر أيضا الساق على الساق ، ص ٥٩٧ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، انظر أيضا الواسطة ، ص ٥٥٨ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .
 - (١٠) الساق على الساق ، ص ٥٩١ .
 - (١١) كشف المخبا ، ص ١١٩ .
 - (١٢) الساق على الساق ، ص ٥٨٧ .

السي* ، جربها الشدياق في أماكن مختلفة، من ذلك قرية قرب نيويورك عند جسر لندونفو ، حيث طلب من إنجليزية أن تقلي له البيض بالسمن فلم تعرف ، بالإضافة إلى استغرابها من هذا الطلب (١) ، وخلاصة حديث الشدياق عن طعام الانجليز أن كل ما ساغ منها في مزاردهم فهو طاهر* (٢) ولذلك ضجت الفارياقية بالشكوى من هذه البلاد التي " أسقت بدنها بمأكليها ومشربها* (٣)

أما في فرنسا ، فأنواع الطعام " كثيرة ، وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها* (٤) وطعامهم نظيف للغاية ، ويجد الانسان هناك أطعمة تتلأم مع الطبقات الاجتماعية المختلفة ومد اخليلها ، وإن كان هناك مطاعم " لا يناسبها إلا الأغنياء والمصرفون ، فإن ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا أو خمسون* (٥) وفي الجبلية فإن طعام الفرنسيين ألذ من طعام الانجليز* (٦) لذلك يستخدم أغنياء الانجليز طبّاخين من فرنسا كما سلف القول (٧) ، وأما عن عدد الوجبات ، فالفرنسيون " كلهم يأكلون ثلاث مرات ، والانجليز أربع مرات* (٨)

وفي إطار العادات والتقاليد ، تحدث الشدياق ، عن عادات الزواج والجنائز فأفاد أن الإفرنج يشتركون في كثير منها ، وفي الزواج لا يتزوج أحدهم امرأة* إلا بعد أن يراها ويعاشرها* (٩) فإذا حدث الزواج ، يأخذ الرجل عروسه* ويعتزل بها في ناحية لا يبصره فيها أحد من خلق الله* (١٠) ويستمر هذا الانعزال شهرا

-
- (١) انظر كشف المخبا ، ص ٢٠٥ .
 - (٢) كنز الرغائب ، ١٠/٢٤٩ .
 - (٣) الساق على الساق ، ص ٦٤٥ .
 - (٤) كشف المخبا ، ص ٢٥١ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ٧٣ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١٩١ ، انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٢ .
 - (٨) الساق على الساق ، ص ٦٤٥ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٤١٥ ، يعني الشدياق بالإفرنج في هذا الموضع الفرنسيين وهو كذلك في الساق غالبا* .
 - (١٠) المصدر نفسه ، ص ٤٢٠ .

"يسمونه قمر العسل". (١) وهذه غالبا ما تكون عادة الأغنيا (٢) وفي كل الأحوال فإن نهاية ما يقومون به عند الزواج "هو أن يدعو الرجل أقاربه وأقارب زوجته إلى العشاء الفطور". (٣) ويختص الإنجليز في مراسيم الزواج في أغلب الأحيان، أن تكون ضمن طقوس كنسية (٤)، والمرأة عندهم هي التي تمهر الرجل (٥) والزواج عندهم يتم على أساس طبقي، فالفقيرة للفقير والفتية للفتي (٦)، وغالبا ما تظل "الجميلة الفقيرة كاسدة". (٧) ولا يتزوج الرجل امرأة إلا إذا كان لديها جهاز كاملاً (٨) لأن الزواج عندهم "يكون عن طمع في زيادة المال". (٩) ولذلك كثيرا ما يصرى الإنسان هناك "شابا جميلا قد تزوج نصف شوها". (١٠) والمظهر الأكثر غرابية أن رجال الإنجليز لا يتزوجون إلا إذا دخلوا في حيز الكهول، فيقضون شبابهم في السفاح، ومن حد الثلاثين إلى الأربعين في البحث عن عندها جدة وغنى". (١١) والبنات في الغالب تتزوج واحدتهن "من كان مساويا لها في السن، أو كان أكبر منها بسنتين أو ثلاث". (١٢) وقد يحدث غير ذلك على قلة "كأن يكون الرجل أشرف من المرأة، وأغنى، فتزوجه لشاركه شرفه وغناه". (١٣) ومن خطب فتاة وتركها لغير سبب قانوني "غرم لها مبلغا عظيما". (١٤) ويلتزم الرجل "بسداد دين زوجته

-
- (١) الساق على الساق، ص ٣٩٦. كلمة قمر العسل ترجمة لـ Honey Moon أي شهر العسل.
 - (٢) انظر كشف المخبا، ص ١٨٠.
 - (٣) كنز الرغائب، ١٩٤/١.
 - (٤) انظر كشف المخبا، ص ١٨٠.
 - (٥) المصدر نفسه، ص ١١٥.
 - (٦) المصدر نفسه، ص ١١٥، انظر أيضا الوساطة، ص ٦٠.
 - (٧) الساق على الساق، ص ٥٩٤.
 - (٨) انظر المصدر نفسه، ص ٥٩٤.
 - (٩) المصدر نفسه، ص ٥٩٤.
 - (١٠) المصدر نفسه، ص ٥٩٤.
 - (١١) المصدر نفسه، ص ٥٩٤.
 - (١٢) كشف المخبا، ص ١٢٨.
 - (١٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨. يرى الشدياق أن مثل هذا الزواج من الشذوذ المشين.
 - (١٤) انظر كنز الرغائب ٢٢١/١.
 - (١٤) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

قبل الزواج وبالمقابل يكون وصيا على مالها ومكها. (١) ومن الفرائب التي رصدها الشدياق عند الإنجليز في إطار الزواج ، أن الإنجليز إذا شعر " بأن زوجته تحسب آخره عرض عليها الانتقال إليه ، فإذا تراضيا أخذها وباعها لماشقتها بمحضر شهسود وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع . (٢) ومن المعتقدات الإنجليزية الشعبية فـ في الزواج أنه " إذا انقلب الكرسي برجل أعزب كان دليلا على أن الرجل لا يتزوج تلك السنة . (٣) وأن الفتيات يقمن في أول ليلة من تشرين الثاني بشرا " جلوزا ، ويشوينه ثم يكسرنه ، فإذا خرجت أول جلوزة مزدوجة ، استبشرن بالزواج في تلك السنة . (٤) ومن طريف ما روى الشدياق عن الإنجليز ، أن الرجل إذا تزوج امرأة " ووضعت عنده بمسـ شهر ، ألزم بتبني الولد وتربيته ، وإن يكن من غيره ، وكذا لو علم أنه عائش مثلا مع موصـ وولدت ولدا . (٥) ويخلص الشدياق من حديثه عن الزواج والعلاقة الزوجية عند الإنجليز بقوله : " فإن الإنجليز يحق لهم أن يقولوا إن بلادهم منيت النساء ، ومعدن الأزواج ، بمعنى أن من تزوج إحداهن فقد هنأه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة ، وراحة البال ، من الأسباب الباعثة على الفيرة . (٦) وأما الفرنسيون فقد " يعيشون مع النساء عيش المتعة ، ويأتي لهم بنون وبنات ، وهم على هذه الحالة ، ولا يتزوجون زواجا شرعيا . (٧) والأغرب من ذلك أن هذا عندهم لا حرج فيه . (٨) .

وفي المرض والجنازة فإن الإنجليز لهم عادات سيئة منها أن يلقوا في قلوب أهل المريض الرعب فيقولون : " إن فلانا مني بهذا الداء " منذ أيام فعات . (٩) وعند

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٦٤ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٧٧ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٣١ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٣٣ . الجلوز : البندق انظر المعجم الوسيط باب الجيم فصل السزاي . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٨٠ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ١١٥ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧١ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٦٣ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ١٨١ . |

وفسات شخص من العامة يبقونه " أسبوعا في البيت قبل دفعه " (١) وأما الأغنياء والخاصة " فإنهم يبقون جنازتهم أكثر من أسبوعين ، إشارة إلى أنه غير جدير بأن يفارق هذه الدنيا " (٢) وعند إخراج الجنازة يشيعها رجال يلبسون على رؤوسهم مناديل سوداء ، معلقة فوق برانيتهم " (٣) ومما حمده الشدياق لهم في الجناز أنهم " لا يخمشون عليه وجها ، ولا يشعثون شعرا " (٤) وأنه " إذا مات أحد منهم غريبا ، فلا بد أن يصيده إلى وطنه ليدفن فيه " (٥) وتتلاهم تكاليف دفن الميت مع وضعه الطبقى ، وكذلك الحداد ومدته (٦) ، وتلبس النساء الحواد اللون الأسود ، والعرأة المحد عند الإفرنج ، مطلوبة للرجال ، مرغوب فيها بمنزلة العروس " (٧) وحداد النساء من وجهة نظر الشدياق ، باللباس فقط ، فقد رأى كثيرا من النساء الحواد في بلاد الإنجليز وغيرها ، وهن أكثر خفة وطربا وازدهار وضككا من المروس " (٨)

لم يتحدث الشدياق عن الفرنسيين في هذا الصدر ، وكل الذي قاله أن " ثلثي سكان باريس لا يقدرّون على مصروف الجنازة " (٩)

تحدث الشدياق عن المعتقدات الخرافية المتفشية عند خاصة الانجليز وعامتهم ، إذ رأى أن هذا الداء متفش عند العامة بشكل أكبر لأنهم في " غاية من الجهل " (١٠) ومن معتقداتهم ، أنهم يتطيرون من لقاء المرأة الحولا ، مالم تبادر بالكلام ، ومن السفر يوم الجمعة ، وأن يكون المدعو في عيد الميلاد رابع عشر شخصا ومعارضة سكينين وقت الفداء والمشي تحت السلالم ، وبقا أغصان عيد الميلاد فسي

-
- | | |
|------|----------------------------|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٨١ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٨١ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٨١ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٩٨١ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٨١ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٨١ . |
| (٧) | الساق على الساق ، ص ٦١٣ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٦١٢ . |
| (٩) | كشف المخبا ، ص ٢٤٣ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ١١٢ . |

الميت بعد عيد كندلماس (١)، وفي الأرياف الإنجليزية بالإضافة إلى المدن فإن هناك "نساء" يدعين علم المغيبات (٢)، وذهن من تبصر بالكف، وتدعي بعضهم القدرة على إحضار الغائب (٣)، ويستغرب الشدياق مثل هذه الظواهر في بلاد وصلت إلى درجة عالية من العلم والحضارة، خاصة وأن من يعتقد مثل هذه المعتقدات ليسوا من عامة الناس فحسب (٤)، ولم يرد الشدياق لغير الإنجليز خرافات من هذا النوع، وقصر مثل هذا على الإنجليز وحدهم.

المواسم والأعياد — الأزياء والملابس

رصد الشدياق مجموعة أعياد للإنجليز، منها عيد الميلاد، ويصنعون في هذا العيد نوعاً من الحلوى يسمى كرسمس بودن، وهم حريصون على صنع هذه الحلوى وإرسال قطع صغيرة منه إلى أبنائهم في خارج البلاد، ويوقدون في هذا العيد شموعاً كثيرة، ويزينون البيوت بالأغصان، بالإضافة إلى عيد يسمى ميكاس، يأكلون فيه لحم الإوز، ويصنعون في اليوم الثاني عشر من كانون الثاني كعكاً خاصاً (٥)، وتنظم كنيسة سان بول، احتفالاً في يوم معلوم من السنة، يحضر الناس الاحتفال مقابل شلن للفرد الواحد (٦)، ويحتفلون بشهر أيار ومحاسنه، وذلك لانتها البرد فيه، ومن عادتهم في هذا الاحتفال أن يطوف الأطفال على البيوت يجتدون من أصحابها، ويتهدى الماشقون والعاشقات الرسائل والأشعار (٧)، هذه أعياد الإنجليز الموسمية، وفي يوم الأحد من كل أسبوع يميلون "إلى اللهو والخلاعة في جميع الأماكن" (٨)، حيث يرى الماشي مظاهر هذه الخلاعة في الشوارع، وخاصة من قبل سفلة المجتمع الذين يرون صرعى

- (١) انظر كشف المخبا، ص ١٣١ انظر أيضاً الصفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، كندلماس تعني عيد الشموع . Candle Mass.
- (٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
- (٣) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٥، ١٣٦.
- (٤) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٧.
- (٥) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٤.
- (٦) انظر المصدر نفسه، ص ٣٤٣.
- (٧) انظر المصدر نفسه، ص ٩١.
- (٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

من السكر والمسكر (١)

من المناسبات الخاصة في لندن ، يوم اسمه يوم كي فكس وهو يوم يطسوف فيه الإنجليز حاملي التماثيل والصور ، وتمثل هذه التماثيل صورة رجل حاول تفجير مجلس العموم ، حيث يقومون بحرقها عند برج لندن . (٢)

وفي مدينة كلوستر يحتفل الناس بعيد استئجار الخدم (٣) ، وفي مدينة بنريث يجتمع الناس كل ثلاث سنوات لمواساة بعضهم البعض فيصنعون وليمة كبيرة (٤) ، ومن أيامهم ، يوم شاهده الشدياق في كيمبرج ، تجتمع فيه العامة للملاكمة ، وهو بمثابة المبارزة بالسيوف عند خاصة الإنجليز (٥)

وعند الفرنسيين ثلاثة أيام يسمونها الكرنيفال ، وفي هذه الليالي يظلمون في المراقص حتى الصباح . (٦) وعندهم يوم اسمه خميس السكاري " يطوفون بشور سمهن وأمامه طائفة الجزارين بلباس السخرية ، ويغنون الشور بثوب مزركش وعلى رأسه إكليل من الزهر " (٧) ومن أعيادهم أيضا ، عيد رأس السنة ، يحتفلون فيه لمدة ثلاثة أيام تنصب فيها الخيام ، وتباع التحف والطرف ، ويتبادلها الناس ويتباهون بها ، (٨) واحتفال الفرنسيين بأعيادهم مختلف تبعاً للطبقة التي ينتمون إليها ، فأهل الشـرة والجاه " يذهبون إلى الشانزلزيه " متفاخرين بما فوقهم من اللباس ، وبما تحتهم من المركوب " (٩) وتخرج العامة إلى بوى ديولون قصد المعاخرة باللباس والمركوب أيضا (١٠) ، وأعياد الفرنسيين هي " موسم التأنق والتظرف " (١١)

-
- | | |
|------|----------------------------|
| (١) | كشف المخبا ، ص ٣٦٢ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٥ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٤ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ . |
| (١٠) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ . |
| (١١) | المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ . |

هناك أعياد رسمية عند الفرنسيين أقرتها الدولة ، منها عيد " يحشده إليه مئات ألوف لرؤية الأنوار ، وشعب البارود " (١) ، وبالجملة فإن أيام الفرنسيين " كلها مواسم وأعياد ، وإن ليلها أبهج من نهارها " (٢) وعند الإنجليز فإن الأعياد على كثرتها ، ليس فيها " يوم للحظ واللهو " (٣) ويبدو أن تحكم العطارنة ورجال الدين يلقي كثيرا من مظاهر الاحتفال التي يلعبها المرء في إنجلترا وذلك " بدعوى أنه مناقضة لنص الإنجيل " (٤)

نالت الأزياء جزاً من اهتمام الشدياق ، وخاصة في بلاد الإنجليز والفرنسيين فعند الإنجليز فإن عاصمتهم لا يعملون إلى " الإسراف في الملابس " (٥) حتى أن الملكة فكتوريا لا تتميز بلباسها عن كرائم خوارمها (٦) وهذا الإسراف ممنوع على المستوى الرسمي منذ " عهد إدور الرابع ، ثم في عهد اليبابات " (٧) غير أن نساء الإنجليز يطولن أظافرهن ، ويمظمن مرافدهن ، ويفتلن سو الغهن (٨) وفي كل الأحيان فإن السيدة الإنجليزية لا تبالغ في اقتناء الحلي الثمينة ، والملابس الفاخرة (٩) ، ولا بد للمتزوجـة " أن تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى " (١٠) ، ومهما بلغ تجارهم من الفنى فإنهم لا يتحلون بالجواهر (١١) ، ولكن هؤلاء الأغنياء يتخذون " لباسا خاصا للخدم " (١٢) ويلبس القضاة شعرا أبيض عارية . . . وتلبسها الكهرا " يوم مبايعة الملك ، وقد جعلت الدولة عليها ضريبة سنة ١٢٩٥م (١٣) ، وقد خالف رجال الإنجليز رجال أوروبا في " حلقهم

-
- | | |
|------|---|
| (١) | كشف المخياص ٢٦٦ . لم يذكر الشدياق سبب هذا العيد ، ولكنه ذكر أنه يكون في ١٥ آب . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٣٦٦ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٩١ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ . |
| (٨) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٨٧ ، ٥٧٩ . |
| (٩) | انظر كشف المخياص ، ص ٨٤ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ١٧٩ . |
| (١١) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٢٧ . |
| (١٢) | كشف المخياص ، ص ١٦٣ . |
| (١٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٢١ ، ١٢٣ . |

لحاهم وشواربهم ————— م . (١)

في باريس ، تهتم المرأة بزيها اهتماما " يفرم زوجها على كموتها فقط ما ينفقه المتزوج من الإنجليز على جميع أهله " . (٢) وهن " يرين التقليد في الحب والسرور معرفة فكل واحدة منهن تجتهد في فنها ، حتى تصير قدوة لغيرها " . (٣) وبأخـذ الشدياق عليهن ، أنهن " يلبسن أحذية كأحذية الرجال ، وذلك منكر في لندرة ، وإذا خرجن في الأسواق ، خرجن من دون برنيطة ولا شال " . (٤) ، ولا ساتر لخصورهن وما يلبسها بخلاف عادة النساء في لندرة ، فإنهن لا يخرجن إلا ملتحفات " . (٥) ولكل نساء إقليم في فرنسا غطاء مخصوص (٦) ، وتشارك نساء فرنسا بأن لهن " نظافة زائدة على عظمى الطبوس والمفروش " . (٧) وأما نساء الإفرنج عامة فـ " غاية تصنعن إنما هو في تصفيف شعورهن ، وتغيير ملابسهن بحسب الزى المستعمل " . (٨) وتقتدي نساء الإنجليز بالملكة في كل ما تفعل في لبسها وزينتها " . (٩)

تؤثر نساء الإفرنج عامة " الشباب السود ، ثقة بأنها تقوم في تشويق من يلاقيهن من الرجال ، ولذلك كانت الإفرنج أيضا يحبون اللون الأسود في الملابس " . (١٠) وعلى العموم فإن لباس رجال الإفرنج " لا يخلو من إخلال بالحيا " ، كذلك كان لباس نسايم ادعى إلى الحشمة والتصاوين من لباس نساينا " . (١١) ويبدو أن ملابس النساء ونوعيتها مرهونة بالطبقة التي ينتمين إليها " فالجميلة الرائعة في لندن تطوف بأخلاق من الشباب والذميمة الشوها في باريس ترفل بالحرير والكشمير " . (١٢) وعلى

-
- | | |
|--------|----------------------------|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ١٢٠ . |
| (٢) | الساق على الساق ، ص ٦٣٠ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٦٢٦ . |
| (٤) | كشف المخبا ، ص ٢٦٨ . |
| (٥) | الساق على الساق ، ص ٦٣٢ . |
| (٦) | انظر كشف المخبا ، ص ١١٠ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١١٠ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٠ . |
| (١٠) | الساق على الساق ، ص ٦١٤ . |
| (١١) | الواسطة ، ص ٥٥ . |
| (١٢) | الساق على الساق ، ص ٦٣٨ . |

المعوم ، فالمرأة الفرنسية أكثر اهتماما بلباسها من سائر نساء الإفرنج ، لذلك كانت أكثرهن " زهوا وعجبا " . (١)

العلاقات الاجتماعية والأسرة

تقرر عند الحديث عن الطبقات الاجتماعية ، أن من طبع خاصة الإنجليز تجنب معايشة العامة (٢) ، وفي بلاد الفلاحين ، لا يرى الواحد أحدا من خلق الله ولا يراه أحد (٣) ، فأما الخاصة فلانهم يفرون من الزحام ، ويحذرون الاختلاط بالأوباش (٤) ، وأما الفلاحون ، فلشدة كدهم وعدم وجود وقت لديهم للتعامل مع الآخرين ، وفي المدن العامرة فإن عامة الناس لا يتزاوون ، ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في التاسعة ويقومون في الرابعة ؟ (٥) ومن المنطلق ذاته " لا يعني أحد منهم بشأن جاره ، ولا يهمه أمر غير أمر نفسه " (٦) وغاية علاقاتهم إذا تلاقوا في الطريق ، أن يقول أحدهم " طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا " . (٧) وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساؤلا ، فلا بد أن يتسديأ أحدهما أولا بوضف الهواء وصحوة أو برده . (٨) وفي القرى ، إذا حدث واجتمعوا للمنادمة " ملأوا كوبا كبيرا من الجعة ، وجعل كل منهم يكرع كربة ويدخن في قصبة من الطين ، ثم يبيص ، فيملأون المكان بصاقا وقذرا " (٩) ويحمد الشدياق لهم " أنهم أيضا يحبون من يصاحبون أياما وشهورا وسنين ، ولا يسألون عن مقدار دخله وخرجه ، فذلك من السمر

-
- | | |
|-------|--------------------------------|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١١٠ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٦٠ . |
| (٣) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٩١ . |
| (٤) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٢٠ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٢٠ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ١١٦ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٢٠ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٢٠ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ١٢٠ . |

الذى لا ينبغي إفساؤه إلا عند الضرورة ، كذلك لا يسألون عن مقصده ومذهبه .^(١) وقد تقوم المرأة بالقاء التحية على رجل تعرفه ، بينما يكون زوجها أو عاشقها معها ، دون أن تشعر بالحرج ، أو يشعر من يماشىها بالضيق .^(٢)

يبدو أن الفرنسيين أقل انفتاحا من الإنجليز على الصعيد الاجتماعي فالفرنسي مهما كانت علاقتك به ، لا يعرفك بأهله .^(٣) وعذرهم في ذلك أنهم لا يأمنون على نسائهم وبناتهم .^(٤) وهذا يعكس تفشي السفاح والزنا لديهم ، ويبدو أن أسباب ذلك متوفرة في باريس حيث لا حرج على من اكرى في منزل بيتا مفروشا كان أو غير مفروش ، أن تزوره صاحبه في منزله . . . فإن منزلة هذا عند أهل باريس كمنزلة المتزوج .^(٥) وهذه خلعة في كل قطر^(٦) أوروبي أيضا ، ولكن الشدياق يحمى للفرنسيين خصلة ، وهي أنهم حين يفتشون في بلاد غير بلادهم ، يختلطون بهم ويجالسونهم ويخالقونهم .^(٧) وهذا على عكس إذا تغرب أحد بينهم لـم يختلطوا به .^(٨) وللإفنج عامة عادة سيئة ، وهي أنه إذا دخل أحد دار أحد منهم ، وكان في المجلس جماعة من أصدقائه لم يعرفوك قبل ، فما أحد يتحلل لك في القيام ولا يعبأ بك ولا يلتفت اليك .^(٩)

يبدو أن العلاقات الأسرية في بريطانيا أكثر ترابطا منها في فرنسا ، وعلى أية حال فقد تحدث الشدياق عن هذه العلاقة عند الإنجليز أكثر مما تحدث عنها عند الفرنسيين وقد رعد بعض المظاهر الإيجابية والسلبية عند الإنجليز في هذا الإطار ، ومن المظاهر السلبية أنهم لا يحترمون الشيخوخة .^(١٠) ولا يهاب الأولاد والديهم . . . ولا يحسن

-
- | | |
|------|---|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٥٨ . |
| (٢) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٢٦ . |
| (٣) | كشف المخبا ، ص ٢٧١ . |
| (٤) | الساق على الساق ، ص ٦٢٩ - أنظر أيضا كشف المخبا ، ص ١٦٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٦٢٨ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٥٨٩ . |
| (٧) | كشف المخبا ، ص ٢٧٢ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ . |
| (٩) | الساق على الساق ، ص ٥٢٢ ، الإفنج في الساق غالبا ما تعني الفرنسيين . |
| (١٠) | كشف المخبا ، ص ١٢٠ . |

الوالدون أيضا على أولادهم . (١) ونتيجة لذلك ، يقع عندهم كثير من حوادث القتل ضمن الاسرة الواحدة ، فقد يقتل الاب ولده ، والولد أباه وأمه ، وقد يضاجع الاب ابنته وقد تتواطأ الام وابنتها وأختها على الفاحشة والفساد (٢) ، وقد رصد الشدياق كثيرا من الحوادث في هذا الصدر ، في بلاد الانجليز . (٣) ويعزي ذلك إلى أمرين ، العشق مع الحرمان والاملاق (٤) ، ولم تسلم الأسرة عند أغنيا الإنجليز وخاصتهم من مظاهر الفساد والانحلال ومنها أن المرأة " تتخذ لها من الخدم من تفرع عنها بترارتيمة وبياضته " . (٥) ، لذلك يرى الشدياق أن من كان " من أولاد الأعيان والأمرأة هنا تارا قويا ، فإنما هو من إلقاح بعض الحشم " . (٦) ومع ذلك فإن هؤلاء الأعيان " لا يقبلون في مجالسهم من علم أنه عاشق مع امرأة على وجه المتعة أو السفاح " . (٧) وهم أيضا لا يضيّقون على النساء " فيما لا يكون به مثلية للمعرض " . (٨) ومن المظاهر الإيجابية في إطار الأسرة الإنجليزية أن رب الأسرة يجلس " صباحا على المائدة مع زوجته وأولاده " يقبل كلا منهم ، ويسأل عن صحتهم ويفيدهم بعض نصائح وتنبيهات تكون لهم إماما فسي ذلك اليوم . (٩) ولكن العلاقة الرسمية بين الرجل وزوجته من الأمور التي لم يبيد الشدياق رأيه فيها ، سوى قوله أن بينهما " من التحشم والتكلف ما بين الغريب وأحد هما ولا يمكن للسيد أن يقول عن امرأته زوجتي أو قرينتي . . بل يقول قالت السيدة ، ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ، ولا يتطاول إلى معرفة أحوالها " . (١٠) وفي إطار الميراث فإن علية الإنجليز وشرافهم لا يورثون أملاكهم " إلاّ للابن الأكبر فإن شاء أعطى إخوته وإن شاء حرمهم " . (١١)

- (١) كشف المخبا ، ص ١٢٠ .
- (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .
- (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ . كان مصدر الشدياق في هذه الأخبار صحيفة أخبار العالم .
- (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
- (٥) الساق على الساق ، ص ٥٩٤ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .
- (٧) كشف المخبا ، ص ١٦٣ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .
- (٩) الساق على الساق ، ص ٥٢٧ .
- (١٠) كشف المخبا ، ص ١٦٣ .
- (١١) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ . انظر أيضا الساق على الساق ، ص ١٦٩ .

والإنجليز أقل احتفاً بالنساء من الفرنسيين ، والمرأة الإنجليزية تقدر
 "بمزية الرجال" (١) عليها ، ورجال الإنجليز "أكثر إحصاءاً لفروجهم وأوفر مودة ووفاء"
 في الحضرة والغبية " (٢) من الفرنسيين .
 وفي مجال التربية ، فإن الإنجليز "أحسن تربية للأولاد من غيرهم" (٣) وتبدأ
 عملية التربية منذ الولادة ، فلا يقطونهم ، وتكلم الأم طفلها بالكلام المتعارف عليه
 دون لشغ أو كسر (٤) ، ويحمد لهم هذه المزية ، وجل هم الرجل في بلاد الإنجليز
 أن "يربي ولده بالأدب والعلم والفضائل" (٥) وفي بلاد الفلاحين لا تربى الأم "الأولاد"
 ولدها البكر والهاقين تربيتهم اخوتهم الأكبر فالأكبر" (٦) ولا يمنع الإنجليز أن يرسلوا
 الولد على "كبر الهمة وسمو مطمح" (٧) حتى لو كان وحيداً ، ويربونهم منذ الصغر
 على حب الموسيقى ، فمضى سمعت الأم الموسيقى أخذت طفلها حالاً ، ورقصته أو غنت
 له " (٨) وفي فرنسا يرسلون الأطفال "إلى الريف من أول أسبوع ميلادهم ، فيربون
 في أحجار المراضع" (٩) ولهم عناية في تربية الأطفال أكثر من الإنجليز "إذ لا يفادروهم
 وحدهم في الشوارع والطرق عرضة للاختطاف" (١٠) ونتيجة لهذا الاهتمام الزائد
 بالطفل منذ فترة مبكرة ، فإنه ينشأ جريئاً في التخاطب (١١) ، ويشترك الأفرنج عامة
 في بعض أساليب التربية ، ومن ذلك تدريب الأطفال على الطعام الخفيف بعد الولادة
 بستة أشهر (١٢) ، ويعودونهم على الجرأة وعدم الخوف ، فينشأ واحد منهم متصفاً بالبسطة
 بالجسم والعقل وهذا هو دور أمهات الأفرنج في التربية " (١٣) .

- | | |
|------|---|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١١٠ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١١٣ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٨٠ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٠ . |
| (٥) | الساق على الساق ، ص ٥٢٧ . |
| (٦) | كشف المخبا ، ص ١٨٠ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٥٦ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٠٧ . |
| (٩) | الساق على الساق ، ص ٦٢٩ . |
| (١٠) | كشف المخبا ، ص ٢٧٢ ، انظر ايضاً المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٨ . |
| (١٢) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٠٥ . |
| (١٣) | انظر كشف المخبا ، ص ١٥٢ . |

تحدث الشدياق في إطار الحياة الاجتماعية ، عن المرافق والبيوت والخدمات الاجتماعية وكانت بيوت الإنجليز من الأمور التي لفتت نظره في شكلها ومرافقها ، فأعجب بها أكثر من بيوت الفرنسيين ، ففي المدن الإنجليزية يكون " بناؤهم من الآجر الأحمر أو الأبيض ، وقد يصبغون خارج الديار أو يكسونه ، ثم يرسمون عليه خطوطا تبديسه كأنه حجارة " . (١) وفي الأرياف تنقسم البيوت الإنجليزية إلى ثلاثة أقسام من حيث شكل السطح ، الأول من ألواح الكناز وهي للديار الكبيرة ، والثاني من الخزف ، وهو للبيوت الوسط ، والثالث من التبن ، وهذا قبيح المنظر (٢) ، ولكن بيوت الفلاحين بشكل عام " حسنة مهندمة " (٣) ، وبيوت الأغنياء والمترفين من الإنجليز فانه " لا شيء أجمل منها ، لا حكام مبانيها وحسن ترتيبها ، وحيطاتها من داخل مغطاة بالورق الفاخر المنقش ، وطبقاتها محكمة كبيرة " . (٤) " ولهم اسراف زائد في الأثاث " . (٥) وإن كانت هذه خلة عند " جميع سكان أوروبا " (٦) وأما بيوتهم من الداخل ففيها مرافق لا توجد في باريس ، منها حسن المواعد ، وتشتمل أيضا على صهاريج للماء ، الطبيب وفي باريس يشتري السكان الماء الردي من السقائين (٧) ، وعلى المصوم فإن الإنجليز في بيوتهم اعظم الناس ترتيبا وأحكامهم وضعا للأشياء " . (٨) وقد وضع يده على أزمة الاسكان في لندن ، وقد عزى ذلك إلى إهمال الدولة لطبقة الفقراء التي تعاني من هذه الأزمة فنقل عن صحف الأخبار " أن مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وامرأة يسكنون في أربعة وثلاثين حجرة " . (٩) بينما في باريس ، فإن البيوت كثيرة ، وإن كانت وسخة الدرج وقدرة المرافق بالإضافة إلى خلوها من النور والهواء ، ومواقدها كالقبور وبيوتهم الجميلة هي التي بنيت حديثا كما أن مطابخها لا تضاهي مطابخ لندن التي يظل فيها قسور

- | | |
|-------|----------------------------|
| (١) | كشف المخيا ، ص ٨٣ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ٨٣ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٨٤ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٨٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٨٤ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٨٧ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٨٧ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ٣٧١ . |

الغاز والماء الساخن باستمرار لخدمة السكان . (١)

تتفوق باريس على لندن في مجال المرافق العامة خارج البيوت ، ففي باريس " مواضع يتخلس فيها الإنسان لقضاء الحاجة ، وذلك في لندرة معدوم " (٢) وطرق باريس أفضل من طرق لندن ، وخاصة في وقت المطر ، حيث تكون في لندن " وحلة للغاية " (٣) وفي باريس تكثر المصاطب والمحلات والدكك التي يمكن العاشي الجلوس فيها ، وفي لندن لا يمكن الانسان أن يقعد إلا في بيته ، وقرى الإنجليز أسوأ بكثير من مدنها في هذا الصدر (٤) ، وإن كان هناك تفوق للندن على باريس ، فإن ذلك في إضافة الشوارع فقط ، فهي في لندن أفضل منها في باريس (٥) ، بينما تتفوق باريس عليها (بالإضافة إلى ما ذكر) في مجال المواصلات ، فحوافل باريس أكثر سعة من حوافل لندن ، والعاملون فيها يتزبون بزي واحد ، ولهم شيخ يخلص النزاعات وهذا لا يحدث إلا قليلا ، ويعطي السائق الراكب ورقة مطبوع عليها رقم المجلة ، للتعرف عليه وقضاء الحاجة ، بينما يتصف العاملون على العواجل في لندن بالغلظة وقلة الأدب (٦) وأما القطارات فهي في فرنسا أيضا " أقل عرضة للمصادمة والخطر من الأرتال الإنجليزية " (٧) ويعزى الشدياق ذلك إلى انهماك العاملين في القطارات الإنجليزية فسي شرب المسكرات (٨)

تتعدم المواصلات في قرى الإنجليز ، حتى من الخيل والحمار ، فإذا أضيف إلى ذلك عدم وجود مياه عالحة للشرب غير ما يجمعونه في المناقع من مياه الأمطار ، وقلة ما يباع في الدكاكين (٩) ، وعدم وجود أطباء مهرة ، تصبح حياة الريف سيئة للغاية كما وصفها الشدياق (١٠)

- | | |
|--------|--------------------------------|
| (١) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٣٥ . |
| (٢) | كشف المخبا ، ص ٢٥٠ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٢٩١ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٧٧ . |
| (٥) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٣٣ . |
| (٦) | انظر كشف المخبا ، ص ٣١٩ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٠٥ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٠٥ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ٧٨ . |
| (١٠) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٠٦ . |

وفي مجال الخدمات الصحية ، فإن المرافق المعدة لهذا الغرض ثابتة لا تزيد ويقوم الأهليون بإنشائها إمداداً للفقر في بلاد الانجليز ، وليس للدولة دور في هذا الصدر ، والدخول إلى هذه المستشفيات صعب للغاية ، والإقامة فيها من أصعب ما يكمنون (١) .

لم يتحدث عن المرافق الصحية في باريس ، ولكنه أوحى بأنها أفضل حالا منها في لندن وذلك عند حديثه عن الرقابة الصحية الشديدة على الموصيات ، بينما تطوف موصيات لندن في الشوارع ، وقد أفسد العرض أحشاها هن ، فيتسبين في عـددوى الكثيرين (٢) .

وفيما يتعلق بأماكن اللهو فهي في لندن للأغنيا (٣) ، وفي القرى لا توجد " مواضع للهو والحظه " (٤) وفي باريس ومرسيليا حدائق كثيرة ، وهي لمتعة الخاصة والعامة من الفرنسيين . (٥) ، بينما جعلت لحظ الأغنيا ، والخاصة في لندن ، وذلك على الرغم من كثرتها ، حيث ذكر الشدياق أسماها مثل " حدائق كريمون وفكس هـال ورجفيل " . . . (٦) .

المرأة

لفت نظر الشدياق في بريطانيا جمال المرأة الانجليزية ، وقد رجح كفتها في هذا المضمار على غيرها من نساء الإفرنج ، سواء المرأة التي تعيش في القرية ، حيث فيها " من تشفي من القعة ، بل تغني بالقرم " (٧) وفي لندن ، فلا شي " يلفت النظر

-
- | | |
|-------|---|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩١ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٦ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، انظر ايضا الساق على الساق ، ص ٥٤٣ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٩ ، ٢٥٣ . |
| (٦) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٣٧ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٥٤٣ ، وتغني بالقرم : القرم شدة الشوق إلى الحبيب ، والقرم هو الفحل الذي يترك للركوب ، انظر القاموس المحيط ، فصل القاف ، بسـأب الميـم . |

"غير حسن النساء" (١) وعلى العموم فإن الإنجليزيات "أحسن نساء" الإفرنج جميعاً صفاً لوناً، ونعمومة بشرة، وأعضاءاً، وترائباً، وأعناقاً (٢) ولم يبر في نساء الإفرنج "تذكيراً إلا في نساء باريس وأيرلندة" (٣) ولم ينسب الجمال إلى فئة أو طبقة عند الإنجليز بل ربما تجد الخادمة "فوق مخدومتها في القسامة والجمال" (٤) والمرأة الفرنسية أكثر "نساء الأرض كلها . . . تبيها وعجبا وزهوا . . . سوا" كن قباحا أو ملاحا أو غوا أو قصارا (٥) ولكن المرأة الإنجليزية على ما يبدو مهبط أكثر من أختها الفرنسية من قبل السلطة، وهذا واضح من قول الشدياق، "أن أسواق لندن "تنمو" بمحال النساء عامة الليل" (٦) مما يؤدي إلى زيادة أسباب الفسوق، ودليل ذلك أنه "يوجد عشرون ألف مومسة في أبرشية ماري لابن، ومن جملة نحو ستين أبرشية" (٧) وحتى المرأة العادية، فظيها من مظاهر التحرر الجنسي ما لفت نظر الشدياق وخاصة أولئك النساء اللواتي يباشرن خدمة السكان (٨)، وقد لفت نظره أن المرأة الإنجليزية تتظاهر "في النهار بصفات الورع والتقوى . . . وتوهم الناقد أنها متبذلة معتزلة للرجال" (٩)، ولكن قرى الإنجليز لا تتوافر فيها أسباب الفحش والفساد (١٠) وينسب الشدياق كثيرا من أنواع الفحش في لندن إلى الأوضاع الاجتماعية والعادية السائدة فالفقير مثلا واحد من الدوافع التي تدفع النساء إلى هذا الفحش حيث تأتي البنات من القرى المجاورة للندن لترويج أجسادهن (١١)، ويلوم الشدياق المجتمع الإنجليزي والمعنيين على هذه الظاهرة بقوله: "أليس يعاب صاحب أرض أريضة ينفادرها بسورا ومتعرا للوحوش، أو صاحب أشجار مشعة، يتركها دون سياج ولا ناطور، عرضة لنهبهم

-
- | | |
|------|--|
| (١) | كشف المخبا، ص ٣٧٢. |
| (٢) | المصدر نفسه، ص ١٠٨. |
| (٣) | الساق على الساق، ص ٦٤٤. |
| (٤) | المصدر نفسه، ص ٣٦٦. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ٦٤٤. |
| (٦) | كشف المخبا، ص ٣٦٩. |
| (٧) | المصدر نفسه، ص ٣٦٩. |
| (٨) | انظر الساق على الساق، ص ٥٤٣. |
| (٩) | المصدر نفسه، ص ٥٤٤. عم الشدياق هذه الصفة على النساء اللواتي يعطن في خدمة السكان. |
| (١٠) | انظر كشف المخبا، ص ١١٢. |
| (١١) | انظر الساق على الساق، ص ٥٥١. |

كسل متفكه . (١) غير أن موسسات الإنجليز ، لا يكلفن الناس احترامهن ، بينما تصـرّح
الضموس الفرنسية على احترام الناس لها ، وهذا ناتج عن عدم تفرقة الفرنسيين أنفسهم بين
الحرّة والبغسي (٢) ، وكما أن للفحش في لندن أسبابه ، كذلك في باريس ، ومن أسبابه
أن " جمع الاشغال في باريس تديرها النساء " . (٣) وفي مرسلية " ديار تسكنها الموسسات
يستدعين بالغادي والسرايح " . (٤) ومن أسباب الفحش في مدن فرنسا أيضا ، طـسـول
تردد النساء " على مواضع الرقص " . (٥) ولهذا أيضا " ترى المرأة منهن تمشي فـسـي
الأسواق وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك " . (٦)

من مساوي المرأة الإنجليزية التي رآها الشدياق " أنهن يشرقن بنخامتهن " . (٧)
وأما الفرنسيات فهن " لطاعات " . (٨) أي يلحسن أصابعهن بعد أكل الحلوا " . (٩) وقد
عم هذا الحكم على نساء الريف الإنجليزي ، وعلى الفرنسيات جميعهن ، أما الموسسات
في باريس فإنهن أكثر من موسسات لندن ، ويرجع ذلك إلى أن موسسات باريس معروفات
من ديوان البوليس ، واسماؤهن مقيدة فيه ، فلا يتجرأن على التهتك ، بعكس بغايات
لندن . (١٠) لذلك أيضا " لا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة أو مومسة تطوف في الليل
وهي سكرى كما ترى في لندرة " . (١١) .

-
- | | |
|---------|---|
| (١) | الساق على الساق ص ٥٩٤ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ص ٦٣١ . |
| (٣) | المصدر نفسه ص ٦٢٨ . |
| (٤) | المصدر نفسه ص ٦٢٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ص ٦٢٤ ، ذكر الشدياق بهذا الصدر أنواع الرقص الذي تمارسه
النساء مثل البلكي والمازوكي والسوتشكي ، والكرديل والريدوقي والفلس ، انظر
المصدر نفسه ص ٦٢٤ . |
| (٦) | المصدر نفسه ص ٦٢٤ . |
| (٧) | كشف المخبا ص ١٠٩ ، النخامة : النخاعة ، انظر القاموس المحيط ، فصل النون
باب الميم . |
| (٨) . | الساق على الساق ص ٦٤٤ . |
| (٩) | كشف المخبا ص ١٠٩ . |
| (١٠) | انظر الساق على الساق ص ٦٤١ . |
| (١١) | المصدر نفسه ص ٦٢٩ . |

وفي مجال العمل ، رأى الشدياق في مدن فرنسا " أن قوام كل شيء " وعتماده وملاكه وقطبه . . متوقف على وجود المرأة " (١) فهن يعملن في كل مجال ، ويتعاطيهن أغان الرجال ، فيكسّن الطرق ، ويعملن الأثقال (٢) وينظفن الأحذية ، ويعملن فسي صيد السمك ، والمناظرة على المراحض (٣) ، هذه الظاهرة رأها في باريس وغيرها من المدن الفرنسية ، ومع ذلك فلهن " تحكم على الرجال ، وتمتدّهن عليهم في كل حال وبال " (٤) حيث أن " امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكرا " (٥) ، فإذا كانت المرأة الفرنسية من الخاصة " فالعزة لله الواحد القهار " (٦)

أما في بلاد الإنجليز ، فالنساء أيضا " يتعاطين الأعمال الشاقة في الحقول " (٧) ولكن أصحاب الأعمال غبانون بحيث " لا تزيد أجرة المرأة على نصف شيلن " (٨) والفرنسيون بشكل عام لا يهينون النساء الخوادم كما يفعل الإنجليز (٩) ، وفي الجطة " فإن التمدن في أوروبا " صفة مشتركة بين الرجال والنساء ، فلهذا كانت نساؤهم مشاركات لهم فسي الأعمال والمساعي ، فهن يبعن ويشترين ، ويتعاطين الفنون والصنائع ، ويكدن في أمور المعاش ، وذلك أغراهن بطلب السياسة أيضا " (١٠) والمرأة أيضا معادلة للرجل " على قدر معادلتها له في القوة والجلد " (١١) ومع وجود هذه الحرية للمرأة الإفرنجية ، فإن الرجال هناك يحبون نساءهم (١٢) ، ويفارون عليهن ، على عكس ما هو شائع (١٣) ، بل إن الرجل الفرنسي " يماشي المرأة وقلبه بين رجلتيها ، وإذا خلا معها

-
- | | |
|--------|--------------------------------|
| (١) | الساق على الساق ، ص ٦٢٣ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٤٥ . |
| (٣) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٧٣ . |
| (٤) | الساق على الساق ، ص ٦٢٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٦٢٥ . |
| (٦) | كشف المخبا ، ص ٢٨٤ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١١ . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١١ . |
| (٩) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٢١ . |
| (١٠) | كنز الرغائب ، ١٠ / ١٢٥ . |
| (١١) | المصدر نفسه ، ١ / ١٢٥ . |
| (١٢) | انظر الساق على الساق ، ص ٤١٥ . |
| (١٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٤٠١ . |

في البيت فهي المرأة المستعملة". (١) وعند الإنجليز ، فلها " مقام عظيم". (٢) لذلك
"يصورون الملائكة بصورة النساء". (٣) .

الدين والسياسة

اهتم الشدياق بتتبع قضايا الدين والسياسة في أوروبا بعامة، وعند الإنجليز
بخاصة، فأفاد أن أهل سكوتلاند " أشد تحمسا في الدين من الإنجليز". (٤) وبقياسة
الإنجليز " يتظاهرون بالتقوى والصلاح ، حتى أن البغي منهم تجار وهي مستقيمة
بالدعارة مرة وبالرفق أخرى". (٥) وهم على أية حال " يراعون الفروض الدينية إما عن
تعبد أو عن مصلحة". (٦) حيث أن التعبد عندهم جرى مجرى العادة (٧)، ومؤشر
ذلك أن الفلاحين مثلا " يذهبون إلى الكنيسة حيا" من جبرتهم، أو خوفا من
القسيس". (٨) لأن قسيس الكنيسة " لهم سطوة نافذة على الرعية". (٩)
تتألف الكنيسة الإنجليزية " من مطرانين وخمسة وعشرين أسقفا لهم تقاعد
في حالة العجز ، ولها العشر من كافة الطوائف حتى اليهود". (١٠) وكنايس الإنجليز
كثيرة الإسراف والشطط على حد تعبير الشدياق (١١) وتتصف علاقة رجال الدين
مع الرعية بالتمزق، حيث أن رجال الدين " يكلفون خدمتهم وضيوفهم إلى حضور الصلاة
في ديارهم عابحا ومسا" ، وقبل تناول الطعام ويعدده". (١٢) والكنيسة عند الإنجليز

-
- | | |
|------|----------------------------------|
| (١) | الساق على الساق ، ص ٦٢٤ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ٥٥٠ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٥٥٠ . |
| (٤) | كشف المخبا ، ص ٢٢١ . |
| (٥) | الساق على الساق ، ص ٥٨٣ . |
| (٦) | كشف المخبا ، ص ١٩٢ . |
| (٧) | انظر الساق على الساق ، ص ٥٨٥ . |
| (٨) | كشف المخبا ، ص ١٩١ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ١٩١ . |
| (١٠) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٣ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ . |
| (١٢) | المصدر نفسه ، ص ١٩٢ . |

على نوعين ، المتأصلة والمتفرعة ، ولا بد أن يكون * في كل قرية في بلاد الفلاحين — كنيسة للمتأصلة * (١) والكنيسة المتفرعة وهي * أشد تحمسا وتصلبا من أولئك ، فقد يمحطون الناس في الطرق والحقول ، ويوزعون في البيوت كتباً ورسائل دينية ، وكذلك يفعلون في المدن الغنا * (٢) والكنيسة الإنجليزية * مثل الدولة في أنها لا تروم تغيير شيء من رسومها وتراثيها وأحكامها * (٣) وربما جاء هذا الوضع للإبقاء على انقياد الناس للكنيسة والدولة ، وبقاء كلمة الطرفين نافذة ، كما هو الحال في بلاد الإنجليز عامّة وايدنبورغ وجلاسكو خاصة (٤) وقد استفاد رجال الدين من هذا الوضع ، حيث ما ثلثوا الوزراء والأمرء في أخذ الرزاق والوظائف ، كذلك ماثلوهم في الرفعة والشأن ، والانفراد عن الرعية ، فإن مواجهة رئيس أساقفة الإنجليز ، أصعب من مواجهة البرنس البسمرت زوج الملكة * (٥) ويرى الشدياق أن اشتغال رجال الدين بالسباسة شغلهم عن * أرا * ما يجب عليهم من تعهد للرعية وتفقد أحوالهم * (٦) أما عن علاقة السلطنة الدينية بالسلطة الرعية عند الإنجليز ، فهما على وثام ، وذلك واضح من تأثيرهما على الرعية (٧) ، ولكن الملحوظ عندهم أن حرية الأديان مكفولة (٨) ، إلا أن ديسن الدولة هو الوسيلة الوحيدة للتعول ونوال الوظائف والمراتب ، فلا يمكن لأحد أن ينال وظيفة في إنجلترا وإرلنده ما لم يكن على مذهبها ، وهو الكنيسة الأسقفية (٩) ، وديسن الإيرلنديين على نقيض ديسن الدولة ، لذلك * أشرب الإيرلنديون بغض الإنجليز بلكونهم من أشد المتحمسين في الديانة الكاثوليكية ، والإنجليز على مذهب البروتستانت * (١٠) ومع

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٩٤ . المتأصلة والمتفرعة ، هما الكاثوليك والبروتستانت . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٩٢ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٩٤ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ . ايدنبورغ هي أدينبورغ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٣٤٤ . |
| (٧) | انظر كنز الرغائب ، ٥٥ / ١ . |
| (٨) | انظر كشف المخبا ، ص ١٩٥ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ١٩٥ . |
| (١٠) | كنز الرغائب ، ص ١٨٤ / ٢ . |

كل القيود الرسمية على الوظائف والحياة الاجتماعية ، فإن المذاهب في بلاد الانجليز متعددة ، ومن هذه المذاهب والجماعات ، ذكر الشدياق ، جماعة الكويكرز Quakers في بريستول * وهم صنف من النصارى ، إلا أنهم لا يعتقدون بالمعمودية ، ولا بالقرهـان ولا يقرأون الإنجيل في كنائسهم ، ولا علوات معينة وليس لهم شعائر ، ولا قسيسون كما للنصارى * (١) وقد حظرت الدولة عليهم دخول " مجلس المشورة ، ولا أن يتولوا المناصب العمومية * (٢) ولذلك فإن " كسبهم المال إنما هو من التجارة * (٣) كما انه " لا يكاد يوجد بينهم فقير * (٤) وذكر الشدياق جماعة تسمى شيعة سوينبرغ وهم يعتقدون " أن الله واحد ، وأنه ظهر في إنسانية المسيح ، وأن جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن * (٥) ومن صفاتهم " أنهم يؤولون كل لفظة وردت في التوراة بمعنى غير الظاهر منها * (٦)

وأما الفرنسيون " فكلهم على مذهب واحد * (٧) ومع وجود قلة من الكاثوليكين بينهم إلا أنهم يتمتعون بحرية في الكتابة والنقد (٨) ، ولرجال الدين والراهبات في فرنسا دور متميز في الحياة الاجتماعية والثقافية (٩) ، كما أنهم " أهل علم ودراية * (١٠) وقل أن يوجد عندهم تدليس ورياء ، لأن من أراد ذلك انقطع عن الكنيسة أصلاً (١١) ، لذلك تجدهم " قدوة في الفضائل والمحامد * (١٢) .

يمشأ أهل فرنسا للدين والدنيا معا ، فيذهبون إلى الكنائس صباحا وفي المساء إلى الملاهي * (١٣) بينما يتظاهر الإنجليز بالتدين ، ودليل ذلك

- (١) كشف المخبا ، ص ١٩٧ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٧) كنز الرغائب ، ص ٨ / ٢ .
- (٨) انظر الساق على الساق ، ص ١٨٩ .
- (٩) انظر كشف المخبا ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .
- (١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤١ .
- (١١) انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .
- (١٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

أن مدينتي أكسفورد وكمبريدج، وهما مدينتا القسوسة، فيها من البغايا ما يكفي أهلها وغيرهم (١)، وقد انفردت فرنسا عن بقية بلاد أوروبا عامة، وبريطانيا خاصة بوجود جماعة "ينكرون وجود الباري تعالى، ولا يتدينون بدين من الأديان، وسياستهم مبنية على إركاس جميع الدول، وعلى مشاركة الأغنياء في أموالهم، وتقسيم الأرض والعقار بين العمة وأصحاب الصنائع." (٢) وقد أطلق عليهم اسم "الكومينيون"، وهؤلاء يرفضون مثل هذه الأفكار، ويرى "ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسدود، والرئيس والمرؤوس." (٣) ولكنه يود ألا يتدخل رجال الدين في حياة الناس، لذلك أعجبته رجال الدين في فرنسا، في علاقتهم بالرعية والسياسة، ورجح كفتهم في هذا المضمار على رجال الدين عند الانجليز، الذين من رأيهم التدخل في كل شيء (٤)، ويرفضون مثل هذا الأسلوب الذي تشجعه الدول الأوروبية، حيث تكرر رؤساء الدين، للتسلط على رقاب الرعية، وإبقائهم في حالة الجهل (٥)، وربما جاءت مثل هذه السياسة استرضاءً للكنائس، وبعد أن سلبتها السلطة الزمنية بعض امتيازاتها في شؤون الزواج وبعض الشؤون الاجتماعية الأخرى، كما حدث في إيطاليا وإسبانيا وعند الانجليز (٦). ليست دول أوروبا على مذهب واحد، لذلك كان هم كل فريق أن يبعد رعيته عن تأثير الفريق الآخر (٧)، وأظن الشدياق في هذا الموضع يريد الإشارة إلى اتساع دائرة الصراع الديني في أوروبا، وتأثيرها على العلاقات السياسية بين الدول الأوروبية.

وفي مجال السياسة، شغلت قضايا الحرية والإخاء والمساواة، حيزاً كبيراً من اهتمام الشدياق، وقد كون في هذا الصدد مفهوماً للحرية التي تنفي إلى مصلحة الجماعة، لا إلى المصلحة الفردية (٨). لذلك لم يقر الحرية المطلقة، ومن هذا المنطلق

(١) انظر الساق على الساق، ص ٥٤٣. وكشف المخبا، ص ١٩٥.

(٢) كنز الرغائب، ٢٢٣/٢، ربما يعني الشدياق الشيوعيين.

(٣) كشف المخبا، ص ٢٧٢.

(٤) انظر كنز الرغائب، ص ١٠٩/١.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ١١٠/١.

(٦) انظر المصدر نفسه، ١٩٤/١.

(٧) انظر المصدر نفسه، ١١١/١.

(٨) انظر الواسطة، ص ٧٥.

هاجم الغوضى عند الفرنسيين ، وهاجم تعدد الأحزاب ، ورأى أن مثل هذه الحرية جعلت فرنسا في حالة من الهرج والمرج على حد تعبيره ، مما خلق حالة من التآلب والشقاق فيها (١) ، ومثل هذه الحرية قد أفضت بدولة مثل إسبانيا إلى التأخر فسي مجال التمدن ، فسبقتها جميع دول أوروبا (٢) ، وأعجبه بعض مظاهر الحرية فسي أوروبا ، ومن ذلك حرية الصحافة التي تدافع عن الضعفاء ، وتهاجم تسلط الأغنياء ، والأقوياء (٤) ، ولكنه في كل الأحوال يظل مع الحرية العقيمة ، وهذا واضح من موقفه من حق اللجوء السياسي في قوله " إذ ليس من عدل السياسة أن شريرا مفتالا ، يفعل ما يفعل في بلاده من المنكرات والموبقات ، ثم يحتج بحماية بلاد أخرى ، قالتساهل في هذا إغراء بالشروط " (٤) وقد أعجب بهذا الصدر بكل من إسبانيا والبلجيك وسويسره ، لرفضها إيواء مثل هؤلاء " (٥) ونتيجة للحرية المطلقة التي رفضها الشدياق فقد رآب الفرنسيون مثلاً " على تغيير الحكومة ، وتبديل السياسة " (٦) ويرى أن مثل هذه الحرية تتصف بالسماجة والشناعة على حد تعبيره (٧) ، لأن ذلك قد أفضى بالفرنسيين إلى التطفل على أولياء الأمر (٨) ، ويعجبه الإنجليز في هذا المضمار ، حيث لا يهترض الناس هناك على ذوى الأمر والنهي ، لذلك قلت عندهم الغتن (٩) ، وقد وضع الشدياق يده على السبب الرئيسي وراء عدم تدخل الإنجليز في السياسة بقوله : " إن لذلك سببا آخر ، وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضروري " (١٠)

رفض الشدياق المبودية باشكالها كافة ، لذلك فهو معجب بدولة روسيا وأمريكا

- | | |
|--------|------------------------------------|
| (١) | انظر كنز الرغائب ، ٢ / ٩١ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ٢ / ٩٢ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ١ / ٨١ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨ . |
| (٦) | كشف المخبا ، ص ٢٧٣ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١١٦ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٦ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ١١٧ . |

لقضائهما على العبودية (١) ، ويرفض كل ما يمارس ضد العبيد المحررين بعد إعلان
لنكولن ، حيث يحاول الشعب الأمريكي من البيض ، جعل مثل هذا القرار حبراً على
ورق ، وإبقاء استعبادهم للزواج (٢) ، وفي هذا الإطار يحمل الساسة مسؤولية تكريس
العبودية ، خاصة وأن تحرير العبيد في كل من روسيا وأمريكا ، جاء بقرار رسمي مــــن
هؤلاء الساسة ، كما يحمل الساسة مسؤولية تحويل الحرية إلى شكل من أشكال الفوضى
ويضرب مثلاً على ذلك بالملوك الفرنسيين الذين كانوا يحاولون إيهام شعوبهم بخلاف
الحق ، فيغلظون في معاملتهم ويحرمونهم من كثير من الحقوق التي يتمتع بها غيرهم (٣)
من هنا يتبين من يقرأ للشدياق ، أنه لا يرضى العبودية المطلقة ، ولا الحرية المطلقة
ويرى أن الحرية يجب أن تخدم المجتمع مهما كان نوعها ، فأعجب بحرية الصحافة (٤) ، وحرية
المذاهب والأديان (٥) ، التي تفضي إلى حرية تأويل الدين (٦) ، وحرية الرأي (٧)
وساء من كل هذه الحريات ، حرية التجارة التي تفضي إلى سلبيات كثيرة في بلاد
الإنجليز (٨) .

أدرك الشدياق أن مظاهر المساواة في بريطانيا تكاد تكون معدومة ، وذلك
بسبب الطبقة التي رفضها بقوله : "إذا كان الناس عباد الله في أرضه على اختلاف أحوالهم
ومراتبهم هم كالجسم الواحد ، باختلاف ما فيه من الأعضاء الجليلة والحقيرة ، فلم لا يجرى
العدل بينهم" (٩) ، وحديثه هذا جاء بصدور حديثه عن فقراء لندن ، الذين
يعانون من الفقر ، وتنعكس مظاهر الطبقة عند الإنجليز في مجالات مختلفة ، مثل الوظائف
التي تباع فلا يقدر الفقير على شرائها (١٠) ، والمرتبات تعطى غالباً بالمحاباة

-
- | | |
|------|--|
| (١) | انظر كنز الرغائب ، ٨٥/١ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ٦٨/١٤ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ٧٧/٢ . |
| (٤) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٩٠ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٩٥ ، ٢١٣ ، وانظر أيضاً الساق على الساق ، ص ٢١٩ . |
| (٦) | انظر الساق على الساق ، ص ١٨٧ . |
| (٧) | انظر كنز الرغائب ، ١٨٦/٢ . |
| (٨) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٩٠ . |
| (٩) | الساق على الساق ، ص ٥٩٢ . |
| (١٠) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٩٠ . |

لا بالاستحقاق". (١) ومثل هذا الوضع يلغي تكافؤ الغرض، لذلك تجد الوزراء ورجال الدولة كلهم أشرافاً من جلة الناس بخلاف بعض الدول". (٢) كما أن الدين يتدخل في مثل هذا التوزيع للوظائف والمراكز " فلا يمكن لأحد أن ينال وظيفة في إنكلترة أو إيرلنده ما لم يكن على مذهب الكنيسة الأسقفية". (٣) ويتضح عدم المساواة عند الإنجليس في أن القانون عندهم " ملحوظ في مصلحة الكبراء". (٤) وينعكس هذا على بعض الشؤون الاجتماعية، فالغني يمكنه أن " يطلق امرأته برفع دعواه إلى مجلس المشورة... والفقير لا يمكنه". (٥) ومثل هذه التفرقة، جعلت الشدياق يرى أن " من ليس له غنى فسي هذه البلاد، فلا يحسن نفسه من الناس". (٦)

يختلف الأمر تماماً في فرنسا، حيث رأب حكومتها " تولية العراب مــــن يستحقها". (٧) ولكنه يرفض المساواة التامة التي ينادي بها الكومينيون لأن ذلك على حد قوله " مخالف للترتيب الطبيعي". (٨) ويقر سياسة متبعة في أوروبا وهي أنه إذا أصدرت مجالس شوراهم قانوناً، نفذ حكمها على الكبير والصغير". (٩) لذلك يظل الأوروبيون لهجين بذكر بلادهم، وخاصة الفرنسيين فهذه الصفة عندهم " أشهر وأظهر". (١٠) أفاض الشدياق في حديثه عن القوانين الإنجليزية، وصدر حديثه عنها بنقد شديد، فرأى أن هذه القوانين " أطول الشرائع أحكاماً، وأكثرها قبلاً وقلاء". (١١). ورأى أن السبب في ذلك يعود إلى المصادر الكثيرة التي استمد منها الإنجليز قوانينهم منها القوانين الرومانية والنورماندية، والصكسونية، وقوانين بحكم السنة والعادة، واجتهادات

-
- | | |
|------|---------------------|
| (١) | كشف المخبا، ص ١٥٢. |
| (٢) | المصدر نفسه، ص ١٦٢. |
| (٣) | المصدر نفسه، ص ١٩٥. |
| (٤) | المصدر نفسه، ص ١٢٩. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ١٢٥. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ١٢٥. |
| (٧) | المصدر نفسه، ص ٢٩٠. |
| (٨) | كنز الرغائب، ٢/٢٣٣. |
| (٩) | المصدر نفسه، ١/٦٦. |
| (١٠) | المصدر نفسه، ٨/٢. |
| (١١) | كشف المخبا، ص ١٤٢. |

القضاة ، وأحكام مجلس المشورة ، وأحكام الكنيسة (١) ، ووضع يده على ثغرات كثيرة فسي هذه القوانين ، من ذلك " عدم ذكر الطاهر والنجس ، وما يؤكل وما لا يؤكل أو ذكر حيض المرأة ونفاسها ، وحدادها وعدتها " (٢) ، وظلم القضاة الذين " لا يعجزهم أن يصيروا الظلام نورا والنور ظلاما " (٣) ، وأورد أمثلة على المظالم التي تتم بسبب تعدد القوانين من قبل القضاة ، مما يضيع الحكمة التي يؤمن بها الشدياق " القتل أنفى للقتل " (٤) ، ومن ثغرات القوانين الإنجليزية ، قلة وجود محاكم وقضاة في البلاد البعيدة والقرية للفلاحين وهذا يفضي إلى سجن المتهمين شهرا ، قبل أن يمر القاضي لينظر في أمرهم (٥) ، ووجسه نقدا شديدا لنظام الكفالة ، حيث لا يجد الفقير مالا أو كفيلة فيبقى في السجن إلى ما شاء الله ، ويوجد الفني المال والكفالة ، فلا يمكث في السجن إلا زمنا قليلا ، يخرج بعد ذلك لمباشرة أعماله (٦) ، كل هذه الثغرات أدت إلى كثرة المخالفات والمجرمين عند الإنجليز ويقول الشدياق نقلا عن جولد سميث Goldsmith " إنه يوجد في بلادنا من المجرمين المحكوم عليهم في سنة واحدة أكثر مما يوجد في نصف أوروبا ، فلا أدري هل سبب ذلك كثرة قوانيننا ، أو تعدد أهل بلادنا ، ولعل ذلك مسبب عن كليهما " (٧)

تحدث الشدياق عن بعض التجاوزات عند الإنجليز ، الناتجة عن عدم صرامة القوانين ، حيث يؤدي ذلك إلى إصابة المجتمع بالأضرار ، فنقد قلة رقابة الدولة على التجارة ، مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار والغش (٨) ، بينما تسيطر الدولة في فرنسا على " الأصناف ، ويختبرون الحليب ، والخمر ، والدقيق ، واللحم ، والسك ، وما أشبه ذلك ، على حين غفلة من الباعة ، فإذا ما وجدوها مفسوشة أو فاسدة ، غرموهم ، وشهروهم فسي

- | | |
|-------|---|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ١٤٢ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٤٢ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٤٠ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤١ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٤١ ، نقل الشدياق هذه المعلومات عن Goldsmith وهو شاعر وروائي وكاتب مسرحي بريطاني " ١٧٣٠ - ١٧٧٤ " انظر منير بعلبكي ، المورد ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٧ ، ص ٣٩ ، (معجم أعلام المورد) . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ . |

في صحف الأخبار. (١) حتى أن الجنازة عندهم "مسرة من الديوان" (٢) وبالسف
الإنجليز في رسومهم على الجنازات (٣)، وعند الفرنسيين "لا يباح لأحد أن يكسب مالا
بغير الوجه الذي يؤوله إلى ذلك، فلا يسوغ مثلاً أن يتعاطى الطب وهو جاهل
فيه... (٤) .

تختلف قوانين الزواج المتبعة في فرنسا عن المتبعة في إنكلترا، فالفرنسيون
لديهم زواج شرعي. وزواج مدني يعقد في الديوان لا في الكنيسة، وهذا لا يمنع الفرنسيين
العابدين المتدينين أن يعقدوه في المكانين كليهما (٥)، وعند الإنجليز لا بد أن "تُشهر
الخطبة في الكنيسة" (٦) وفي اسكوتلندة "فإن الزواج يتوقف على شاهدين فقط" (٧)
ولكن الغريب في كل هذه القوانين، أن الإنجليز قد يبيع زوجته، ويسكت القانون على
ذلك، مثل سكوتة على الزنا والموسسات (٨)، على الرغم من وجود قانون إنجليزي مفاده
أن "من تزوج امرأة زوجها حي، مغرم ونكّل" (٩)

ذكر الشدياق طرفاً من قوانين المقويات المتبعة عند الإنجليز، وغالبيتها
تتعلق بالاغتصاب، وحق الزواج بين أصحاب المذاهب والديانات المختلفة، وحق
الأب بتزويج ابنته من يشاء إذا لم تبلغ السن القانوني، وحدد السن القانوني للذكور
والنثى في الزواج، وطرفاً من قوانين الإرث، وحق الأب أن يحرم من يشاء من أولاده
والسن الشرعي للموصية، وقوانين التسول (١٠)، ورجح كفة الفرنسيين، في أنهم "أوفق
من الإنجليز في السجون" (١١) وتحدث عن قوانين الضرائب عند الإنجليز، حيث
يفرضون ضرائب على المواليد (١٢)، وللدولة الحق في فرض ما تشاء من الضرائب فسي

- (١) كشف المخبا، ص ٢٩٠.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.
- (٣) انظر المصدر نفسه، ص ١٨١.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
- (٥) انظر المصدر نفسه، ص ٢٧١.
- (٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
- (٧) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
- (٨) انظر المصدر نفسه، ص ١٧٧.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.
- (١٠) انظر المصدر نفسه، ص ١٧٨، انظر أيضاً المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٢٤١.
- (١٢) انظر المصدر نفسه، ص ١٨١.

زمن الحرب عن عريق مجلس المشورة (١) ، ويخلص الشدياق بأن الأحكام في فرنسا أقوم وأعدل ، إلا أن القضاة عند الإنجليز أصلح وأعدل (٢) ، وإن كان قد أخذ على الإنجليز بالإضافة إلى ما سبق ذكره ، أن المذنب لديهم ، يلتزم بالمصاريف ويطلق سراحه بينما الحكم في فرنسا هو خصم المذنب ، وأنهم يفرمون ولا يوقعون القصاص ، بينما في فرنسا كل مخالفة لها قصاص ، وهذا من وجهة نظره أفضل في ردع المخالفين . (٣) ،

وتتمكس القوانين على المظاهر الأضنية ، ففي بلار الإنجليز تحدث " بلايا كثيرة " (٤) منها تزيف النقود وسرقة الديار وحتى البريد ، ولا يعرف مثل ذلك في باريس ، كما أن جرائم القتل في باريس أقل منها في لندن (٥) ، ويمتدح الشدياق صفة عند الإنجليز ، تميز علاقة الحاكم بالمحكوم وهي " أن أحد الإنجليز ، إذا كان يملك مثلاً مليون ليرة ، لم يخش من ملكه أو أميره أن ينفسا عليه بذلك " (٦) حتى أنه يحق للواحد عندهم أن يقيم الدعوى على ابن عم الطكة ، إذا كان له حق عنده (٧) ، ولكن الإنجليز " يعاملون الإيرلنديين بالقسوة والجفاء " ، ويرون أن لهم عليهم حق التغلب والقهر ، وهو رأبهم في جميع البلار التي تغلبوا عليها " (٨) إلا أن بلارهم أيضاً تعتبر " ملجأ القارين ومأمن القارين " (٩) .

تسهم الشرطة في تحقيق الأمن وتنفيذ القوانين ، من هنا نالت هذه الفئسة اهتمام الشدياق في كل من بريطانيا وفرنسا ، وقد رجح الشدياق كفة الشرطة الفرنسية على الشرطة الإنجليزية في تحقيق الأمن ، إذ يتواجد هؤلاء " حيث يزدهم الناس كالملاهي ، والمراقص ، ومواقف سكة الحديد " (١٠) ، لذلك تكون هذه الأماكن غالباً

- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ١٥٠ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ١٠٧ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٧ . |
| (٨) | كنز الرغائب ، ١٤٢/٢ . |
| (٩) | كشف المخبا ، ص ٧١ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ . رجح الشدياق كفة الشرطة الإنجليزية بشكل عام في بريطانيا على شرطة فرنسا انظر الكشف ، ص ٣٢٦ . |

هادئة ومنظمة والدولة تهسي^{*} للشرطة في باريس أماكن خاصة في الشوارع لمراقبة الأوضاع بينما لا توجد الشرطة في لندن في الأماكن العامة فتعم الفوضى ، وقد يدخل الشرطي الانجليزي الى المطهى ويتفرج مع الناس (١) ولا يحق للشرطي الانجليزي حمل السلاح بينما يحق للشرطي الفرنسي ذلك (٢) كما يحظر على شرطة الانجليز دخول المضازل وشرب الدخان ، والا تقاء من المطر أو الثلج (٣) ، ويبدو أن علاقة الشرطة الانجليزية بالجمهور علاقة مودة حيث أن الطفلة هناك^{*} تمر بالشرطة كأنها مرت على بعض أقاربها فتسألهم ويجاوبونها ، وتستترشد هم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها^{*} (٤) ومن مهمات الشرطة الانجليزية ايضا^{*} أن تمنع الرعية من حمل السلاح ظاهرا أو خفية ، ومن أذى الحيوانات وتحملها مالا تطيق^{*} (٥) وفي التقويم النهائي لشرطة بريطانيا وفرنسا فإن^{*} شرطة لندرة خير من شرطة باريس^{*} (٦) وان رجحت كفة الثانية في المظهر العام ، والحفاظ على الأمن في أماكن الازدحام كما سلف القول .

تحدث الشدياق عن بعض ملامح النظم الإدارية والسياسية عند الإنجليز فأفاد أن نظام الحكم ملكي ، و^{*} تلك الإنجليز وراثية ، وللمجلس المشورة أن ينقله من عيلة إلى أخرى^{*} (٧) ويقسم الملك يوم تتويجه أن يحافظ على أمور ثلاثة ، أولها أن تكون سياسته بحسب القوانين والأحكام ، وثانيها ، إجراء الحكم بالرحمة ، والثالث إقراره مذهب الدولة ، وهو دين البروتستانت (٨) ، ومن المزايا التي يتمتع بها الملك الإنجليز أن يأذن بالحرب والصلح ، وتعيين السفراء ، وقبول السفارات من الدول الأخرى والعفو عن الجنايات ، وأن يخص من يشاء بالشرف والألقاب ، وتنصيب القضاة والحكام ويولي الوظائف العسكرية ، ورفض ما يقدم له أهل المجلس من الدعاوي والقضايا أو قبولها وهو يترأس الكنيسة ، فيعين الأساقفة عن طريق وزرائه^{*} (٩) كما تحدث الشدياق عن

(١) انظر كشف المخبا ، ص ٣٢٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٦١ .

(٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ .

(٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ .

مخصصات الطك أو الطكة ، وأفاد أنه إذا لم تكف هذه المخصصات ، يؤخذ من الخزينة على سبيل القرض ، وتسدد من إيراد العام الذي يليه . (١) ، ومن مزايا الطك أنه لا تقام عليه دعوى من أى جهة كانت . (٢) .

من مزايا أسرة الطك ، أن يحق لزوجته أن يقال لها طكة ، حتى بمسدد وفاته ، كما أن لها الحق في المبيع والشرأ باسمها ، ولابن الطك حق من يوم مولده أن يدعى أمير والس ، وكل أولاد الملك ينعتون بالنعمة الملكي (٣) ، وكلمة بريطانيه تعني " انجلترا ووالس ، وإرلنده ، وهي منقسمة إلى اثنين وخمسين (كونتي) أى ولاية . " (٤) ينتخبون " ستمائة وثمانية وخمسون نائبا عنهم لمجلس المشورة . " (٥) ومن يرشح نفسه لمجلس المشورة ، يجب أن تتوافر فيه شروط منها : أن يكون له إيراد ستمائة ليرة في العام من رزقه ، وأن يكون قادرا على التفرد للنظر في مصالح الرعية . (٦) ويرى الشدياق أن الطبقة مكرسة في بريطانيا ، حتى في مجلس المشورة ، فهذا المجلس ينقسم إلى سادة ومسودين ، ويقال للأول مجلس السادات ، والثاني مجلس العامة . (٧) ويبلغ عدد مجلس السادات حوالي ٤٦٢ عضوا ، كلهم من أصحاب الوظائف العالية الذينهم والدنيوية ، ولا بد أن يكون منهم ستة وعشرون عضوا من مطارنة الإنجليز ، وثمانية وعشرون من أشرافهم (٨) ، وتظهر بعض ملامح الطبقة في بعض القوانين الخاصة بالمجلسين منها أن ما حكم به مجلس العامة " فلا بد أن يعرضوه على المجلس الأعلى " (٩) أي مجلس السادات ، و " ما حكم به هؤلاء السائدون ، لا ينقضه أصحاب المجلس الأدنى " (١٠) ولكن يحق للطكة " أن تبطل حكم المجلسين ، ولكن قلما تتجراً على ذلك " (١١) .

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٦٠ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ ، والس هي ويلز Wales . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |
| (١١) | المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ . |

أما محاكم الإنجليز فيجب أن تتكون من " اثني عشر رجلا ، يقع عليهم الاختيار فيجتمعون مع القاضي ، لفصل الدعاوي وهم على قسمين ، خاص وعام ، فالخاص يؤلف من الفقهاء وذوى الوجاهة ، لفصل الدعاوي الخطيرة ، وكل منهم يأخذ ليرة على كل دعوى والعام ، مؤلف من أصحاب الدكاكين والحرف لفصل الدعاوي الحقيرة ، ولا إيراد لهم " (١) ولرئيس هذه المجالس أن يمنع الاعضاء عن الأكل والشرب ، حتى يوافقوه على حكم من الأحكام (٢) ، أما رئيس البلدية الذى سماه الشدياق " ضابط البلد " ، فمن امتيازاته أن يتولى أمور المدينة دون معارضة ، وإذا مات الملك وهو على رأس عهده ، فله الحق أن يكون عضوا في مجلس السارات ، وله الحق مثل أعضائه في التوقيع والقبول والرفض (٣) ، ولكن الغريب في انتخاب رئيس البلدية عند الإنجليز ، أن ينتخبه الأهليون الذين لهم عقار وديار فقط ، وينتفى هذا الحق عن الآخرين (٤) ، وتحدث الشدياق عن بعض الطقوس المتبعة ، التي يقوم بها رئيس البلدية ، عندما يريد الملك دخول المدينة . (٥)

لم يتحدث الشدياق على الأوضاع الادارية في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية غير أنه أفاد أن السلطتين في أوروبا على اتفاق تام ، وأن رجال الدين في بريطانيا خاصة أجل وأشد احتراماً من بقية بلاد أوروبا (٦) ، ولكن الفرنسيين وعلى رأسهم صاحب الملك ، لا يغلطون شيئا " مما يؤول إلى أبهية الملك ، وشرف المدينة ورونقها " (٧) على عكس لندن تماما حيث لا تعتنى الحكومة بشيء من شأنه " تحسين المدينة وتنظيم ديارها " (٨) حتى أنه يجب على السكان " إصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور " (٩)

- | | |
|-------|--|
| (١) | كشف المخبا ، ص ١٤٠ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ . ضابط البلد هو رئيس البلدية Mayor |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥٥ . |
| (٦) | انظر كرز الرغائب ١١٠ / ١١ ، وانظر ايضا كشف المخبا ، ص ٣٣٦ . |
| (٧) | كشف المخبا ، ص ٢٦٧ ، صاحب الملك تفيد التعصم ولا يعني بها الشدياق فرنسا الملكية . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ . |

ولقلة اهتمام الحكومة بالشؤون والعراق ، يضطر السكان إلى دفن موتاهم في ساحات الكنائس (١) ، وغالبية الأمور المتعلقة بالخدمات ، كالمستشفيات والطرق والشرطة فلا تقوم الدولة بالإتفاق عليها (٢) ، على الرغم من أنها تحصل من الأهالي ضرائب مختلفة حتى على الشهابيين (٣) .

اهتم الشدياق بالشؤون العسكرية في الغرب ، فتحدث عن الجيوش عتادهما وأعدادها ، وقوانين الجيوش ونفقاتها ، ولم تكن جيوش بريطانيا وفرنسا محور اهتمامه فقط ، بل تعدى ذلك الاهتمام إلى هولانده ، وأستراليا ، وأمريكا . فأورد إحصائيات مختلفة ، تتعلق بالسفن الحربية في هذه الدول (٤) ، وتحدث عن نفقات الجيش الإنجليزي وأعداد (٥) ، ونفقات الجيوش الأخرى ، في بروسية ، وروسية ، وفرنسا ، والنمسا ، وأمريكا . وأفاد أن أكثر هذه الدول اتفاقاً على الجيوش هي أمريكا ، وتليها بريطانيا (٦) ، وقد وضع يده على بعض السلبات في القوانين العسكرية الإنجليزية ، ومنها ، أن مراتب الضباط الكبيرة والصغيرة تشتري بالدرهم (٧) ، ولكن نظام التجنيد عندهم ليس جبرياً " كما في فرنسا وغيرها بل بالاختيار " (٨) إلا أنه متى دخل أحد فيها ، لا يمكنه الخروج منها إلا بعد أن يقضي مدة خدمته وهي فيما أظن عشرين (٩) ، على حد تعبيره ومن السلبات التي ذكرها الشدياق في القوانين العسكرية عند الانجليز ، أن قيادة الجيش يتولاها دوك من عيلة الملكة ، وهو لا خبرة له في الشؤون العسكرية (١٠) .

ذكر الشدياق أيضاً عرفاً من القوانين المتعلقة بالمخالفات العسكرية ، منها إذا هرب العسكري إما أن يرمى بالرصاص ، وإما أن يشعوا صدره بحرف الدال ، إشارة إلى

- | | |
|--------|---|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٩٠ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٤ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٤ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ ، ٣٥١ . |
| (٥) | انظر الواسطة ، ص ٧٢ ، انظر أيضاً كشف المخبا ، ص ١١٧ . |
| (٦) | انظر كشف المخبا ، ص ١١٧ . |
| (٧) | كنز الرغائب ، ١٨٣ / ٢ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ١٨٥ / ٢ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ١٨٥ / ٢ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ١٨٥ / ٢ ، دوك هي دوق Duke . |

لفظ ديزرتير Deserter أى الهارب ، ويجب على العاطلين في المدفعية أن يقضوا مدة اثنتي عشرة سنة في الخدمة ، وربما أربع عشرة إذا اقتضى الأمر ذلك ، وتحدث عن نظام التقاعد لمن يؤدي إحدى وعشرين سنة في خدمة الجيش. (١)

وأما عن أقسام الجيش الإنجليزي ، فأشار أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الميليشيا Militia ويخدم أفرادها ثلاثة أسابيع في السنة ، لباسهم وسلاحهم وأجورهم من الدولة والفولنتير Volunteer أى المتطوعة من الموظفين والصناع وأصحاب الدكاكين وليس لهم أجر معلومة ، لباسهم وسلاحهم من الدولة ، واليوفيرى وهم من الخاصة والأشراف ، يشترون سلاحهم من مالهم (٢) ، ولكن الزي العسكري الفرنسي " أحسن من ملابس عسكر الإنجليز " (٣) ومع الجيش الفرنسي أيضا " نساء " للخدمة يتبعنهم ، وهن مترديات بلباسهم. (٤) ويتفوق الجيش الإنجليزي على الجيوش الأوروبية الأخرى ، بأنه مطواع قليل الشغب ، ويعزى الشدياق تسلط الإنجليز على أمم مختلفة وأراض شاسعة إلى هذه الصفة التي يتصف بها الجيش الإنجليزي (٥) ، بينما يتصف الجيش الفرنسي بحبه للفتن والتخريب على حد رأيه ، مما جر على فرنسا عداوة كثير من الدول (٦) ، وقد ركز الشدياق اهتمامه على قضية أساسية ذات علاقة بقوة الجيوش الأوروبية ، حيث أشار أن هذه القوة جاءت نتيجة طبيعية ، لقوتهم الاقتصادية الناتجة عن التطور الصناعي فيقول في هذا الصدر : " لا شيء يغني الأمة ، ويشهد عزها كمعرفة الصنائع والتجارة. " (٧) وقد جاء هذا القول في معرض حديثه عن هذه الجيوش وقوتها .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | انظر كنز الرغائب ، ١٨٥/٢٠ |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ١٨٦/٢٠ |
| (٣) | كشف المخبا ، ص ٢٥١ |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٥١ |
| (٥) | انظر كنز الرغائب ، ٩٠/٢٠ |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ١٤٧/٢٠ ، انظر أيضا كشف المخبا ، ص ٦٨ |
| (٧) | كشف المخبا ، ص ٢١٣ |

الأحوال الاقتصادية

لم ينفذ الشدياق العوامل الأساسية في التقدم الاقتصادي عند الفسرب
فالعامل الأول كما رآه عند الإنجليز مثلاً " أن دين القوم العمل ، فهم لا يستريحون منه
إلا إذا استراح هو منهم " (١) ، لذلك يعتمدون إلى " تنشيط أولادهم إلى الأشغال
وتعريضهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق الكافي ، والمواظبة على الأعمال والصبر على ما
يتعاطونه جلّ أو صفر " (٢) حتى أن حب الإنجليز للعمل ، أثر على تحييتهم المعتادة
How Do You Do ? وترجمتها على حد تعبير الشدياق ، كيف تعملون أنتم
تعملون ، وهي سمة تنبئ عن مزيد ميلهم إلى العمل " (٣) والعامل الثاني ، الثورة الصناعية
التي هي قوام الإنتاج الوفير ، وهذا ما أدى به أن يثبت إحصائيات مختلفة تتعلق
بمصادر الإنتاج التجاري والصناعي ، وسلك الحديد وغيرها من المصادر . (٤)

الصناعة

تحدث الشدياق عن صناعة التعدين عند الإنجليز ، وخاصة مناجم الفحم
في إنجلترا ، وإيرلند ، ودربي ، ونورثولند ، وجنوب ويلز ، فوضع يد القاري على حقيقتين
الأولى ، أثر هذه المناجم على تشغيل اليد العاملة ، فأشار أنه يعمل فيها ما يزيد على
عشرين ألف عامل ، والثانية ، كمية الاحتياطي المتوافر عند الإنجليز من مادة الفحم ، حيث
يمكن لهذه المادة أن تكفي الإنجليز مدة ألفي سنة (٥) ، وتحدث عن صناعة النسيج
في منشستر ، ورووس الأموال التي وضعت تحت تصرف الصناعة الحديدية ، والصوفية
والحريرية (٦) ، وأدرك أيضاً أن الثورة الصناعية ، أحدثت تغييراً كبيراً في تركيبها

-
- | | | |
|-------|------------------|---------------------------------------|
| (١) | كشف المخبا | ص ٣٨٥ . |
| (٢) | المصدر نفسه | ص ١٥٤ . |
| (٣) | المصدر نفسه | ص ١٥٤ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه | ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه | ص ٩٩ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه | ص ١٠١ ، ١٠٢ . |

المجتمع الإنجليزي ، فهو يتحدث عن مانشستر على سبيل المثال قبل الثورة الصناعية وبعدها فيقول : " كان أهلها إذ ذاك نحو ستة آلاف ، ولم يكن فيها مطبعة ولا عجلة وآلآن فيها مائة مطبعة وعشرون عانما للمجلات " (١) وأن هذه الثورة أتاحت الفرصة لمئات الألوف ذكورا وأناثا للعمل في المصانع الإنجليزية . (٢)

أما عن الصناعة وجودتها فقد رأى الشدياق أن الصناعة الفرنسية ذات سمعة أفضل ، حتى في بلاد الانجليز ، مما دفع هؤلاء أن يكتبوا على صناعتهم أنها فرنسية (٣) ، ولكن صناعة الفرنسيين مع هذه السمعة " يظهر عليها الرشاقة والعشق والطلاوة ، وما يصنعها الإنجليز يكون جزلا متينا " (٤) وهذا واضح في صناعة القطارات الإنجليزية والفرنسية (٥) والملاهي المخيطة في البلدين . (٦)

لم يهمل الشدياق المظاهر السلبية التي تترتب على الثورة الصناعية ، فوضع يده على مظاهر الاستغلال وخاصة عند الانجليز ، فرأى أن العمال هم " كالنحل المسالمة في خلية المجتمع الإنساني ، إنما يعملون كما قال بعضهم لتسمين الزنابير البطالة " (٧) وكانت الثورة الصناعية ذات أثر سلبي على الأخلاق ، فكانوا قبل الثورة الصناعية " أسخس منهم الآن " (٨) وتغير أسلوب أصحاب العمل والمصانع مع اليد العاملة ، فهم الآن " يشارطون ويستحطون من الطلب " (٩)

التجارة والزراعة

قوام التجارة في أوروبا كما أفاض الشدياق ، الشركات بأنواعها المختلفة ، مثل شركات التأمين ، التي سماها الضمان ، وشركات مساهمة ، نتج عنها سوق عظيم للتجارة

-
- | | |
|-------|--|
| (١) | كشف المخبيات ، ص ١٠١ ، ١٠٢ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢١١ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ ، انظر أيضا الواسطة ، ص ٤٩ . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٥ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١١٢ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٦٢ . |
| (٩) | المصدر نفسه ، ص ١٦٢ . |

بالأسهم في باريس ولندن ، وأفاد أن التجارة المساهمة أصبحت ماثرة إهتمام الرجال والنساء على السواء بوساها البورس . وهذه التجارة الرائجة ، تطلبت تقليل أصفاف النقود ، لتيسير أسباب المعاملة . (١) وللغرض ذاته ، انشئت المصارف والبنوك (٢) التي تحتوي على الآلات التي تختصر الوقت بالانجاز السريع ، مثل موازين السبائك والآلات طبع النقود (٣) ، وأكثر الشركات المساهمة في أوروبا انتشارا ، شركات سكك الحديد فمثلا * كل واحد من خمسين من أهل إنجلترا متوقف معاشه ومصلحته على سكة الحديد . (٤) فهي تشغل من الأيدي العاطلة حوالي * تسعين ألفا ما بين رئيس ومرووس . * (٥) وتدر أرباحا طائلة ، وفي بروسيا شركة للسكة الحديد ، رأس مالها أربعة وأربعون مليوناً وثمانون ألف ليرة (٦) ، وأما التجارة الخارجية التي قوامها الشحن البحري ، فقد أهتمت كل من بريطانيا وفرنسا بالشواطئ ، ومن أجل ذلك فإن * شطوطها بأجمعها مرصعة بالمناشر والأعلام لهداية السفن . * (٧) ويتفق على هذه الشواطئ والمراسي والمرافق من رسوم تؤخذ على السفن المشحونة التي تربيها (٨) ، وذكر الشدياق أشهر مراسي أوروبا وهو مرسى مرسيليا ، الذي هو نموذج للمراسي الأوروبية ، حيث يتسع لألف ومائتي سفينة مما اضطر الفرنسيين أن يقطعوا خليجا من البحر لتوسيعه (٩) ، إذ أن لفرنسا تجارة واسعة مع الشرق وإفريقيا وإنجلترا ، والبحر الأسود . * (١٠) ويساهم البريد فسي أوروبا مساهمة كبيرة في تسهيل المعاملات التجارية ، من خلال نظام الحوالات ، الذي يعرفه الشدياق بأنه نظام دقيق . (١١)

-
- | | |
|--------|---|
| (١) | انظر كشف المخيا ، ص ١٥١ ، البورس هي ما يعرف الآن بالبورصة . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ١٠٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١٠٤ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٣ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٨٧ . |
| (٨) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٧ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٨ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ٦٩ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٥١ . |

لم تكن الجوانب الإيجابية وحدها هي التي لفتت نظر الشدياق في الوضع الاقتصادي الأوروبي ، بل وضع يده على الجوانب السلبية التي انعكست على الأوضاع الاجتماعية ، وفي الوقت الذي كانت أوروبا تعيش تخمة اقتصادية ، فإن الفقراء في بلاد الإنجليز يملأون الشوارع (١) ، بالإضافة إلى استعمار الشعوب والبلاد ، بهدف ترويج التجارة (٢) ، وتهافت الإنجليز خصوصا على الكسب ، فإن باعة لندن واكسفورد وكمبريدج يتقاضون فوق القبة ، وخاصة من الغرباء الذين لا يعرفون الأسعار (٣) ، من هذا المنطلق كثر نهمهم ، ونصبهم ، وكدهم ، وهمهم (٤) ، حتى أن الإنجليز إذا سألوا عن كمية ما يملكه الإنسان من المال قالوا : " كم قبة هذا الرجل ؟ " (٥) ، وقد صرفوا همهم عن العلم والثقافة إلى كسب المال ، مخالفين في ذلك بقية شعوب أوروبا (٦) ، ويتفوقون في إضافة صفات كاذبة على بضائعهم لاغرا المشتري (٧) ، والإيجابية البارزة التي رصدها الشدياق في هذا الإطار تتمثل في الإيرادات الضخمة لخزائن الدول الأوروبية (٨) ، مما يفيد في تقوية البنية السياسية لهذه الدول (٩) .

واضح من حديث الشدياق عن الثروة الزراعية في أوروبا ، أنها تأثرت بالشورة الصناعية ، والتقدم العلمي ، حيث اتبع الأوروبيون الأساليب الزراعية الحديثة ، فاستعملوا الببوت الزجاجية (١٠) ، لزراعة محاصيل البلاد الحارة ، بالإضافة إلى استعمال المبيدات الحشرية لقتل الدود والحشرات (١١) ، ويتفوق الفرنسيون على الإنجليز في مجال الزراعة حيث أن إنتاج فرنسا من الفواكه والمحاصيل الأخرى ، كثير ومتنوع ، مما يمد معدوما

-
- (١) انظر كشف المخبا ، ص ٧٥-٧٦ ، انظر أيضا الساق على الساق ، ص ٥٩٣ .
 - (٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٤٧-٣٤٩ ، تحدث الشدياق عن الاستعمار الإنجليزي للهند .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .
 - (٤) انظر الساق على الساق ، ص ٩٧ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
 - (٦) انظر كشف المخبا ، ص ١٥٧ .
 - (٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
 - (٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦١ .
 - (١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
 - (١١) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

عند الانجليز على حد تعبير الشدياق ، في الوقت الذي يهتم الانجليز بزراعة القمح والشعير واللفت والبطاطة (١) ويتفوق الانجليز على الفرنسيين في مساحة الاراضي المزروعة ، حيث لا يترك الشجيز موطي * قدم بدون زراعة . (٢) ويمتتون بتربية المواشي وهد فهم من ذلك الاكتفا من الجلود التي يستوردونها من روسيا والغرب الأقصى (٣) وشجع منذ هذا الاهتمام المراعي الواسعة النضرة (٤) ومع أن زراعة الانجليز واسمة إلا أنهم * يجلبون كثيرا من المأكول والمشروب من البلاد الاجنبية . (٥) .

الثقافة والمعلوم والمختراعات

تتعاون مجموعة من الأسباب في بلاد أوروبا لخلق جيل متعلم ومثقف ، ومن هذه الجهود ، جهود الأسرة ، فالطفل الانجليزى * لا يبلغ هنا خمس سنين الا ويكسبون قادرا على القراءة . (٦) وتقوم الحكومات بتسهيل كل ما من شأنه توصيل العلم للراغبين ، ففي فرنسا يسهل * تحصيل العلم والصنائع . . . لكثرة المدارس ورخصها . (٧) ولأن فرنسا متفوقة على بريطانيا في هذا المضمار ، فإن الانجليز * ييمثون أولادهم إلى باريس ليتعلموا فيها ، ما ييسر تحصيله في بلادهم . (٨) هذا بالإضافة إلى أن * الكتب بأوروبا أرخص ما يكون . (٩) والتعليم في الغرب إما * مجانا أو يعطى مقابلة ذلك شي * زهيد . (١٠) وفي بلاد الانجليز تقوم الجهات الرسمية بتشجيع النابغين ، فمن نبغ في علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف . (١١) ويقرن الفرنسيون بين التعليم

-
- | | |
|--------|---------------------------|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٧٨ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨١ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٧٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٨١ . |
| (٦) | الواسطة ، ص ٧٧ . |
| (٧) | كشف المخبا ، ص ٢٩١ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٢٩١ . |
| (٩) | الواسطة ، ص ٤٥ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ٤٥ . |
| (١١) | كشف المخبا ، ص ١٣٠ . |

والتربية * فالأهم هناك ترشح ابنها للعلم والأدب والفضائل قبل أن ترسله إلى المكتسب فيتعلم فيها، ومن معلمه أيضاً أنه يجب عليه أولاً احترام والديه، والسعي في تعلم صنعة ينفع بها نفسه وبلاده ودولته وملكه. * (١) وفي باريس وحدها * إحدى وعشرون مدرسة ملكية. * (٢) وفي ليون * مدارس عديدة، ومدرسة سلطانية. * ولطلاب المدارس فسي باريس زى موحد، مثل ضباط المسكر، ولا توجد مهنة أو عمل في فرنسا إلا ويتوجب على الراغب فيها أن يتعلم شيئاً عنها، وحتى من رغب أن يعمل في التجارة * لزمه أن يمكث مدة طويلة في مكتب بعض التجار المعتبرين. * (٣) وهذا التعليم المباح في المراحل المختلفة من العمر، ينعكس على أبناء الإفرنج فأولادهم * عزيزة النفوس على صفر، ولهم نشاط وخفة ومبادرة. * (٤) ورأى الشدياق أن أفضل المدارس فسي أوروبا مدارس لينكونه. * (٥)

من عوامل انتشار الثقافة في الغرب، المكتبات، حيث ذكر الشدياق أسماء العديد منها، في كمبريدج واكسفورد، من ضمنها مكتبة عربية، وتحتوي هذه المكتبات على كتب كثيرة بلغات مختلفة (٦)، والمكتبات في لندن * يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة، وفي كل نصف سنة يتجدد الاذن. * (٧) وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة سبعين ألفاً، وتحتوي بعض المكتبات في لندن على مخطوطات كثيرة وثمينة، وخاصة في مكتبة المتحف البريطاني، حيث يوجد فيها ثلاثون ألف مخطوطة من ضمنها مخطوطات عربية جلييلة، مثل أدب الكاتب، والنوابغ، وديوان أبي تمام. * (٨) وتتفوق مكتبات فرنسا على مكتبات بريطانيا في أنها * تبيع استعارة الكتب من المكاتب

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | كنز الرغائب ١٥/٩٠. |
| (٢) | كشف المخبا، ص ٢٤١. |
| (٣) | المصدر نفسه، ص ٧١. |
| (٤) | كنز الرغائب ١٥/٩١. انظر أيضاً كشف المخبا، ص ٣٢٣، ٣٢٤. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ٩١/٩١. |
| (٦) | انظر كشف المخبا، ص ٦٨، لينكونه مدينة في إيطاليا. |
| (٧) | انظر المصدر نفسه، ص ١٣٠. |
| (٨) | المصدر نفسه، ص ٣٣٧. |
| (٩) | انظر المصدر نفسه، ص ٣٣٨. |

السلطانية في باريس ، فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم أن يستمروا كتاباً لبطاعوه في بيوتهم ، ويستفيدوا منه ، وفي لندرة لا يباح ذلك .^(١)

من سلبيات التعليم التي وضع الشدياق يده عليها في أوروبا وخاصة في الجامعات ، أنه لا يسمح لغير أهل البلاد التدريس في هذه الجامعات ، مع عدم قدرة أهل تلك البلاد على تعليم بعض المواد ، مثل اللغات المشرقية وخاصة العربية .^(٢)

وعند الإنجليز في جامعتي كمبريدج وأكسفورد ، يقتصر التعليم على أبناء الأغنياء فقط بالإضافة إلى ذلك تكبر الاساتذة والطلبة وانصرفهم إلى اللهو والمذات وهاتان الجامعتان تعلمان مواد مهمة كالأدب والفقه والفلسفة والرياضيات واللاهيات ^(٣) ، ومع وجود هذه الإمكانيات الهائلة في مجال التعليم ، فإن الجاهل لا يزال متفشياً عند الإنجليز ^(٤) والفرنسيون أفضل منهم في هذا المجال ، إلا أنهم يحسبون كل غريب بينهم من إسبانية ^(٥) . وأما الإنجليز فمن مظاهر جهلهم أنهم " مع كثرة قراءتهم للتوراة والإنجيل فلا يكادون يعرفون أين موقع دمشق مثلاً من الاسكندرية ، ولا يتذكرون شيئاً عن صور وصيدا وجبل لبنان ، مع أنها مكررة في التوراة " .^(٦) والجاهل بين نساء الإنجليز أكثر منه بين الرجال ، إذ تبلغ نسبة الجاهل بينهم أربعين بالمائة ^(٧) ، ويرجع الشدياق سبب جهل هؤلاء النساء إلى أن " رجال الإنجليز لا يريدون اعتكاف نساءهم على القراءة والكتابة لئلا يشحن عليهم " .^(٨) بالإضافة إلى خلق قرى الإنجليز من المدارس الجيدة والمعلمين المهرة ، وغاية ما تتعلم النساء في القرى ، شيئاً من القراءة والدين فـ في الكنيسة ^(٩) ، والجاهل متفش بين أبناء الطبقة الخامسة الذين " ما برحوا متسكعين فـ في

-
- | | |
|-----|--------------------------------|
| (١) | كشف المخبا ، ص ٢٩١ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٩ . |
| (٣) | انظر الساق على الساق ، ص ٦١٥ . |
| (٤) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٨٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ١١٩ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ١١٩ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٤ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١١٤ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٤ . |

في مهامة الجهل والفظاظة". (١) وهم بالقياس إلى عامة فرنسا في معزل عن المعارف والآداب". (٢)

ساهمت الطباعة والصحافة في نشر الثقافة بين الشعوب الأوروبية ، ففي باريس مثلا مطبعة حكومية " يطبع بها كتب باحدى وخمسين لغة " (٣) وفاقث لندن " مدن سائر العالم فيما يطبع فيها من صحف الأخبار والكتب " (٤) ولذلك فإن ما يطبع عند الإنجليز من الكتب وصحف الأخبار ، وما يلقي عليهم في الملاهي والملاعب ، لحري بأن يهتذب أخشن الأجيال في أعظم المحامد " (٥) حيث يوجد في لندن وحدها " مائة وستون جرنالا للأخبار الطارئة ، والأدبيات والعلوم " (٦) وفي باريس مائة وسبعون صحيفة للأخبار " (٧) وفي سكوتلاند ، مائة وعشرة جرنالات وفي إيرلندة جرنالان ومائة " (٨) ويعود هذا التقدم في مجال الصحافة ، إلى الثورة الصناعية ، وتحديدًا بمد معرفة الغرب لخاصية البخار ، حيث كان " أول طبع بالبخار في مطبعة جرنال التيمس وذلك في سنة ١٨١٤ " (٩) وأحدث الأوروبيون تطويرا على آلات الطبع ، وفي هذا الصدد يصف الشدياق آلة تعجب لها ، " تصف حروف الطبع بنفسها " (١٠) وبين الجدوى الاقتصادية المصداقة في أوروبا حيث أن الصحف على اختلافها " مع ما فيها من الأخبار والفوائد ، ومع حسن طبعها وورقها لا تلي بثمان الورق فقط ، لأن أصحابها يكسبون من الاعلانات " (١١) وبين الشدياق أيضا الدور الاجتماعي والسياسي الذي تلعبه الصحف في أوروبا ، فالصحافة الإنجليزية " لسان الأمة والدولة " (١٢) وأدرك الشدياق أيضا قضية هامة تتعلق بالصحافة وهي الحرية ، فأشار أن صحفية

- (١) كشف المخيا ، ص ١٦٠ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٦ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٧٦ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .
- (١٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .
- (١١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ .
- (١٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ .

الفرنسيين " مقيدون عن الجرى في مضمار الكلام ، فليس لهم حرية كما لكتاب الانجليز . " (١)
 ووضع أيضا يده على ثغرات وعيوب الصحافة ، مثل تناقض الأخبار ، وركاكتها وسخافتها (٢)
 وعدم اهتمام صحافة الانجليز بالأخبار المشرقية . (٣)

ادرك الشدياق أن الفنون ضرب من ضروب الثقافة ، وهي انعكاس لتمدين الشعوب
 فتحدث عن فني التصوير والنحت ، ومخيلة معلوماته في هذا الباب ، إلا أنه أصدر أحكاما قوامها
 أن الفرنسيين قد تفوقوا على الانجليز ، ففي مدة إقامته في لندن ، لم ير هناك إلا مصورة
 واحدة . (٤) ، بينما يوجد في باريس " من الحياض والتماثيل والملاعب والملاهي
 والصروح والأعلام ، وما ينسي الفريب وطنه . " (٥) وفي مجال فن العمارة فقد لفت نظره
 هذا الفن في باريس ، فذكر من القصور اللوثر الذي أصبح متحفا ، يحتوى على صور بالريشه
 من دول أوروبا كافتها ، ويدخل هواة الفن إلى هذا المتحف من الرجال والنساء ، يصورون
 عن بعض الصور المرسومة ، ويحتوى هذا القصر على اجنحة متعددة للمنقوشات والتحف
 والأدوات الحربية . (٦) ، وذكر قصر التويلري ، وقصر لوكسمبور ، وكادي درصي ، وهوتيل
 دوفل ، وقصر الصنائع الطرية ، والانسيتيو (٧) ، وهذه القصور كرسست لخدمة الثقافة
 الفنية ، حيث حولتها الدولة إلى معارض ومتاحف ، وهذا التحويل للقصور إنما " يرسدون
 به النفع لا مجرد الفخر . " (٨) وفي بريطانيا متاحف شهيرة مثل " المتحف البريطاني
 وهو الموضع الذي فيه التحف الفريية ، والأشياء العادية والحجارة المعدنية . " (٩)

تعتقد في أوروبا معارض سنوية ، والفرنسيون هم أصحاب الفضل في ابتداء هذه
 الفكرة ، وتلاههم الانجليز ، حيث تعرض في هذه المعارض تحف وغرائب من جميع أنحاء
 الكرة الأرضية (١٠) ، وتعتبر بعض الساحات العامة في باريس ، مثل ساحة بلاس دلا كيكور

- | | |
|--------|----------------------------------|
| (١) | كشف المخبأ ، ص ٣٧٦ . |
| (٢) | انظر كنز الرغائب ، ١٤٢ / ٢ . |
| (٣) | انظر كشف المخبأ ، ص ٣٧٥ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ . |
| (٨) | كنز الرغائب ، ٢٤٨ / ١ . |
| (٩) | كشف المخبأ ، ص ٣٣٦ . |
| (١٠) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ . |

معارض فنية دائمة ، حيث رأى فيها الشدياق من ضمن ما رأى ، مسلة فرعونية ، كانت قد انتزعت من موضع بعصر أمام هيكل طيبس ، وقد مها محمد علي هدية الى دولة فرنسا . (١)
أدرك الشدياق ما للمسرح من أهمية في تثقيف الشعوب الأوروبية (٢) حيث أفاد أن الفرنسيين تفوقوا على الأوروبيين عامة في هذا المضمار " إذ أن كثيرا من الإنجليز والنمساويين بل والروس ، يقصدون ملاهي باريس ، ليرى فيها من التمثيل ما لم يروه فسي في بلادهم إلا غير كامل ، وكلهم يقر بأفضليتها " . (٣) هذا بالإضافة إلى النشاط الأدبي ، والتأليف والترجمة من اللغات الشرقية وغيرها . (٤)

المخترعات والعلم

أدرك الشدياق أن التقدم العلمي في أوروبا " لم ينشأ عرضا أو بفترة ، بل بعد أعمال فكر وجهود وروية في مدد متعاقبة " . (٥) وأن أول ظهور " التمدن والفسون في أوروبا ، إنما كان في اسبانيا ، حين كان المسلمون مستولين على الأندلس " . (٦) ويعجب بصدور حديثه عن تفوق العرب في العصور السالفة ، كيف يد أول الله الأيام بين الناس (٧) حيث انعكس الوضع وتفوق الغرب على الشرق .

استعرض الشدياق مظاهر التقدم العلمي في أوروبا ، في مجالاته المختلفة ففي مجال الطب والصيدلة ، أفاد أنه في باريس وحدها " ألف وأربعمائة وستة وخمسون من الأطباء والجراحين ، وأربعمائة وسبعة وتسعون من باعة الأدوية أي الكيماويين " . (٨) وفي لندن مدرسة الجراحين التي بنيت سنة ١٨٣٥ م ، حيث يتعلم فيها الطلاب معرفة أجزاء الجسم الانساني ، من خلال الأعضاء والأطراف ، وتحتوي على أجساد العظام ، ومظاهر

- | | |
|-------|--|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٥٦ ، طيبس هي تاييس بطل اسطورية مصرية . |
| (٢) | انظر فصل الشدياق والأدب الغربي ، والشدياق والمسرح الغربي ، ص ١٣٥ - ١٤٤ . |
| (٣) | كشف المخبا ، ص ٢٤٦ . |
| (٤) | انظر البحث ، فصل الشدياق والأدب الغربي ، ص ١٢٦ - ١٥٩ . |
| (٥) | كشف المخبا ، ص ٢١٩ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ . |

الغربة في أشكال المواليد (١) ، وفي اسكتلنده مدرسة جامعة تحوى ستائة طالب سب في مجال الطب (٢) ، ومع وجود هذا التقدم في مجال الطب ، استغرب الشدياق عدم وجود خدمات طبية في قرى الانجليز (٣) ، حتى أن المدن الكبيرة يوجد فيها من يدعون الطب (٤) ، ففي مدينة بريستول في بريطانيا نوع من الطب أسماه الشدياق "العزرة" أنكره أهل الكيسة والأطباء ، ومن خلال وصف الشدياق لهذا النوع من الطب ، يستشف المرء أنه أراد " التنويم المغناطيسي " (٥) ، ولكن هذه المظاهر السلبية لم تلغ حقيقة مفادها أن لندن تحوى على أطباء مهرة وخيرين (٦) ، وعلى العموم فإن أطباء أوروبا من صفتهم الرفق بالمرضى ، ما عدا أطباء باريس على حد قول الشدياق (٧) ومن العلوم التي لعبت دورا هاما في التمدن والصناعة في أوروبا علم الكيمياء (٨) وخدمة لهذا الغرض أقيمت المختبرات العلمية والتشريحية لخواص الأشياء ، فيما يتعلق بالعلم والصناعة والآلات (٩) ، ففي باريس مكان لدراسة تاريخ الطبيعيات ، ومكان للتشريح (١٠) ، وفي لندن ، متحف خصائص الجيولوجيا ، ومتاحف تتعلق بعلم الحيوان (١١) ساهمت الجمعيات العلمية في تطوير العلوم في أوروبا ففي باريس وحدها أربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير . (١٢) بالإضافة إلى الأكاديميات المتخصصة في تهذيب اللغة وتنقيح أصولها وفروعها . (١٣) حيث تفوقوا على الإنجليز في هذا

-
- | | |
|------|--------------------------------|
| (١) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٣٩ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٨٢ . |
| (٤) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٤٢ . |
| (٥) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٠٤ . |
| (٦) | انظر الساق على الساق ، ص ٦١٥ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٤٢ . |
| (٨) | انظر كشف المخبا ، ص ٢١٨ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٥ . |
| (١٠) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ٣٣٨ . |
| (١٢) | المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ . |
| (١٣) | المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ . |

المجال (١) ، وتوجد في لندن " مواضع أخرى عدتها خمسة عشر محلا لجماعات الجغرافية والبناء " ومعرفة المعادن والتصوير " (٢)

في مجال الاختراع يذكر الشدياق أن الأوروبيين " قد اخترعوا لكل شي آلة " (٣) حتى أن كثرة الآلات التي اخترعها الإنجليز مثلاً " صارت تغني عن المدين " (٤)

من المخترعات التي ذكرها الشدياق ، وأعجب بها كثيراً ، التلفراف حيث وصفه وصفاً دقيقاً ، بأجزائه المختلفة وطريقة عمله ، وهذا الاختراع جعله يد هس وبيتالم في الوقت ذاته ، لأن الحرب أمضوا زمناً طويلاً في نقاش قضايا في التعميل والاعتراضات في مجال النحو ، ولم ينصرفوا إلى اختراع ماضيه فائدة (٥) ، وقد ذكر فوائد التلفراف في مجال الفكر والصحافة والأمن ، واختصاره للجهد والوقت (٦)

تحدث الشدياق أيضاً عن الفاز وخاصة وفوائده ، في مجال الطاقة والاضاءة بشكل خاص ، حيث أصبحت باريس مثلاً تنار كلها بالفاز (٧) ، كما تحدث عن صناعة المعادن وصهرها وتشكيلها . (٨) ، ويرجع الشدياق الفضل في كل هذه الصناعات إلى اختراع خاصية البخار التي هي " أعظم ما اخترعه الأوروبيون " (٩) حيث مكنتهم هذا الاختراع من " اتخاذ البواخر وسكك الحديد ، وصنع آلات الحليج والنسيج وغير ذلك " (١٠)

تعجب الشدياق من اختراع الكهرباء ، وقد سماها الروح وذكر خواصها وطريقة توليدها (١١) ، وهو معجب بالأوروبيين لدأبهم المستمر على تطوير مخترعاتهم

(١) انظر كشف المخبا ، ص ٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ .

(٣) كنز الرغائب ، ١٠٦ / ١ .

(٤) كشف المخبا ، ص ١١٥ .

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

(٧) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٤١ .

(٨) انظر المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٩) كنز الرغائب ، ١٠٦ / ١ .

(١٠) المصدر نفسه ، ١٠٦ / ١ .

(١١) انظر كشف المخبا ، ص ٢١٦ .

مثل الطائرة التي بدأ باختراعها فرانكلين الأمريكي، ثم لوموند السكوتلاندي... حتى وصلت إلى شكل يعجب له الشدياق. (١)

تحدث أيضا عن البريد ونظامه، واستغلال البالون الذي سماه المنطاد في الخدمة البريدية (٢)، والبارود الذي لعب دورا كبيرا في تطوير الأسلحة (٣) وعلى العموم فإن الظروف التي تهيئها أوروبا للمبدعين دفعت عجلة الاختراعات والملاوم فازا نبغ أحدهم مثلا في فن أو صنعة، لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه، ويطفئ جذوة قريحته... بل بالحرى من ينشطه ويمسر له أسباب العلم. (٤) وكلما اخترع أحد شيئا في أوروبا يقصد الجماعات العلمية، فيوفوا له أجرته، على إجراء مرامه، بما فيه نفع لهم وله. (٥) حتى من ألف كتابا بديعا في التاريخ والأدب ينال فيها جائزة. (٦)

لم يكن التمدن مبهرا للشدياق إلى حد ينسيه شغرات وعيوب الصناعات فأدرك أن "المصانع في المدن الكبيرة، يكثر فيها الدخان والعفونات والأقذار" (٧) كما أن التمدن غير أخلاق الشعوب الغربية، حتى استحال المجتمع الأوروبي إلى غاية ينقسم فيها الناس إلى ثواب وسبائع. (٨)

* * * * *

- | | |
|-----|--------------------------|
| (١) | انظر كشف المخبا، ص ٢١٩. |
| (٢) | انظر كثر الرغائب، ١٤/٤٩. |
| (٣) | انظر كشف المخبا، ص ٣٥٣. |
| (٤) | المصدر نفسه، ص ١٤٩. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ١٥٧. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ٢٤٤. |
| (٧) | المصدر نفسه، ص ٨٩. |
| (٨) | انظر المصدر نفسه، ص ١٥٥. |

الفصل الرابع

رؤية الشدياق ، وروى معاصريه للفـرب .

دوافع الرحلة في القرن التاسع عشر .

كانت " الحطة الفرنسية بالنسبة لمصر وبلدان الهلال الخصيب ، نهاية فترة تاريخية ، وبداية فترة أخرى جديدة ، انهار فيها الحاجز الذي كان قائما بين أوروبا وبينها " (١) ، وكان من ثمار هذه الحطة على الصعيد الرسمي ، قيام محمد علي بإرسال البعثات الثقافية إلى فرنسا ، لتعود إليه حاملة مقومات الحضارة الغربية (٢) ثم توالى البعثات الرسمية في الإطارين السياسي والثقافي في المراحل التالية . وعلى الصعيد الفردي ، فقد كانت بعض الرحلات ذات أهداف علمية للمدراسة في جامعات الغرب (٣) ، أو طلبا للعلاج (٤) أو بحثا عن بنية سياسية واقتصادية أكثر تسامحا . (٥) وقد تمت هذه الرحلات على مراحل زمنية مختلفة ، ولكنها متقاربة وذلك ضمن القرن التاسع عشر ، فكانت رحلة رفاعة الطهطاوي (٦) ، إلى باريس سنة ١٨٢٦ م ، واستمرت خمس سنوات (٧) ، وهي ذات طابع رسمي ، إذ كان الطهطاوي " ضمن صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون " (٨) وكان " تخلص الإبريز في تخلص باريز " ثمرة هذه الرحلة .

- (١) محمود السمره ، انفتاح العرب على الغرب في العصور الحديثة ، العربي ، ٦٩ ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٤ .
- (٢) المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ، انظر ايضا " Anwar G. Chejne " Travel Books in Modern Arabic Literature " The Muslim World, Vol, L II, No 3 July, 1962, P, 208 .
- (٣) Zolondek, Nineteenth-Century Arab Travelers to Europe: Some observations on their writings " The Muslim World, Vol X LI, 1971, P. 28 .
- (٤) مثل رحلة محمد بيوم التونسي .
- (٥) Anwar G. Chejne مرجع سابق ، ص ٢٠٩ .
- (٦) انظر أحمد أحمد بدوي ، رفاعة الطهطاوي ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩ ، ومحمد عمارة ، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث ، القاهرة دار المستقبل العربي ، ١٩٨٤ .
- (٧) انظر تخلص الإبريز ص ٢١ ، انظر ايضا الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ٢٣ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٣ .

الفصل الرابع

رؤية الشدياق ورؤى معاصريه للفن

- أولا : دوافع الرحلة في القرن التاسع عشر .
- ثانيا : الرؤى الاجتماعية .
- ١ . الطبقات الاجتماعية .
 - ٢ . الاخلاق والعارات والتقاليد .
 - ٣ . الاسرة والعلاقات الاجتماعية والتربية .
 - ٤ . المرأة .
- ثالثا : رؤى الرحالين لأوروبا في مجالي الدين والسياسة .
- ١ . الدين .
 - ٢ . السياسة .
- رابعا : رؤى الرحالين للاقتصاد الأوروبي .
- خامسا : رؤى الرحالين للثقافة والعلوم والمخترعات .
- سادسا : جدول بأسماء الرحالين العرب الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر ، وخلفوا آثارا مكتوبة .

وفي سنة ١٨٣٤م قام الشدياق برحلته إلى مالطة ، التي كانت آنذاك مستعمرة إنجليزية ، حيث أمضى هناك مدة أربعة عشر عاما ، وفي سنة ١٨٤٨م سافر إلى بريطانيا للمشاركة في الإشراف على طباعة الكتاب المقدس ، ويبدو أن رحلات الشدياق جاءت لملبية لرغبة قديمة لديه وقد عبر عنها بقوله : " وقد كنت في عنفوان شبابي ، وجدتة جلبابني وازهار سني لهجا بالسفر والاغتراب ، والترحل عن الوطن والأصحاب ، إلى بلد ينضمر فيه غربي ، وتطيب فيه نفسي ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قيسا . . . " (١) وقامت ظروف كثيرة في تحديد وجهته ، فابتدأ بمصر ، ثم مالطة ، وانتهى في أوروبا .

وفي سنة ١٨٥٢م ، قام سليمان بن صيام (٢) برحلته إلى فرنسا ، وقد تمت هذه الرحلة ، عندما كانت بلاده الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي ، وجاءت هذه الرحلة امتثالا لأمر والي الجزائر الفرنسي ، وامثل ابن صيام لهذا الأمر (٣) ، وهذه الرحلة ربما لا تفيد كثيرا على الصعيد الحضاري ، ولكنها تشير إلى علاقة الاستعمار الفرنسي بزعماء العشائر في الجزائر آنذاك ، حيث كانت تجعل بعض هؤلاء الزعماء جسورا لها ، وابن صيام واحدا منهم .

قام خير الدين التونسي (٤) برحلته إلى باريس سنة ١٨٥٣م مبعوثا من باي تونس (١٨٣٧ - ١٨٥٥) ، ثم توالى رحلاته الرسمية إلى فرنسا وانكلتره وإيطاليا والنمسا والسويد وهولنده والدانمارك وبلجيكا (٥) ، وكان من ثمار هذه الرحلات ، كتابه المسمى " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " وقد أراد من تأليف هذا الكتاب أن " يذكّر العلماء الأعلام بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام

-
- (١) الواسطة ، ص ١٢٠ .
 - (٢) لم أجد عن ابن صيام شيئا في أي مصدر من المصادر التي رجعت إليها ، وكل ما هو معروف عنه أنه قام برحلة إلى باريس سنة ١٨٥٢م ، انظر ، خالد زيادة ، رحلات جزائرية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩م ، ص ٢٦ .
 - (٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥ .
 - (٤) انظر ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ١٠٩ - ١٢١ ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٢٦٢/٤ - ٢٦٣ ، فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١م ، ص ١٢٣ - ١٥٠ .
 - (٥) الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ٢٤ .

وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة، ونسائر الخواص والعوام، ببيان ما ينبغي أن تكون عليه التصرفات الداخلية والخارجية. (١) وفي سنة ١٨٦٠م، قام محمد الطاهر الفاسي (٢) برحلة دامت سبعين يوماً، إذ كان ضمن بعثة سياسية، موجّهة من قبل محمد الإدريسي (١٨٥٩-١٨٧٣) إلى المملكة الإنجليزية فكتوريا، بصفة كاتب للبعثة. (٣) يختلف فرنسيس فتح الله مراه (٤) عن الرحالين الآخرين في أهداف وبواعث رحلته (٥)، فقد سافر إلى باريس طلباً للعلم، وذلك سنة ١٨٦٦م، وأقام فيها سنتين (٦) وبعد عودته إلى مدينة حلب سقط رأسه، ووضع كتاباً عن رحلته سماه "رحلة باريس". كما اتسمت رحلة محمد بيوم التونسي بطابع فردي، وأما دافعه فكان البحث عن العلاج في أوروبا، بعد أن ابتلى بمرض، أعيا علاجه أطباء بلاده، فأشـاروا عليه بالسفر (٧)، وكان "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" ثمرة رحلته إلى أوروبا.

- (١) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس - مطبعة الدولة، ١٢٨٤هـ، ص ٥٤.
- (٢) لم أذكر للفاسي على ذكر في أي مصدر من المصادر، والتي رجعت إليها، غير ما ذكره عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠/١.
- (٣) انظر محمد الطاهر الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، تحقيق محمد الفاسي، فاس، مطبعة جامعة محمد الخامس، ١٩٦٧، ص ٥١.
- (٤) انظر حول مراه، محمد راغب هاشم، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، حلب، المطبعة العلمية، ١٩٢٦/٧، ٣٦٣-٣٦٧، وعلي أحمد حسين الشرع، فرنسيس فتح الله مراه في النهضة الحديثة "رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية عمان، ١٩٧٦م، وسامي الكيالي، الحركة الأدبية في حلب ١٨١٠ - ١٩٠٥، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٦، ص ١٣٥ - ١٥٣.
- (٥) الرحالون المعنويون، هم الرحالون موضوع البحث في هذا الفصل.
- (٦) انظر فرنسيس فتح الله مراه، رحلة باريس، بيروت، المطبعة الشرقية ١٨٦٧، ص ٨ - ٩.
- (٧) انظر محمد بيوم التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مصر - المطبعة الاعلامية، ١٣٠٢هـ، ٢/١.

لا تختلف رحلة أحمد ولد فاد (١) عن رحلة سليمان بن صدام ، من حيث الدوافع والقيمة الحضارية ، ولكن أحمد ولد فاد أوحى في بداية رحلته ، أنها جاءت بدوافع ذاتية بحيث قال "لما تعلق القلب بزيارة فرنسا مرة ثالثة ، واشتاق النفس للتمتع بروية تلك المدن العظيمة والأصوار والمعاطر ، رجوت أن أكون مع من حضر " (٢) وكانت رحلته الى باريس سنة ١٨٢٨ م .

وفي إطار الرحلات الرسمية ، قام محمود الباجوري سنة ١٨٨٩ م برحلته الى بلاد السويد والنرويج ، لحضور " المؤتمر العلمي المشرقي المزمع انعقاده في مدينستي استوكهلم وكريسيانيا " (٣) آنذاك ، وفي الاطار ذاته قام أحمد زكي (٤) سنة ١٨٩٢ م برحلته الى أوروبا ، ضمن وفد في مأمورية علمية (٥) ، ووضع كتابه " السفر الى المؤتمر " الذي يوحى عنوانه بطبيعة المهمة التي سافر من أجلها .

أما محمد لبیب البنتوني ، فكان ضمن حاشية الخديوي عباس حلمي الثاني ، ورافقه في إحدى رحلاته إلى أوروبا ، وذلك سنة ١٩٠٠ م . (٦) إن هؤلاء الرحالين هم نموذج لرحالين كثير في القرن التاسع عشر ، كانوا قد سافروا إلى أوروبا ، وخلفوا آثارا مكتوبة . (٧)

-
- (١) لم أعثر لأحمد ولد فاد على ذكر في أي مصدر من المصادر التي رجعت إليها ، غير ما ذكر في كتاب ثلاث رحلات جزائرية ، مقدمة الرحلة الفادية .
 - (٢) ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٥٧ .
 - (٣) محمود الباجوري ، الدرر البهية في الرحلة الأوروبية ، ١٨٩١ م ، ص ٥ .
 - (٤) انظر أنور الجندی ، أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة ، حياته ، آراؤه ، آثاره القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ١٩٦٢ م .
 - (٥) أحمد زكي ، السفر الى المؤتمر ، مصر ، مطبعة بولاق ، ١٨٩٣ م ، ص ٤ .
 - (٦) انظر ، محمد لبیب البنتوني ، رحلة الصيف إلى أوروبا ، مطبعة اللـ... ١٩٠١ م ، ص ٣ .
 - (٧) انظر جدولا باسماء رحالة القرن التاسع عشر ، الذين خلفوا آثارا مكتوبة في نهاية هذا الفصل . ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

المروى الاجتماعيّة

الطبقات الاجتماعيّة :

لم يشير الطهطاوي إشارة صريحة إلى الأوضاع الطبقيّة عند الفرنسيين أو غيرهم من الأوروبيين ، ولكنه عند حديثه عن أخلاق الفرنسيين ، ذكر ما يدل على وجود الطبقات في فرنسا ، وفي معرض دفاعه عن أخلاق نساء الطبقة الوسطى (١) ما يشير إلى وجود الطبقات ، وأن لكل طبقة أخلاقها ، وقد أشار الشدياق أيضا إشارة عابرة إلى هذه القضية في فرنسا ، فذكر أن أهل مرسيليا ينتابون المحلات العامّة والمطاعم ، ولكن كل طبقة تختار المكان الذي يتلاءم مع أوضاعها المادية والاجتماعية ، (٢) ولكنه أفاض في الحديث عن الطبقات عند الانجليز (٣) ، وكان يهدف من ذلك إلى وصف أخلاق وعادات مختلف الجماعات الاجتماعيّة . (٤) وحديثه في هذا الإطار يكاد يكون " خاليا من التعميم والتسرع " (٥) ويدل على معرفة أكيدة لهذه الطبقات عند ما تحدث عن أطوار وأخلاق كل طبقة من الطبقات الخمس ، وقد استند الشدياق على المعطيات التاريخية ، ليؤكد أن التمايز بين الطبقات عند الانجليز قديم (٦) ، كما وضع يده على المشاكل التي تترتب على هذا التفاوت من نهب وسرقة وقتل ودعارة وهجرة وانتحار (٧) ، ولا تختلف إشارة سليمان بن صيام العابرة عن الطبقات في فرنسا عما ذكره الطهطاوي والشدياق ، وقد بنى فكرته عن هذا الموضوع من خلال ملاحظة عابرة وهي أنه لم يرمدة إقامة في فرنسا " إنسانا مدّ يده لأخذ الصدقة " (٨) كما لم

- (١) انظر تخلص الأبريز ، ص ٢٥١ .
- (٢) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٦٤ .
- (٣) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٦١-١٦٤ .
- (٤) الفكر السياسي والاجتماعي الحديث ، ص ٩٨ .
- (٥) خليل محمد الشيخ خليل ، البطل الروائي العربي في مواجهة الحضارة الغربية ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٧٩ ، ص ٥٥ .
- (٦) انظر البحث الفصل الثالث ، ص ١٦٢ .
- (٧) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٦٣ .
- (٨) ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٤٢ .

يلتفت خير الدين التونسي إلى مسألة الطبقات في أوروبا، وإن كان قد أشار إشارة سريعة إلى وجود الأحرار والعبيد، وسلطة الاقطاع، عند حديثه عن روسيا (١) دون أن يتعمق هذه الظاهرة أو يناقشها، وكان محمد بيرم التونسي، أقرب الرحالين إلى الشدياق في رؤية الطبقات الاجتماعية عند الانجليز، إذ شارك الشدياق في ذكر الطبقات الخمس وأدرك أيضا " أن عوائد الاهالي لا يمكن اطلاقها على الجميع سواء، بل بين طبقاتهم البون البعيد، فهم على خمسة أصناف " (٢) ووصف الطبقة الأولى وصفا دقيقا وخرج بمحصلة مفادها أن أهل هذه الطبقة " على نوع من صفات طوك الاستبداد، ففي العظمة والكبرياء، والفخر والمباهاة، باللعب واللهو والتكاثر في الاموال والأولاد، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة " (٣) كما وضع يده على سلبات النظام الاقطاعي، واستنكر أن يكون " للواحد من ملك الأرض مسيرة يوم للمراجل " (٤) وتحدث حديثا مستفيضا عن أخلاق الطبقة الخامسة، التي وصفها بأنها أشنع من همج الفرنسيين، سواء أكان من " جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات " (٥) وعرف نتائج التفاوت الطبقي عند الانجليز ووضع يده على الظواهر ذاتها التي تحدث عنها الشدياق، مثل الانتحار والهجرة (٦)، وأضاف محمد بيرم حديثا عن الطبقة العليا في إيطاليا، وأخذ عليها أنها تمنع في السهر واللهو. (٧)

لفت نظر محمد بيرم التونسي وجود فئة في بلاد الانجليز وهم النوربوقد كانت هذه الفئة محور اهتمام الشدياق، عند حديثه عن الطبقات الاجتماعية، ولكن محمد بيرم أضاف إلى ما ذكره الشدياق أن هذه الفئة موجودة في أغلب الاقطار، وذكر ما يطلق

-
- | | |
|-----|---------------------------|
| (١) | انظر أقوم المسالك، ص ٢٧٣. |
| (٢) | صفوة الاعتبار، ٥٧/٤. |
| (٣) | المصدر نفسه، ٥٧/٤. |
| (٤) | المصدر نفسه، ٥٧/٤. |
| (٥) | المصدر نفسه، ٥٨/٤. |
| (٦) | انظر المصدر نفسه، ٦٠/٤. |
| (٧) | المصدر نفسه، ٤٦/٣. |

عليهم من أسماء، ففي تونس يسمون بالزمارية، وفي الآستانة جينكالة، وعند الفرنسيين بوهيمية (١) ، وذكر لهم صفات مشابها لما ذكره الشدياق، فيما يتعلق بلبثتهم وموتهم ومصدر رزقهم، وعلاقة الإنجليز بهم. (٢)

تحدث محمد بيرم حديثا مشابها لحديث الشدياق، عن أحوال الفلاحين الإنجليز واستشهد بما أورده الشدياق بقوله: " وكفى بما ذكره الشيخ أحمد فارس فسمي صفتهم في هذا الصدر. " (٣)

لفت نظر الباجوري الفقر الشديد الذي شاهده في مدينة برنديزي فسمى إيطاليا، ومن مظاهر هذا الفقر " أبيات كابات. " (٤) وأناس لشدة فقرهم، ينامون على الأرض في الشوارع، وأن الفقراء في هذه المدينة يشكلون أكثرية ساحقة، إلى درجة أنه لم يبصر هناك غنيا (٥) وقد لفت نظر أحمد زكي المطاهر نفسها في المدينة نفسها، فقال فيهم: " أحط في المدينة من صعيدية مصر، وأرذل من سفهاها، وأشدد إلحافا وإلحاحا من شحاذي السيدة زينب. " (٦) وظاهرة الفقر الشديد لاحظها كل من الشدياق ومحمد بيرم وأحمد زكي في إنجلترا، بلاد التناقض التي جمعت الأطراف فإما الغني الفاحش، وإما الفقر المدقع (٧)، وفي مدينة بخارست في رومانيا، لاحظ محمد لبيب البنتوني وجود طبقات ثلاث، العليا والوسطى والسفلى، وأرجع الصفات الخلقية إلى الطبقة التي ينتمي إليها الفرد، فأهل الطبقة العليا " أخلاقهم هادئة، والطبقة الوسطى منهم فما فوقها، يلوح عليهم توقد الذهن، وإن كانت حركاتهم ليست في نشاط القوم في أوروبا الغربية. " (٨) ، وأما الطبقة السفلى " تلوح عليهم الغباوة وعدم التربية وهم أشبه شي " بالطبقة السفلى من اليونان، في أخلاقهم، لا في اجتهداهم ونشاطهم. " (٩)

- (١) انظر صفوة الاعتبار، ٦١/٤، انظر أيضا البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٥.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ٦١/٤، انظر أيضا البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٥.
- (٣) المصدر نفسه، ٦١/٤.
- (٤) الدرر البهية، ص ١٠.
- (٥) انظر المصدر نفسه، ص ١٠.
- (٦) السفر إلى المؤتمر، ص ٨.
- (٧) انظر صفوة الاعتبار، ٢٦٢/٤، والسفر إلى المؤتمر، ص ١١٢. والبحث الفصل الثالث، ص ١٦٣، ١٦٤.
- (٨) رحلة الصيف إلى أوروبا، ص ٢٠١.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

وهذه المقارنة توحى بوجود الطبقات في اليونان أيضا، وقد انفرد محمد لبيب في ذكر الطبقات في هذه البلاد، ربما لأنه اتاحت له فرصة الاطلاع عليها، وعلى أحوالها الاجتماعية.

الأخلاق والعارات والتقاليد

يناد الرحالون يجمعون على أن الأخلاق مرهونة بالطبقة التي ينتمي اليها الفرد الأوروبي، فقد ألمح الطهطاوي إلى ذلك عند حديثه عن أخلاق نساء الطبقة المتوسطة في فرنسا (١)، إلا أنه تحدث معجبا بالفضائل الخلقية عند الفرنسيين بشكل عام (٢)، ولم يرصد لهم سلبيات في هذا الإطار، وقد عمم الشدياق بعض الصفات الخلقية الجيدة للإنجليز، مثل الوفا، والصدق والصراحة والأمانة (٣)، وشا ركه أحمد زكي في هذا التعميم بقوله: "الصدق منتشر فيهم". (٤) إلا أن الشدياق أشار إلى أن انهيار هذه القيم بسبب الثورة الصناعية، التي أبعدت الإنجليز عن هذه الفضائل واعتبر وجود الفسق المتعددة في كل من إنجلترا وفرنسا نتيجة لهذه الثورة الصناعية بالإضافة إلى صفات سيئة موجودة عند الإنجليز في الأصل، مثل النزق والطيش والفسق والكبر، فنسب الفسق لأعيانهم، والنزق والطيش للرجال دون النساء، وخاصة قبل أن يعرفهم الشخص، واستثنى من البخل العمال وأصحاب الحرف، ولكنه رأى أن الإنجليز بشكل عام أكثر كرما من الفرنسيين (٥).

حاول الطهطاوي أن يظهر شيئا بين أخلاق العرب والفرنسيين فقال: "ظهر لي بعد التأمل في آداب فرنساوية، وأحوالهم السياسية، أنهم أقرب شيئا بالعرب منهم للترك، ولغيرهم من الأجناس". (٦) واتفق معه الشدياق، في أن الفرنسيين

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | سبقت الإشارة إلى ذلك، ص ٢٢٣. |
| (٢) | انظر تخلص الإبريز، ص ٦١، ٦٢. |
| (٣) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٦. |
| (٤) | السفر إلى المؤتمر، ص ١٢٦. |
| (٥) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٨. |
| (٦) | تخلص الإبريز، ص ٢٤٩، انظر أيضا المصدر نفسه، ص ٦٤. |

عموما يختلفون عن العرب في مزية الكرم (١)، واتفق معه في الحكم على تهافت الإفرنج على الكسب المادي (٢)، وأما فيما يتعلق بالفرنسيين، فقد أثنى الشدياق مع الطهطاوي في أنهم يميلون إلى معاشره الغرباء، بشرط ألا يكلفهم ذلك غير القول (٣)، وقصد زار الطهطاوي على ذلك، بأن من طبع الفرنسيين " الطيشان والتلون " (٤) وعند الإنجليز اتفق محمد بيرم التونسي مع الشدياق، في إثبات صفة البخل لهم، بالإضافة إلى حبهم للربا، والسمعة، حتى عندما يحاولون أن يكونوا كرما. (٥) وأكد لهم محمد بيرم التونسي صفة التجافي عن الغريب حتى لسويقي بين " أظهرهم سنين " (٦) ويشاركة الباجوري في هذا الحكم، ويزيد على ذلك في أنهم يعدون مخالفيين لباقي الأوروبيين الذين " يميلون كل الميل إلى الغرباء " ويعطفون عليهم. (٧) ولكن الشدياق لا يعمم ذلك على كل الغرباء، فاستثنى من له واسطة من الإنجليز فمثل هذا الغريب ينال الاهتمام والتبجيل (٨)، ويقارن الباجوري الإنجليز بأهل السويد في هذا الصدر، ويرجح كفاءة السويديين الذين يتصفون بـ " الاعتدال ومعرفة مقادير الناس . . . وعندهم الغرباء " في منزلة عالية ودرجة رفيعة، وأهمية كبرى، فتراهم يعطفون عليهم، عطف الأهل على أهلهم، مع حسن المعاشرة. (٩) ويتفوقون على الأوروبيين في أمانتهم " التي لا يساويهم فيها أحد " (١٠)، ولكن الإنجليز في معاملتهم للغريب، يشبهون أهل كولونيا في ألمانيا، الذين " لا يلحون نظرهم إلى الغريب إلا شزرا " (١١) ويمسحون

- (١) انظر تخلص الإبريز، ص ٦٢، انظر أيضا البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٨.
- (٢) انظر المصدر نفسه، ص ١٣٩ — ١٤٠ انظر أيضا البحث الفصل الثالث، ص ١٦٩.
- (٣) انظر المصدر نفسه، ص ٦٢، انظر أيضا الساق على الساق، ص ٦٤٢، ٥٨٩.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٥) انظر صفوة الاعتبار، ٥٨/٤.
- (٦) المصدر نفسه، ٥٨/٤.
- (٧) الدرر البهية، ص ٥٤.
- (٨) انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٦٨ — ١٦٩.
- (٩) الدرر البهية، ص ٧٤.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٧٤.
- (١١) رحلة الصيف إلى أوروبا، ص ٥٥.

محمد لبیب ذلك إلى كونهم قد أصبحوا " في مقدمة الدول قوة ومضعة وحضارة ومدنية (١) ". وهو بهذا يقترب من الشدياق في وجهة نظره حول أثر المدنية والثورة الصناعية في تغيير أخلاق الشعوب الأوروبية (٢) .

اتفق محمد بیرم مع الشدياق ، فيما يتعلق بآداب الزيارة والضيافة عند الإنجليز ، فقد حمد الاثنان لهم بعض الصفات ، منها عدم التطفل على خصوصيات المزار وكثبه وأثاثه (٣) ، ولكلهما استاء من التنطس الزائد عند الطبقة الاولى ، فكره الشدياق عاداتهم في كتابة اسم الزائر على بطاقة تعطى للخادم ، فيقدمها على صينية لسيدته ، بالإضافة إلى مراعاتهم حركات الآكل ، على مواعيدهم وفي مجالسهم (٤) ، واستاء محمد بیرم من تناقضهم في هذا الاطار ، ومن ذلك أن " بعض نسوتهم يكرهون شم أثر الدخان على الثياب وبعضهن يدخن " كالرجال (٥) .

أطرى الطهطاوي والشدياق المطبخ الفرنسي ، فذكر الطهطاوي أن أكثر ما يميز الفرنسيين ، نظافتهم في أكلهم وشربهم " حيث لا يأكل الإنسان بيده أصلاً ، ولا يشوكة غيره أو سكينه ، أو يشرب من قدحه " (٦) ، وأعجب بتعدد الاصناف على مواعيد الفرنسيين بحيث يكون " للطعام عندهم مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت " (٧) ، ولم يقل إعجابه بالأواني عن إعجابه بأصناف الطعام ، ومن ذلك أنه " ربما كانت الصحون المطبولة بلون الطعام المقدم ، فصحن السلطة منقوشة بلون السلطة " (٨) ، أما الشدياق فقد أفاض في الحديث عن لذة طعام الفرنسيين ونظافته ، مما جعل الإنجليز يتخذون طبائخين فرنساويين (٩) .

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٥٥ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٧ . |
| (٣) | انظر صفوة الاعتبار ، ٥٨/٤ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٠ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ٥٨/٤ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢١ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ٥٨/٤ ، كان يجب القول يكرهون بدل يكرهون . |
| (٦) | تخليص الأبريز ، ص ٣٨ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٣٨ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٣٩ . |
| (٩) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٣ . |

اجمع الشدياق ، ومحمد بيرم ، والباجوري ، وأحمد زكي ، في حكمهم على مساوي الطعام الانجليزي ، فأسهب الشدياق في حديثه عن أكل المنتن من اللحوم والدم ، وخلط القهوة والدقيق والسكر بمواد كثيرة ، وتحدث عن قلة تنوع أصناف الاطعمة عندهم بحيث تكاد تنحصر في الشوا والقلقاس (١) ، وأضاف محمد بيرم أن طعامهم " على العموم بسيط ، إذ هو شوربة ، ولحم خالص ، مغلي أو مشوي أو سلوق ، ويطاطس مسلوقة في الماء ليس إلا " . (٢) وأشار إلى ما أشار إليه الشدياق بصدور الغش فسي الأطحمة ، وأكل المنتن من اللحم (٣) ، ولقد أثاره طعامهم فقد رأى الباجوري أن أكلمة ربما يصاب " بحرض في المعدة " . (٤) ورأى أحمد زكي في أن طعامهم " تافه وفي غاية البساطة فكأنهم لا يزالون على الفطرة " . (٥) وغاية ما يجيدونه من الطعام " الرز ببيف والبفتيك " . (٦) وليس لهم تنوع أو تعديل . (٧) ولكنه أقر لهم صفة النظافة عند ما تحدث عن المطبخ المسكوي ، حيث تعجب من " نظافته وإتقانه ، وجودة المأكولات المخصصة للمساكر والأنفار " . (٨)

خالف محمد الطاهر الغاسي الرحالين في حديثه عن المطبخ والأطعمة الإنجليزية ، فتحدث عن ذلك معجبا ، لأنهم " يجعلون للأكل آلات ويحضرون من أنواع الخلاوي والفواكه " . (٩) وهذا الرأي المخالف ، ربما جاء لأن الغاسي كان مبعوثا رسميا ولا بد أن يكون الطباخ الذي أشرف على طعامه طبيا خاصا مخصصا ، ولم تتح له الفرصة أن يطن على حياة الإنجليز ، لأن رحلته لم تدم أكثر من سبعين يوما . (١٠)

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٢ . |
| (٢) | صفوة الاعتبار ، ٦٨ / ٤٠ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ٦٨ ، ٦٧ / ٤٠ . |
| (٤) | الدرر البهية ، ص ٥٤ . |
| (٥) | السفر إلى المؤتمر ، ص ١٣٠ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٧٠ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٣٠ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ١٩١ . |
| (٩) | الرحلة الابريزية ، ص ٧ . |
| (١٠) | سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الغاسي ، انظر |
| | البحث ، الفصل الرابع ، ص ٢٢١ . |

وفي إطار عادات الزواج والجنابة ، فقد شغلت هذه القضية الشدياق أكثر من غيره من الرجالين ، فتحدث عن ضرورة معاشرة المرأة للرجل قبل الزواج عند الإفرنج بالإضافة إلى عادات الزواج والاعتزال بالزوجة ، وتحدث عن بساطة الإجراءات في إقامة حفل الزواج ، وتحدث عن المهر ، وكيف تمهر المرأة الرجل ، كما تحدث عن ضرورة التكافؤ بين الأزواج ، واستثنى من ذلك بعض الحالات عند الإنجليز ، ومنها أن يكون الزوج غنيا وكبيرا في السن ، وتكون الزوجة فتية فقيرة ، طامعة بكسب شرف الرجل وغناه ، وذكر معتقدات شعبية إنجليزية ذات علاقة بالزواج (١) وكان الرجالون الآخرون أقل عناية من الشدياق في هذا الجانب ، وجاء حديثهم مقتضيا ، وخاصة فيما يتعلق بالزواج ، فذكر الباجوري بعض الملاحظات المتعلقة بأنواع الزواج عند الفرنسيين ، الرسمي الذي يتم عن طريق الكنيسة أو الحكومة ، والزواج الذي يتم باتفاق الرجل والمرأة ، ويشترط فيه أن تكون المرأة خالية (٢) ، وتحدث أحمد زكي عن المعاشرة بين الرجل والمرأة قبل الزواج حديثا مقاربا لحديث الشدياق (٣) ، إذ ينفرد الرجل بالمرأة في الأماكن العامة إلى أن تحدث الخطبة ، فلا يجوز لأحدهما أن يعدل عن الزواج إلا برضى الآخر (٤)

أسهب الشدياق في الحديث عن الحداد والنساء الحواد ، وطرق تشييع الجنازات ، وأشكال المشيعين ، وتكاليف الدفن في بريطانيا (٥) ، ولم يشاركه في هذه الملاحظات غير محمد بيرم ، عندما تحدث عن عادات الطليان في الجنائز فقال : " وموكب المأتم عندهم لا يجبهرون فيه بالبكا " (٦) ولم تفت هذه الملاحظة الشدياق ولكن عند الإنجليز إذ ذكر أنهم في مثل هذه الحالة ، لا يخمشون وجها ولا يشعثون شمرا (٧)

لغت المواسم والأعياد نظر الطهطاوي والشدياق ، ومحمد بيرم التونسي في فرنسا تحدث الطهطاوي عن الأعياد الرسمية التي " تبني على الرقص والآلات وشعب

- (١) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٤ - ١٢٦ .
- (٢) انظر الدرر البهية ، ص ٣٣ .
- (٣) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٤ .
- (٤) السفر إلى المؤتمر ، ص ١٢٧ .
- (٥) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٦ .
- (٦) صفة الاعتبار ، ٦١ / ٣ .
- (٧) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٦ .

البارود". (١) وأما الكرنيفال ، فإنه يبنى على التكرار (٢) ، وذكر عيداً شعبياً فرنسياً هو عيد الملوك " وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول في عجينها ، ويقسمون الفطيرة على الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول في نصيبه فهو الملك". (٣) وعند الإنجليز مأفاز الشدياق في الحديث عن أعياد الإنجليز ، فتحدث عن عيد الميلاد وطقوسه ، والاحتفال بشهر أيار ومحاسنه ، بالإضافة إلى حديثه عن بعض الأعياد المحلية في بعض المدن ، مثل عيد استخدام الخدم في مدينة فلوستر ، والكرنيفال ، وخميس السكارى بالإضافة إلى الأعياد الرسمية (٤) ، وكان حديث محمد بيرم قريباً من حديث الشدياق في هذا الصدر ، واتفق الاثنان على أن يوم الأحد عند الإنجليز يوم بطالة وكآبة تغلق فيه المحلات ، ومن يخالف يقع تحت طائلة القانون (٥) ، وتحدث الاثنان عن مواسم التزلج على الجليد (٦) ، وانفرد محمد بيرم في الحديث عن مناسبة شعبية طليانية هي وليمة بلوغ البنت ويتم ذلك ضمن طقوس معلومة ، فتلبس البنت "لباساً كله أبيض وبقعا أبيض ، وتذهب إلى الكنيسة ، ثم تعود لدار أبيها ، وتصنع لذلك وليمة". (٧) وعن الأزياء أفاد الشدياق أن الإنجليز لا يسرفون في الملابس ، حتى الملكة نفسها ، لأن الاسراف في ذلك منع رسمياً (٨) ، واتفق مع الطهطاوي على أن المرأة الفرنسية تهتم بزيها اهتماماً مبالغاً فيه ، واتفقا في الوقت نفسه على أنها أكثر اقتصاداً في الشدياق ومحمد بيرم التونسي رجحاً كفة المرأة الإنجليزية ، في أنها أكثر اقتصاداً في الملابس (٩) ، وأما الرجال في إنجلترا وفرنسا ، فلباسهم متشابه (١٠) (١١)

- | | |
|------|---|
| (١) | تخليص الإبريز ، ص ١١٣ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٣ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٥٠ . |
| (٤) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٨ . |
| (٥) | انظر صفوة الاعتبار ، ٦٠ / ٤ ، انظر أيضاً البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٩ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ٦٠ / ٤ ، انظر أيضاً كشف المخبا ، ص ٩٠ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ٦١ / ٣ . |
| (٨) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٩ . |
| (٩) | انظر تخليص الإبريز ، ص ١٠٦ ، انظر أيضاً البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨١ . |
| (١٠) | انظر صفوة الاعتبار ، ٦٦ / ٤ ، انظر أيضاً البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٧٩ . |
| (١١) | انظر المصدر نفسه ، ص ٦٦ / ٤ . |

انفرد محمد بيرم بالحديث عن زي الطليان ، فوصف ملابس الرجال وصفا دقيقا ولكنه أخذ عليهم أن " ألبيستهم ضيقة فلا يجلسون إلا على الكرسي " (١) وأما النساء فلباسهن مائل الى السواد ، ويسدلن على وجوههن خمر شقافة (٢) وهن بذلك يختلفن عن نساء فرنسا اللواتي يكشفن " الوجه والرأس والنحر وما تحته ، والقفا وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين " (٣) ويختلفن عن الفرنسيات والإنجليزيات في أنهن يقتنين حليا كثيرة (٤) ، فالمرأة الإيطالية " تلبس سوارا وخواتيم وقلائد ومشابك من أنواع المجوهرات على حسب الرفاهية " (٥) والمرأة الأوربية بشكل عام ففانية تصنعها إنما هو في تصفيف الشعر وتغيير الملابس بحسب الزي المستعمل (٦)

الاسرة والعلاقات الاجتماعية والتربية

ذكر الشدياق أن العلاقات الاجتماعية عند الانجليز ضعيفة ، ولكن مبررهم في ذلك أنهم " ينامون مبكرين ، ويصحون مبكرين إلى أعمالهم ، ولذلك تنكاد علاقاتهم تقتصر على التحية ، وذلك بخلاف الفرنسيين الذين يخشون من توطيد علاقاتهم مع الآخرين خوفا على نساءهم ، ولكنهم عندما يسافرون خارج فرنسا ، يعاشرهم الناس (٧) لم يتحدث الرجالون الآخرون عن هذه القضايا ، إلا أن محمد بيرم ، اتفق مع الشدياق حول بعض المظاهر السلبية عند الإنجليز في إطار الأسرة الواحدة ، ومنها مضاجعة الأب ابنته ، والأخ أخته ، وظاهرة بيع الزوجات (٨) ، وانفرد الشدياق بذكر بعض المظاهر الإيجابية للعلاقات الاسرية عند الانجليز ، ومنها جلوس رب الاسرة مع الأولاد على المائدة

- | | |
|-------|--|
| (١) | صفوة الاعتبار ، ٥٦ / ٣ |
| (٢) | المصدر نفسه ، ٥٨ / ٣ |
| (٣) | تخليص الإبريز ، ص ٤٠ |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٦ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٢٩ |
| (٥) | صفوة الاعتبار ، ٥٨ / ٣ |
| (٦) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٠ |
| (٧) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٢ |
| (٨) | انظر صفوة الاعتبار ، ٥٩ / ٤ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٣ |

وتوجيه النصح إليهم (١) ، واتفق الشدياق مع الطهطاوي على حسن التربية في فرنسا بحيث تعمل الأسرة على غرس الأدب والعلم والفضائل منذ الصغر في نفس الطفل (٢) ، وتدريب الأطفال " على البحث والتنازع في المسائل العلمية " (٣) وقد نسب محمد بيرم هذه الصفة إلى الطبقة المتوسطة والعليا من الإنجليز ، ونفاها عن الطبقات الأخرى ، كما ذكر دور الأم الإيجابي في تربية الأولاد ، " بحيث ينشأون على التهذيب والتفطن والتعلم " (٤) وأما عند الغربيين بشكل عام فقد مدح البنتوني أسلوبهم في التربية ، من جهة أن التربية الأولى عندهم لأطفالهم " من أوليات اهتمامهم ، وأحاسن مبادئهم ، فتراهم يهتمون بتقويم جثمان الطفل منذ ولادته " (٥) وهو بهذا يتفق مع الشدياق عندما تحدث عن التربية عند الإفرنج ، بحيث تبدأ منذ الولادة ، فلا يقطع الطفل ، وتكلم الأم طفلها بالكلام المتعارف عليه (٦) ، ولا حظ محمد لبیب شمرة هذه التربية في الغرب ، وخاصة بعد أن يبلغ الطفل الخامسة من عمره ، فإذا " جلس في مجلس ، فإنه يعرف آداب ، ويلحظ والده وأصحابه ، ويفطن إلى كلامه وكلامهم ، حتى إذا سئل عن شيء مما دار الحديث عليه ، أجاب برأى الناقد البصير " (٧) وقد لاحظ الشدياق من قبل شجرة التربية الجيدة عند الفرنسيين والإنجليز ولخص رأيه فيها بالقول: إن الطفل ينشأ " قويا في جسمه وعقله " (٨) .

نالت البيوت التي تقطنها الأسرة الغربية اهتمام الرحالين ، وكان مدار الكلام على شكلها ونظافتها وملاءمتها للسكن ، فقد رأى الطهطاوي بيوت الفرنسيين نظيفة ملائمة وتعجب من شدة اعتنائهم في " تنظيف بيوتهم وملابسهم " (٩) وقد خالفه الشدياق الذي رأى بيوت الفرنسيين قذرة قليلة التهوية ، ومواقدها تشبه القبور (١٠) ، ويعود

- | | |
|------|-------------------------------------|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٣ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٤ . |
| (٣) | تخليص الإبريز ، ص ١٥٤ . |
| (٤) | صفوة الاعتبار ، ٦١/٤ . |
| (٥) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٥٣ . |
| (٦) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٤ . |
| (٧) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٥٤ . |
| (٨) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٤ . |
| (٩) | تخليص الإبريز ، ص ١٠٢ . |
| (١٠) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٥ . |

هذا الاختلاف إلى نوعية الطبقة التي عاش معها وعاشرها كل منهما ، فالطهطاوي بمعبوث رسمي ، مقيد في علاقاته بإطار زمني ومكاني ، والشدياق دون قيود ، مما أتاح لــــه فرصة التعرف على الطبقات الدنيا من الشعب الفرنسي ، ولكن الشدياق أعجب ببيوت الإنجليز وهندمتها في الريف ، وإن كان قد أخذ على الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين إسرافهم في الأشياء (١)

أعجب محمد بيرم بديار الإنجليز مثل إعجاب الشدياق ، وذكر أن " عاداتهم في المساكن ، قريبة من عادات المسلمين ، في انفراد العائلات ، وحماية الديار من التطرق ، وشدة النظافة في داخل الديار ، وتنظيمها كل على قدر سمته " (٢) واتفق مع الشدياق بخصوص المواعد ، فذكر أن مواعدهم ، " أتقن من غيرهم " (٣) ولكن المأخذ الذي أخذه الشدياق على بيوت الإنجليز وشاركه فيه أحمد زكي ، في أن هذه المساكن من الخارج على طراز واحد ، ويفشاها لون السواد ، وأنها مختلفة عن مباني باريس فــــي هذه الصفة (٤) وأعجب محمد الطاهر الغاسي بالصفات ذاتها لبيوت الإنجليز وزاد على ذلك ، أن لكل بيت رقما (٥)

وفي مجال الخدمات العامة والمرافق ، تحدث الطهطاوي عن الخدمات الصحية في باريس وأعجبه أن " الحكماء " في باريس كثيرون ، والمريض بإمكانه أن يطلب الطبيب إلى البيت ليزوره ، وأجرتهم معلومة ، وساعات عطلم معلومة في العيادات والبيوت (٦) وفي الإطار ذاته ، تحدث عن المستشفيات الكثيرة ، المتنوعة التخصصات ، وأشار في معرض حديثه عن المستشفيات إلى ما يعرف الآن بصناعة الأطراف الصناعية للمعوقين عضويًا (٧)

-
- | | |
|-------|--|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٥ . |
| (٢) | صفوة الاعتبار ، ٦٦/٤ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ٦٦/٤ . انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٥ . |
| | لا تجوز المفاضلة بالفعل أتقن من غير فعل مساعد ، وكان الأولى أن يقول أكثر أتقانا ، إلا إذا كانت المفاضلة من الثلاثي تقن . |
| (٤) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ١٢٩ ، وكشف المخبا ، ص ٣٦٥ . |
| (٥) | الرحلة الإبريزية ، ص ١٠ . |
| (٦) | تخليص الإبريز ، ص ١١٧ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٨ . |

وقد أضاف الى كل ذلك حديثاً عن جمعيات فعل الخير ، التي تعوض شح الفرنسيين (١) وقد رجح الشدياق كفة باريس على لندن في مجالات الخدمات والمرافق ، ومن ذلك وجود المرافق العامة والطرق النظيفة الواسعة ، والمصاطب والمحلات التي يمكن الجلوس عليها ، مما لا يتوافر في لندن أصلاً ، وأسوأ منها القرى الانجليزية (٢) ، ورجح قسول الطهطاوي فيما يتعلق بالخدمات الصحية في باريس ، فذكر أنها في باريس أفضل منها في لندن ، حيث تقوم الحكومة في باريس بهذه المهمة ، وتترك الحكومة الإنجليزية هذا الأمر بيد الأهالي لذلك تكون الإقامة في مستشفيات لندن صعبة ومتعبة (٣) كما أيد المرائش ما قاله الشدياق بالنسبة للطرق في باريس فوصفها بأنها ذات شوارع رحبة العرض ، مستقيمة الطول ، حسنة التمهيد والتخطيط ، مفروشة على الجانبين بأشجار مستوفية النظام والنسق ، لكي ترد حرارة الشمس وتؤدي لرطوبة النسيم ، جامعة كل شروط النظافة والإتقان (٤) واتفق محمد بيرم مع الشدياق ، على سوء التنظيم في طرقات لندن ، مع قلة النظافة ، واعتبرها محمد بيرم " دون غيرها من معال ك أوروبا " (٥) في هذا الصدد أما في باريس فإن الخدمات الطبية وغيرها متوفرة للمحتاجين ، فالفقراء " مصونون في الأماكن المعدة " (٦) بل هي عندهم " أكثر من أن تحصى " (٧) ومثل هذه المرافق شحيحة في لندن (٨) ، وفي باريس فإن أماكن اللهو والترفيه كثيرة وإذا وجد مثلها في لندن ، فإنما تكون من حظ الأغنياء دون الفقراء ، بينما هي في باريس لكل فئات المجتمع (٩) ، وهذا ينطبق على النوادي في لندن ، التي جعلت لفئة محددة على قلتها (١٠) ، بينما هي في باريس كثيرة جداً (١١) ، ولكل فئات المجتمع الفرنسي (١٢) .

- | | |
|------|-------------------------------------|
| (١) | انظر تخليص الإبريز ، ص ١٣٩ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٦ . |
| (٣) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٧ . |
| (٤) | رحلة باريس ، ص ٢٨ - ٢٩ . |
| (٥) | صفوة الاعتبار ، ٦٦/٤٠ . |
| (٦) | ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٤٢ . |
| (٧) | السفر إلى المؤتمر ، ص ٢٩٧ . |
| (٨) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٧ . |
| (٩) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٧ . |
| (١٠) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ١٠٣ . |
| (١١) | رحلة باريس ، ص ٢٩ . |
| (١٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٧ . |

المراة

يكاد الرجالون يجمعون على جمال المرأة الأوروبية ، إذ رأى الطهطاوي نساء باريس " بارعات في الجمال واللطافة " (١) ولكنه رأى أن نساء القرى الفرنسية أجمل من نساء المدن ، ففي هذه القرى فإن " جمال النساء ، وصفاً ، أبداً نهن ، أعظم من ذلك في مدينة باريس ، غير أن نساء الأرياف أقل تزيئاً من نساء باريس " (٢) وعم الشدياق صفة الجمال على نساء الإنجليز في المدن والقرى ، وعند جميع الطبقات ، وفضلها في هذا الإطار على المرأة الفرنسية ، التي إن زادت على الإنجليزية في شي ، فإنما تزيد فيها وعجباً وزهواً (٣) ، واتفق الشدياق مع الطهطاوي بأن الفرنسيات " يتبرجن دائماً بالزينة " (٤) وهذا ما لاحظته الباجوري على نساء باريس في تبرجهن بالزينة الصناعية ، حتى أن " من لم تكن جميلة بخلقتهن ، تصنعت جمالا ، فلا تخرج من بيتها إلا بعد أن تعمل في نفسها عملاً بقدر إمكانها ، تظن أنها بعد ذلك تعجب الرجال حتى لو كانت عجوزاً " (٥) وقد نفى محمد ليب عن نساء فرنسا صفة الجمال الطبيعي متفقاً في ذلك مع الشدياق والباجوري ، فيقول : " أما نساؤهم فليس في الغالب علس ما هو مشهور عنهن في الجمال الطبيعي ، ولكنما هو تفنن في الجمال الصناعي ، مما يأخذ باللب ويبهز العقل " (٦) فإذا ما أضيف إلى ذلك " تفننهن في الطبوس " (٧) وشبهاً من " رقة ولطف وبشاشة لا سيما للغريب " (٨) فإن المرأة الفرنسية تصبح قادرة على فرض نفسها على الرجال ، وبالتالي احترامها ، سواء أكانت حرة أم بغياعاً حتى يختلط الأمر على الفرنسيين أنفسهم على حد تعبير الشدياق (٩) والمرأة النمساوية

-
- | | |
|-------|-------------------------------------|
| (١) | تخليص الإبريز ، ص ٦٦ - ٦٧ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ٤٤ . |
| (٣) | انظر البحث الفصل الثالث ، ص ١٨٨ . |
| (٤) | تخليص الإبريز ، ص ٦٦ . |
| (٥) | الدرر البهية ، ص ٣٢ . |
| (٦) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ١٣١ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ١٣١ . |
| (٨) | الدرر البهية ، ص ٣٣ . |
| (٩) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٨٩ . |

أكثر من الفرنسية جمالا، وهذا واضح من شهادة محمد لمييب حيث رأى نساءً _____
يتصفن "بالجمال الباهر، والوجه الناضر". (١) وعلى وجه العموم فإن الباجوري يرى
أن "النساء" أوروبا في صفة الجمال "درجة مناسبة". (٢) واستثنى أحمد زكي، نساءً
برنديزي في إيطاليا، وعلى طول الطريق منها إلى فودجا و نابولي، إذ رأى النساء
هناك "بعض أشباح ينتسبن إلى حواء ولا نسبة، وهن من قبح الصورة، وسماجة
الوجه، بحيث لورآهن شيخ الأبالسة لعدل عن الوسوسة، واستبدل الإغواء بالفرار". (٣)
من القضايا التي اهتم بها الرجالون، عفاف المرأة الأوروبية، فقد رأى الطهطاوي باريس
مدينة "مشحونة بكثير من الفواحش". (٤) وهو لا يعمم هذه الفواحش على الفرنسيين
جميعا، ولا على نساء فرنسا كلهن، بل يبري فئة حتى من اللواتي يتمتعن بالحرية (٥)
وإن كانت صفة التفريط غالبية على الرجال والنساء في فرنسا، ويرى أن السفور والاختلاط
ليس له علة بالانفلات الجنسي، ويرد ذلك إلى "التربية الجيدة والخسيسة". (٦) وهو
يرى أن نساء الطبقة الوسطى في فرنسا أكثر عفافا من نساء الرعا والاعبان (٧) - ويرى
الشدياق أن نساء الإنجليز يتظاهرن بالورع والتقوى، وهن يمارسن الفحش خفية
هذا في المدن، أما في القرى، فلا توجد أسباب باعثة لهذا الفساد، هذا بالنسبة
للحرائر، أما العواصم فهن عند الإنجليز كثر، وصيغت هذه الكثرة، الفقر، أما في باريس
فيعيشن _____ الديار التي تسكنها عائلات كثيرة، بالإضافة إلى مواضع الرقص. (٨)
وحدث الشدياق غالبا ما يوحى بانتفاضة العفاف عن المرأة الإنجليزية والفرنسية
بشكل عام (٩)، غير أنه يرى في تساهل الإفرنج مع نساءهم وقاية لهن من الخيانة، وذلك
بإرضائهن بالذات الخارجية. (١٠) وهم لا يظنون "بنساءهم ظنا سيئا، مع أن هفواتهن

-
- | | |
|------|--|
| (١) | رحلة الصيف، إلى أوروبا، ص ٥٢. |
| (٢) | الدرر البهيبة، ص ٣٢. |
| (٣) | السفر إلى المرتصر، ص ١٧. |
| (٤) | تخليص الإبريز، ص ٦٥. |
| (٥) | انظر المصدر نفسه، ص ١٠٢. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ٢٥١. |
| (٧) | انظر المصدر نفسه، ص ٢٦٣، ١٠١، ١٠٢. |
| (٨) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٨٩. |
| (٩) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٨٨ - ١٨٩. |
| (١٠) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ١٩٠. |

كثيرة". (١) وعندما يثبت للرجل فجور زوجته ، فإن أقصى ما يفعله أن "يهجرها بالكليّة ، وينفصل عنها مدة العمر". (٢) وعند الإنجليز فقد ذكر الشدياق أن الأزواج في مثل هذه الحالة ، يلجأون إلى قتل زوجاتهم وأنفسهم . (٣)

ردّ الباجوري قلة عفاف المرأة في الغرب إلى سبب واحد مخالف لما رآه الطهطاوي بومتفق مع ما رآه الشدياق ، وهو خلطة النساء بالرجال ، فإذا ما أضيف إلى ذلك ، الميل الفريزي ، والشهوة عند الجنسين (٤) ، وقع الزنا الذي يؤدي إلى هدم الأسر ، والانفصال ، ودعم الباجوري قوله بالارقام فذكر " أن عدد النساء المهجورات من أزواجهن ، خمسة وتسعون بالمائة ، وعدد الزناة واحد وسبعون بالمائة ". (٥) وذلك في فرنسا وحدها .

أعجب الطهطاوي باحترام الرجل الفرنسي للمرأة ، ولم تعجبه المبالغة فسي ذلك ، بحيث يصل الأمر إلى درجة أن يسلم الرجل قيادة للمرأة ، فيصبح الرجل "عبيد النساء". (٦) وقد لاحظ الشدياق الصفة ذاتها عند الفرنسيين ، الذين يرون المرأة قوام كل شيء ، فيجلونها أكثر مما تبجل الانجليزية في بلادها . (٧) ومع ذلك فقد ذكر الشدياق أيضا ، أن الرجال في الغرب يحبون نساءهم ، ويغارون عليهن وخاصة الرجل الفرنسي ، الذي يعامل المرأة معاملة تصل به إلى حد الانلال (٨) ، لذلك كله وجد أحمد زكي أن المثل الفرنسي " ما تريده المرأة يريدّه الله ". (٩) حقيقة واقعة في فرنسا ، وهذا الوضع المتميز للمرأة الفرنسية ، جاء نتيجة إصرارها على المساواة مع

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | تخليص الإبريز ص ٦٣ . |
| (٢) | المصدر نفسه ص ٦٣ . |
| (٣) | انظر الساق على الساق ص ٤٠١ . |
| (٤) | الدرر البهية ص ٣٣ . |
| (٥) | المصدر نفسه ص ٣٣ . |
| (٦) | تخليص الإبريز ص ٦٢ . |
| (٧) | انظر البحث ، الفصل الثالث ص ١٩٠ . |
| (٨) | انظر البحث ، الفصل الثالث ص ١٩٠ ، ١٩١ . |
| (٩) | السفر إلى المؤتمر ص ٦١ وقد ذكر أحمد زكي المثل ليستشهد به على وضع المرأة الاجتماعي في فرنسا وذكر نصه بالفرنسية وهو : |
- Ce que Femme Veut Dieu Veut.

الرجل ، في الوقت الذي تقر المرأة الإنجليزية ، يتفوق الرجل وسلطته عليها ، بفرض النظر عن طبقتها كما لاحظ الشدياق (١) ، لذلك تتمتع الفرنسيات بحرية كبيرة إذ يسافرن وحدهن ، وهن متولعات بحب المعارف ، والوقوف على أسرار الكائنات (٢) ، ومن مجمل حديث الطهطاوي ، يتضح أن المرأة الفرنسية ، لم تعد تتساوى بالرجل فحسب ، بل تتفوق عليه ، فهي بالإضافة لحصولها على كل ما يتمتع به الرجل ، فهي " دائما في المجالس معظمة أكثر " . (٣) منه ، وفي مجال العمل فإن أعمال " البيع والشراء " بالأعالة للنساء . وأما الأشغال للرجال . (٤) لذلك ترى المرأة في باريس تعمل في كل مجال ، والإنجليزية تعمل في الحقول ، وإن كان الرجال يغبنونها في أجرها ، وفي هذه الأقوال مجتمعة ما يوحي بأن المرأة الإنجليزية والفرنسية ، نالتا حظا من الاحترام والحرية ، وأن التمردن صفة مشتركة بين الرجال والنساء ، وحتى أصبح للمرأة حق في العمل السياسي (٥) ، وهذه الحرية أعطت المرأة الحق في التردد على أماكن اللهو ، ومشاهدة الرجال ، والمشي معهم بمشيئتهن (٦) ، مما يشير إلى حق المرأة في الاختيار ، والزواج والانفصال . وقد أشار ابن صيām إلى حرية المرأة الفرنسية ، بحيث تقطع المرأة البلاد من شرقها إلى غربها راجلة أو في البر أو في البحر من غير معارض (٧) ، وأدرك المراهنة هذه الحرية إذ أصبح جميع الفرنسيين " يتسابقون في ميادين التقدم والفلاح " . (٨) وهذه الحرية أثمرت في إيطاليا جرأة وثقة بالنفس عند المرأة إذ " تخاطب زوجها ، وتفاكهه أمام والديها ، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها ، وترقص مع الرجال أمامهم " . (٩) كما ترجمت المرأة في إيطاليا هذه الثقة بالنفس ، بأن أصبحت قادرة على إدارة الأعمال

-
- (١) انظر البحث الفصل الثالث ص ١٨٧ - ١٩١ .
 - (٢) انظر تخلص الإبريز ، ص ١٠١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
 - (٥) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٠ .
 - (٦) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٠ .
 - (٧) انظر ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٣٣ .
 - (٨) رحلة باريس ، ص ٣٤ .
 - (٩) صفة الاعتبار ، ٤٦/٣ .

والمحال (١)، وفي النمسا وألمانيا، رأى محمد لبيب الرجل الفلاح وأمراته يشتغلان على الدوام، بين حرق وعزق وزرع وقطع، والعمل بينهما على السواء، وربما تشتغل المرأة في الحقول وحدها، لتوفر لزوجها فرصة العمل في المصانع، في الأماكن التي توجد فيها مثل هذه المصانع، بل وتعمل في الحقول وهي عالمة بكل أسرار العمل معتمدة على النظام والعقل والمعرفة بالاقتصاد الزراعي (٢)، والعمل في النمسا وألمانيا، يقوم به الجنسان "لا فرق بين الرجل في ذلك والمرأة" (٣) وهذه الصفة تكاد تشمل بلاد أوروبا، إذ ذكر الباجوري مضمناً ذلك بقوله: "وكان منادياً جمعهم ونادى عليهم بالاتحاد والمساواة، في معرفة الآداب العمومية والقراءة والكتابة والدأب في الأعمال، والجهد في تحصيل المعاش، وبدون فتور ولا كسل" (٤)

رؤى الرحالين لأوروبا في مجالي الدين والسياسة

الدين

اعتبر الطهطاوي بلاد الغرب "ديار كفر وعناد" (٥) وأن الفرنسيين "ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم" (٦) لذلك فإنهم لا يتقيدون بالحلال والحرام كما أوجب الدين، ولا يتبعون إلا أهواءهم (٧)، بالإضافة إلى كثرة "الحشوات الضاليلة المخالفة لسائر الكتب السماوية" (٨) في حياة الفرنسيين وفكرهم، ويرفضون فكرتهم بأن مهمة الدين "جاءت لتدل على فعل الخير واجتناب ضده، وأن عمارة البلاد وتطويق

- | | |
|-----|-----------------------------------|
| (١) | انظر الدرر البهية، ص ٣٢. |
| (٢) | انظر رحلة الصيف إلى أوروبا، ص ٥٣. |
| (٣) | المصدر نفسه، ص ٥٧. |
| (٤) | الدرر البهية، ص ٣٦. |
| (٥) | تخليص الإبريز، ص ٦. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ١٤٩. |
| (٧) | انظر المصدر نفسه، ص ١٤٩. |
| (٨) | المصدر نفسه، ص ١٥٢. |

أجمع الرحالون على أن حرية الأديان في أوروبا مكفولة ، وخاصة فـي بريطانيا وفرنسا ، فذكر الطهطاوي أن هذا الحق مكفول في فرنسا ، إذ يباح عند هم " التعبد بسائر الأديان ، فلا يعارض مسلم في بنائه مسجداً ، ولا يهودي في بنائه بيعة " (١) . وتكفل الدولة هذه الحرية بحيث " يعاقب من تعرض لعابد فـي عبادته " (٢) . وقد رأى الشدياق ما رآه الطهطاوي في فرنسا ، فإن هذه الحرية مكفولة ، وأن كان الفرنسيون على مذهب واحد (٣) ، وفي إنجلترا ليس هذه الحرية ولكنه في الوقت نفسه ، أخذ على الدولة أنها لا تمنح مرتبة أو منصباً أو وظيفة لمن يخالف دينه دين الدولة ، ومع ذلك فقد تعددت المذاهب والأديان في بلاد الإنجليز ففيها الكاثوليك والبروتستانت ، والثانية هي الأكثرية ، بينما تضم إيرلندا أكثرية كاثوليكية (٤) . وقد رأى خير الدين التونسي ما رآه الطهطاوي والشدياق في فرنسا فقال : " وأما الديانات بجميع أنواعها ، فغض عنها الطرف بفرنسا ، فلا يمنع أحد ممن الدين بما شاء ، إلا أن غالب الفرنسيين ، متذهبون بالمذهب الكاثوليكي " (٥) . ومع أن اليهود والبروتستانت وأصحاب العقائد الأخرى قلّة بالنسبة للكاثوليك (٦) ، إلا أن الحرية الدينية مكفولة في عرف الدولة ، ويؤكد العراش هذه الصفة للفرنسيين ، إذ " لا زعم من سطوات شريعة مارقة " (٧) . ويرى محمد بيرم ما رآه الشدياق ، فيؤكد هذه الصفة للإنجليز ولكنه يأخذ عليهم ما أخذه الشدياق ، إذ " لا يتولى المراتب السامية فـي الدولة ، إلا من كان على مذهب الكنيسة البرتستانتيّة " (٨) . ومع أن هذا يتناقض مع مبدأ تكافؤ الفرص ، ومع ذلك فقد تعددت المذاهب والأديان عند الإنجليز ، فذكر محمد بيرم من هذه الأديان والمذاهب ، اليهود ، والدهرية ، والموحدين الذين

(١) تخليص الإبريز من ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

(٣) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٣ .

(٤) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٢ .

(٥) أقوم المسالك ، ص ١٣٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٧) رحلة باريس ، ص ٣٥ .

(٨) صفوة الاعتبار ، ٤ / ٤٧ .

هم أقرب إلى الإسلام من غيرهم (١) «بالإضافة إلى البوذيين الذين جاءوا إلى لندن بقصد التبشير ، وأقاموا هيكلا لهم دون أن تعترض الدولة على ذلك ، ولم تمنع فسي دخول من يشاء في زمرة هؤلاء البوذيين (٢) ، ويذكر أحمد زكي أنه رأى في إيطاليا وثائق مكتوبة في دار الوثائق ، في مدينة بيزا ، وبعضها " يتضمن الضمان لأهلها بالحرية التامة والأمان في كافة المعاملات ، وإقامة شعائر الأديان " (٣) وفي إنجلترا رأى مظهرا من مظاهر حرية الأديان ، وهو وجود خمسين صحيفة للديانة على سائر مذاهبها ، وذكر أن عدد الديانات عند الإنجليز يساوي ١٨٣ ديانة (٤) ، وذكر محمد لبيب أنه يوجد في روسيا مذاهب كثيرة ، وشيخ نصرانية ، وهي تمارس حرية العبادة والاعتقاد (٥) .

تكرم الدولة الأوروبية رجال الدين ، ويرى الشدياق أن السبب يعود إلى مصالح مشتركة بين السلطتين ، وهو التسلط على رقاب الرعايا ، وذكر أن السلطتين تعملان على إبقاء الناس في حالة من الجهل قدر الإمكان ، وذلك للسيطرة عليهم (٦) .

ولاحظ محمد بيرم عكس ذلك تماما ، ولكن في إيطاليا ، حيث منعت الدولة رجال الدين من التدخل في السياسة لخوفها " من تشويش سياستها ، لمخالفة مشرب الجزويت لمشرب الدولة " (٧) . ويبدو أن الدولة سواء أكانت على وئام أم على خلاف مع رجال الدين فإن هناك فصلا بين السلطتين ، وهذا واضح من ملاحظة الطهطاوي وخير الدين على القوانين الفرنسية ، فهي ليست مأخوذة من الكتب السماوية ، وجل ما فيها مأخوذ من عقول البشر ، ومستمد من سلطتهم (٨) .

-
- (١) انظر صفوة الاعتبار ، ٥٧/٤ ، ربما يعني بالموحدين جماعة الكويكرز ، فقد ذكر الشدياق أنهم لا يؤمنون بربوبية المسيح ، انظر بهذا الصدر الكشف ص ١٩٨ ، والبحث الفصل الثالث ، ص ١٩٣ .
- (٢) السفر إلى المؤتمر ، ص ١٠٨ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .
- (٥) انظر رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢١٢ .
- (٦) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٤ .
- (٧) صفوة الاعتبار ، ٥٥/٣ .
- (٨) انظر تخلص الإبريز ، ص ٦٥ ، ١٠٣ ، ١٤٩ ، وأقوم المسالك ، ص ٨٦ — ٨٧ ، وقد عمم خير الدين هذه الصفة على القوانين الأوروبية جميعها .

هناك بعض المظاهر السلبية المتعلقة بالأديان في دول أوروبا ، ومن ذلك الصراع بين البرتستانات والكاثوليك ، فقد ذكر الشدياق أن كل فريق يحاول إبعاد رعيته عن تأثير الفريق الآخر (١) ، واستنكر خير الدين هذا الصراع ، وبخاصة عندما يكون التعصب ضد من يخالف دين السلطة (٢) ، وقد لاحظ أحمد زكي هذا الصراع وما يصاحبه من بغض فذكر أن الإنجليز ينفضون " المذهب الكاثوليكي الرسولي الروماني ، ويكرهون البابا كراهية التحريم " (٣) وربما يكون الصراع ضمن الدولة الواحدة ، كما هو واقع بين البرتستانات في إنجلترا ، والكاثوليك في إيرلنده (٤) .

انفرد محمد بيرم في الحديث عن مظهر من مظاهر الصراع الديني ، وبين النصرانية والإسلام ، حيث ذكر أن الإنجليز يحاولون استغلال سلطتهم في الهند لتبديل عقائد المسلمين ، وذكر أنه حدثت مباحثات شهيرة في هذا الصدد ، وبين رجال الدين من الطرفين (٥) ، وأخذ على الإنجليز " تدخلهم في بلاد الاسلام بدعوى الحرية " (٦)

السياسة

شغلت قضيتا الحرية والمساواة اهتمام رجالنا ، ففي مجال الحرية ، لاحظ الطهطاوي في فرنسا ، أن هذا الحق منوح للفرد والفتات في مجالات مختلفة ، ولم يرفض أي مطهر من مظاهر الحرية هناك ، وتحدث عن طائفة سياسية " يميلون إلى الحرية بمعنى أنهم يقولون لا ينبغي النظر إلا إلى القوانين فقط ، والملك إنما هو منفذ للأحكام طبق ما في القوانين " (٧) وتقابلها فئة الملكية ، ولم يتحدث عن سلبيات أي من الفريقين ، وهذه إشارة إلى أنه يقر مثل هذه الحرية السياسية . وأعجب سليمان بن صهام

- | | |
|-------|-------------------------------------|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٤ . |
| (٢) | انظر أقوم المسالك ص ٣٩ ، ١٣٦ . |
| (٣) | السفر إلى المؤتمر ، ص ١٠٧ . |
| (٤) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٢ . |
| (٥) | انظر صفوة الاعتبار ، ٤ / ٦٣ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ٤٧ / ٤ . |
| (٧) | تخليص الإبريز ، ص ١٥٦ . |

بمظاهر الحرية السياسية في فرنسا ، التي جاءت نتيجة طبيعية لتقييد أيدي الحكام الفرنسيين ، وهذا واضح من قوله : " وأعلم أن ملوك فرانسه ، لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية ، لما قدروا على تحصيل بعض الغرض ، من عمارة البلدان ، وكثرة المساكن . " (١) وإن كان قوله لا يؤخذ على علته ، بسبب موقفه المشبوه في علاقته مع الاستعمار الفرنسي ، إلا أن قوله هذا لا يتناقض مع معاصره من الرحالة ، ولكن الشدائد ساءت الحرية التي تصاحبها الفوضى عند الفرنسيين ، فهاجم تعدد الأحزاب التي أرادت بالفرنسيين إلى الشقاق ، واستعداء الآخرين عليهم ، ورأى أن هذه الحرية هي التي جعلت إسبانيا تتأخر عن دول أوروبا في مجال التقدم (٢) ، وهذا يوحي بأن الشدائد مع الحرية المقيدة ، وقد أشار خير الدين التونسي إلى الحرية السياسية في أوروبا ، التي تتيح للرعية التدخل في السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الأصلح للملكة وهذه الحرية ، جعلته يدرك الشار التي تجنيها الشعوب الأوروبية فيقول : " من أهم ما اجتناه الأوروبيون من راحة الحرية ، تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاظم الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الصنائع . " (٣) حيث تفضي كل هذه الأمور إلى القوة الاقتصادية وزيادة رأس المال (٤) ، وهي النتيجة نفسها التي كان الطهطاوي وقد توصل إليها من " تعمير الممالك وراحة العباد . " (٥) وقد أعجب المراسم بالحرية في فرنسا ، دون تحديد لشكل هذه الحرية ، ولخص إعجابه بها في قوله : " انحطت العبودية في حضيض العدم ، وارتفعت الحرية على أوج الوجود . " (٦) وهذه الحرية رآها محمد بيرم التونسي في إنجلترا ، فذكر أن " لكل فرد وجماعة في ملكتهم بأن يتكلموا في السياسة العامة . " (٧) وتحدث في هذا الصدد عن حرية الأحزاب ، فذكر حزب الأحرار وحزب المحافظين ، ولكنه وضع يده على مظهر سليمي للحرية الحزبية

-
- (١) ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٤١ .
 - (٢) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٥ .
 - (٣) أقوم المسالك ، ص ٧٦ .
 - (٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
 - (٥) تخليص الإبريز ، ص ٨١ .
 - (٦) رحلة باريس ، ص ٤٧ .
 - (٧) صفة الاعتبار ، ٤ / ٥٥ .

عند الانجليز، وهو عدم وجود سياسة خارجية ثابتة لهم إذ تتغير هذه السياسة تبعاً للحزب الحاكم، مما قلل الثقة بسياسة الإنجليز الخارجية، من قبل الدول الأخرى. (١) وقد امتدح الشعب الإنجليزى بصدور الحرية السياسية، فوصفهم بأن "طبائعهم رزينة فمع إطلاق الحرية فيهم، لا يطيشون عن حدود الاستقامة، والانقياد إلى الحكم". (٢) ولم يلفت نظر أحمد ولد فاد من الحرية في فرنسا، غير الشعارات التي رآها مكتوبة على جدران المباني (٣)، والحرية الممنوحة للشعوب الأوروبية في مجال السياسة، حرية حقيقية، وقد جاء محمد لبيب بالدليل على ذلك، فالشعوب الأوروبية إذا لم تسر الحكام يفعلون ما فيه خير الأمة "انسحبت عليهم السنة الأهالي، وأقلام كتابهم، وطلب مجلس النواب إما إسقاطهم أو الاقتراع عليهم". (٤)

نفسه (١) ، وقد اعتبر خير الدين التونسي هذا النوع من الحرية ، مرادفًا للحرية الشخصية ، أو بنداً من بنودها " وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه (٢) ، والمخ إلى جوانبها الإيجابية في جلب "نتاج البلدان القاصية" (٣) وتنمية رؤوس الأموال وتكديس الأرباح (٤) .

في إطار المساواة ، تنبه الطهطاوي إلى هذه الظاهرة الإيجابية في فرنسا إذ أعطي كل فرد الحق في تعمير البلاد ، واكتساب المعارف ، وفي النهاية تراكم الفنى وارتجاج القلوب (٥) وهذا نتيجة طبيعية ، لتساوي جميع الفرنسيين " أمام القانون ودفع الضريبة على المال ، كل على حسب ثروته " (٦) حتى أن هذه المساواة قائمة بين الملك وأى فرد من رعيته أمام القانون ، بحيث يحق للفرد الفرنسي إقامة دعواه على الملك فينفذ " عليه الحكم كغيره " (٧) وهذه المساواة تجعل " أصحاب الأموال فسي أمان من الظلم والرشوة " (٨) وتتيح لجميع الفرنسيين فرصة أداء الخدمة العسكرية (٩) وقد نفى الشدياق هذا المظهر عن الإنجليز ، وأرجع ذلك إلى وجود الطبقة ، التي نتج عنها عدم تكافؤ الفرص ، سواء بالنسبة للوظائف الرسمية أو المراكز القيادية فسي الجيش ، حتى أن القانون يكون دائماً في مصلحة الطبقة العليا ، في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بينما لا توجد هذه الصفة عند الفرنسيين والدول الأوروبية الأخرى ، بشهادة الشدياق نفسه (١٠) ، وقد أعجب خير الدين التونسي بالمساواة فسي فرنسا فيما يتعلق بحق الانتخاب ، وقد منح هذا الحق للمواطنين الفرنسي ضمن شروط فمن " بلغ سنه خمسا وعشرين سنة يمكن انتخابه ، وكل من بلغ احدى وعشرين سنه

-
- | | |
|------|---|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٥ . |
| (٢) | أقوم المسالك ، ص ٧٤ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٧٦ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ٧٦ . |
| (٥) | انظر تخطيطي الإبريز ص ٨١ ، هذه النصوص مترجمة عن القانون الفرنسي . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٨٢ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٩٥ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٩١ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٩٤ . |
| (١٠) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ . |

يكون له حق الانتخاب .^(١) وأشار إلى ما أشار إليه الطهطاوي من إجراء المساواة بين " أبناء الأمة الفرنسية من غير فرق .^(٢) في مجال الخدمة العسكرية ، ويختلف الفرنسيون عن الإنجليز في توزيع المناصب المدنية والعسكرية ، فهي تعطى عند الفرنسيين بالجدارة " فلا يمكن أن يصير ضابطاً في المعسكر إلا بالاستحقاق .^(٣) وتحدث خير الدين عن قانون الترقيات في الجيش الفرنسي ، لترجيح وجهة نظره .^(٤)

وضع محمد بيرم يده على بعض المظاهر السلبية ، المشابهة للمظاهر التي ذكرها الشدياق ، وتدل على انتفاء صفة المساواة في توزيع المناصب عند الإنجليز ، وقد وجد أن الأساس الذي يقوم عليه توزيع المناصب هو " قبول جاء العملية منهم والأعيان في توظيف معارفهم وأقربائهم . . . ومن ذلك الرتب العسكرية ، فلاتنال إلا للأعيان العملية .^(٥) وفي دول أوروبا بشكل عام ، لخص محمد لبب رأيَه بالمساواة فيها بقوله " الهيئة الحاكمة لا تهتم بمساعدة زيد على عمرو ، وإنما كل اهتمامها إيجار تلك المشروعات العمومية ، على ما تسمح به ماليتها .^(٦) والمساواة تنسحب على المراكز العليا في الدول الأوروبية ، فـ " مراكز الوزراء لا تعطى إلا إلى أكبر الناس عقلاً ، وأمتهم علماً ، وأكثرهم حزماً وأعلامهم قدراً .^(٧)

اهتم الرحالون بترجمة ونقل وتلخيص القوانين الأوروبية ، وعلى رأسهم الطهطاوي ، الذي اهتم بعرض ملامح القانون الفرنسي ، مدفوعاً بإعجاب شديد ، عبّر عنه بالقول : " سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة . . . من رفيع ووضيع ، لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون .^(٨) ونتيجة لهذا الكمال في القانون الفرنسي فإن الطهطاوي لم يسمح مدة إقامته في باريس أحداً يشكو من المكوس والجبايات .^(٩) والقانون

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | أقوم المسالك ، ص ١٤٠ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٤٧ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ١٤٧ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٨ - ١٤٩ . |
| (٥) | صفوة الاعتبار ، ٤٧/٤ ، انظر أيضاً المصدر نفسه ، ٤٤/٤ . |
| (٦) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٤٢ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٢٤١ . |
| (٨) | تخليص الإبريز ، ص ٩٠ ، ونس مترجم . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ٩١ . |

الفرنسي برأيه ،يرعى مجموعة من المقاصد منها : الحق العام للفرنساوية ،الذى يضمن المساواة والحرية (١) ،وكان الشدياق قليل الإعجاب بالقانون الإنجليزي ،فوصفه بأنه من أطول الشرائع وأكثرها تناقضا ،وذلك لأنه مأخوذ من قوانين رومانية ونورماندية وعكسونية ،وقوانين بحكم العادة ، واجتهادات القضاة وأحكام مجلس المشورة ، وأحكام الكنيسة (٢) ،وقد أشار خير الدين التونسي إلى الظاهرة نفسها، إذ رأى أن قوانين الإنجليز " تستند إلى القانون العام المؤسس على مجاري العادات ،وتؤخذ من الأحكام التي جرى بها العمل ، ومن الشروط المتفق عليها ، ومن شريعة الرومان ، ومن القانون المسطور ، والأحكام المؤلفة ، وأنظار المشرعين الكبار من البرلمان والجمعيات التي عليها مدار الإدارة الحكيمة " (٣) وأضاف بأن قوانين الدول الأوروبية " قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الديني " (٤) ولم يختلف محمد بيرم عن الشدياق وخير الدين التونسي في رؤيته للقوانين الإنجليزية ، فاعتبرها " من أصعب الشرائع لأنها تستند إلى مجموع أشياء " (٥) وربما يعني بهذه الأشياء ما عناه الشدياق وخير الدين .

اهتم الشدياق ومحمد بيرم التونسي بتتبع ثغرات القانون الإنجليزي ، فذكر أنها قلة وجود محاكم وقضاة في البلاد البعيدة ، بالإضافة إلى تطويع هذه القوانين لتكون في مصلحة الكبراء ، لأنهم هم الذين يقرونها (٦) ، ولكنهما في الوقت نفسه ، اعترفاً بأن قضاة الإنجليز على قدر كبير من النزاهة (٧) ، وقد وصل الشدياق في نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها ، أن القوانين الفرنسية أقوم وأعدل من القوانين الإنجليزية ، ودليل على صحة رأيه بمطالعة الأمر في فرنسا ، التي يقابلها عند الإنجليز حدوث هلايا كثيرة مثل تزيف النقود ، وسرقة الديار ، وجرائم القتل (٨) ، وتشمل هذا الجانب الإيجابي

-
- | | |
|-------|---|
| (١) | انظر تخلص الإبريز ، ص ٨٢ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٧ - ١٩٨ . |
| (٣) | أقوم المسالك ، ص ٢١٥ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٨٦ - ٨٧ . |
| (٥) | صفوة الاعتبار ، ٤ / ٤٨ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ٤٩ / ٤٢ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ١٩٧ . |
| (٧) | انظر المصدر نفسه ، ٤٩ / ٦٤ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٠ . |
| (٨) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٠ . |

للقانون الفرنسي في كونه " يضمن حقوق الدولة والرعية " (١) وأن " سلطة التشريع منفصلة عن سلطة التنفيذ ، بمعنى أن لا يكون مخترع القانون هو المنفذ له " (٢) وأضاف خير الدين إلى هذه الإيجابيات " أنه ليس في بريطانيا وزارة حكم مثل التي بفرنسا وليس فيها من القوانين ما يردع الموظفين صفارا وكبارا في حال ارتكاب المخالفات " (٣) وهذا ما أشار إليه المراس عند إطراره الهيكل السياسي الفرنسي ، الذي يعمل بدون نزاع في جزئياته ولا انقسام في كلياته (٤)

نالت مسألة الأمن في أوروبا اهتمام بعض الرحالين ، وقد ألمحوا إلى أن هذه الظاهرة الإيجابية نتيجة طبيعية لسيادة القانون ، وتوظيفه للمصلحة العامة ، ففي مجال الأمن عند الإنجليز ، ذكر الشدياق من مظاهره ، أن الإنسان لو ملك مبالغ طائلة من المال ، فلا يخشى عليها من حاكم أو غيره ، وأبرز دور الشرطة في كل من باريس ولندن في هذا الإطار ، وإن كان قد رجح باريس على لندن في هذا المجال (٥) ، ونتيجة لسيادة القانون وانتشار الأمن ، فقد ذكر خير الدين التونسي ، أن ملكة الإنجليز " تقدمت في عمران أرضها بأنواع الفلاحة والمواشي ، تقدمت ما كليا منذ نيف وثلاثين سنة " (٦) وكان مراعش شديد الإعجاب بالأمن الذي تسبح فيه فرنسا التي رآها " راتعة في مراتع الفنون والثروة ، بدون حذر من وحش مفترس ، أو جار مختلس " (٧) وقد لاحظ أحمد زكي الظاهرة نفسها في إيطاليا ، وأرجع الفضل في ذلك إلى الشرطة التي تتصف بـ " الانتظام وحسن الدراية ، وكمال الدربة ، ومعرفة الواجبات ، مالا يكاد يضافهم فيه غيرهم في الكون بأسره ، حتى صار لهم مهابة " (٨)

كان الهيكل السياسي في بعض دول أوروبا مدار بحث واهتمام ببعض

-
- | | |
|-------|-------------------------------------|
| (١) | أقوم المسالك ، ص ١٥٥ . |
| (٢) | المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٢١٤ . |
| (٤) | انظر رحلة باريس ، ص ٣٤ . |
| (٥) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٠ . |
| (٦) | أقوم المسالك ، ص ٢٢٣ . |
| (٧) | رحلة باريس ، ص ٣٤ . |
| (٨) | السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٢ . |

الرحالين ، ومنهم الطهطاوي ، الذي أعجب بالهيكل السياسي في فرنسا ، فيما يتعلق بالمملكة والوزراء والقضاة ، وبين اختصاص كل فئة من هذه الفئات (١) ، واتفق الشدياق مع الطهطاوي حول ذلك ، واهتم بالنتيجة المترتبة على حسن الإدارة وتوزيع المناصب ، وبين ذلك رأب الحكام الفرنسيين الاعتناء بالمصالح العامة ، والمرافق ، وراحة الجمهور ، مما لا يوجد عند الإنجليز ، إذ يبنى الهيكل السياسي عندهم على الطبقة ، ومن ذلك وجود مجلس السادات ومجلس العموم ، بحيث لا يحق للثاني الاعتراض على ما يقره الأول ، بينما يحق لمجلس السادات ، أن ينقض ما يشاء من القرارات التي يتخذها مجلس العموم ، وتوظيف الأشراف في المناصب العالية دون غيرهم . (٢) ولخص محمد بيرم رأيه المشابه لرأي الشدياق في الهيكل السياسي عند الإنجليز بقوله : " إن سياسة الإنجليز " مبنية على اعتبار تسلط الملك ، ونفوذ الأعيان ، واحتساب الأواسط من الناس ، فكل من السلطات الثلاث مرتبطة ببعضها . (٣) ولم يذكر أن للطبقات الأخرى دور في الحياة السياسية أو الهيكل السياسي العام للإنجليز ، ولكنه أعجب بالإنجليز ، لأنه لا يتعدى الواحد منهم على اختصاص الآخر ، وإن انتفت المساواة في توزيع المناصب بين طبقات الشعب . (٤) وهذا ما كان قد لسه خير الدين التونسي في فرنسا ، إذ رأى أن كل مسؤول يتصرف فيما وكل إليه من الأعمال والجميع محاسبون على تصرفاتهم ، ويجتمعون للنظر في المصالح العامة تحت رئاسة الملك ، أو من ينوبه كل أسبوع مرتين . (٥) وفي أوروبا الشرقية كان محمد لببيب معجبا بالهيكل السياسي في رومانيا ، وبرر هذا الإعجاب بأن الهيكل السياسي يقوم على أسس " دستورية ، وبها مجلس الأمة ، ومجلس للشيوخ ، وهما ينظران في كل إصلاح يعود على الأمة بالخير والفلاح . " (٦) وهذا ما عممه خير الدين التونسي على دول أوروبا . (٧)

-
- | | |
|-------|-------------------------------------|
| (١) | انظر تخلص الإبريز ، ص ٨٠ - ٩٦ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٢ . |
| (٣) | صفحة الاعتبار ، ٤٤ / ٤ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ٤٤ / ٤ . |
| (٥) | انظر أقوم المسالك ، ص ١٤٤ . |
| (٦) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٠٢ . |
| (٧) | انظر أقوم المسالك ، ص ٨٢ . |

من الأمور التي كانت محور اهتمام الرحالين، القوانين العسكرية، والقوة الحربية لدول أوروبا، فتحدث الطهطاوي عن الجيش الفرنسي قوته وسطوته. (١) وشاركه المراسل هذا الرأي (٢)، وتحدث خير الدين التونسي عن القوانين العسكرية في فرنسا وأعجب بنظام التقاعد، والمجالس العسكرية ومهامها، والرتب العسكرية حتى رتبة وزير الحرب (٣)، وأرجع شهرة الجيش الفرنسي إلى هذا النظام المتماك، حتى صار قدوة لغالب الممالك. (٤)

تحدث الشدياق عن الجيش الإنجليزي حديثاً لا ينم عن الإعجاب، وخاصة عند حديثه عن أقسام، ونظام الرتب فيه، ولكنه أطرى نظام التقاعد، وشدة الطاعة ورجح كلفة الجيش الإنجليزي في مسألة الطاعة على الجيش الفرنسي الذي يميل إلى الفوضى والفتن (٥)، وقد ربط قوة الجيوش الأوروبية بالقوة الاقتصادية بعد الثورة الصناعية فأورد إحصائيات لمظاهر هذه القوة، عند أمريكا، وأستراليا، وهولندا في مجال الأسلحة والنفقات (٦) واعتبر محمد بيرم إنجلترا من أقوى دول أوروبا عسكرياً وذكر من مظاهر هذه القوة، السفن الحربية الكثيرة بالإضافة إلى السفن التجارية وتفوق الإنجليز بمعرفة فن البحار. (٧)

اختلفت وجهات نظر الرحالة حول الاستعمار، وأغفل بعضهم هذه الظاهرة اغفالا تاماً. فالطهطاوي لم يلفت نظره هذا الجانب السلبي لأوروبا، على الرغم من أن الجزائر كانت مستعمرة إنجليزية في الوقت الذي زار فيه فرنسا، والأغرب من ذلك أنه دعا الأجانب للاستقرار في مصر عندما قال: "فمخالطة الأعراب، ولا سيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب، ولو كانت مرتبة على ظواهر التغلب والاعتصاب". (٨) وقد خالفه الشدياق، إذ أدرك خطـ

- (١) انظر تخلص الإبريز، ص ٨.
- (٢) انظر رحلة باريس، ص ٣٣ - ٣٤.
- (٣) انظر أقوم المسالك، ص ١٦٢.
- (٤) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
- (٥) انظر البحث، الفصل الثالث، ص ٢٠٥.
- (٦) انظر البحث، الفصل الثالث، ص ٢٠٤.
- (٧) انظر صفوة الاعتبار، ٤/٥٣.
- (٨) رفاة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب، ١٢٨٦ هـ، ص ١٢٨ - ١٢٩.

الاستعمار على الشعوب ، فالمح أولاً إلى علاقة الإنجليز بالإيرلنديين ، فرأى أنه لا علاقة مبنية على التغلب والقهر ، بدليل القسوة والجفاء بين الطرفين ، إذ يرى الإنجليز أن لهم عليهم حق التغلب والقهر ، ورأى أن هذه الصفة تميز إنجلترا في علاقتها مع الشعوب التي تغلبت عليها ، وأدرك الأهداف الاقتصادية التي يسعى إليها الاستعمار بحيث يجعل المستعمرات سوقاً لمنتجاته الصناعية^(١) . ومن هذا المنطلق ، كان شديد الاستياء من الأجانب الذين حلوا في مصر^(٢) . ولعل لإقامته في مالطة ورويته لتجربة المالتبيين مع الاستعمار ، أثراً على إدراكه المبكر لمساوي الاستعمار وأهدافه ، ولا حظ خير الدين التونسي الظاهرة نفسها في وقت مبكر أيضاً ، إذ رأى التجار الأوروبيين في تونس ينفذون سياسة حكوماتهم دون أن تشعلهم قوانين البلاد^(٣) ، ورآها من خلال الضغوط التي تمارسها دول أوروبا على الدولة العثمانية ، وتدخلها المستعمر في شؤونها الداخلية بحجج مختلفة^(٤) . وقد وضع محمد بيرم التونسي يده على مساوي هذه السطوة ، التزامهم بالنظام ، وقوة بنيتهم العسكرية^(٥) ، وذكر أن غاية ما يربسده الإنجليز من استعمار البلاد " رواج التجارة ، فإن مائتي مليون من الخلق لا يجولون إلا في السلع والبضائع الإنجليزية " .^(٦) وبين السياسة التي ينتهجها الإنجليز في استعمارهم للشعوب ، فذكر أن من رآهم " مجارة الأهالي بما لا ينفرهم من إجراء العدل بينهم والزام أمرائهم وعلوكهم بذلك ، وحربيتهم في سائر أطوارهم ، حتى أنها تعظم لهم شعائره الدينية " .^(٧) ولكنهم أيضاً " قساة وقلوبهم فظة غليظة عند الشورى " .^(٨)

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٩ . |
| (٢) | انظر الساق على الساق ، ص ٢٦١ . |
| (٣) | انظر أقوم المسالك ، ص ٣٧ ، ٣٩ . |
| (٤) | انظر صفوة الاعتبار ، ٢٥/٢ - ٦٦ ، حيث تحدث محمد بيرم التونسي عن ردود فعل خير الدين التونسي إزاء هذه التصرفات ، وخاصة فيما يتعلق بعدم خضوع الأجانب المقيمين في تونس للقوانين المحلية . |
| (٥) | انظر المصدر نفسه ، ٤٨/٤ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ٥٠/٤ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ٥١/٤ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ٥٢/٤ . |

بالإضافة إلى دأبهم إغراء* الأهالي للانقسام ، وبذل الأموال العظيمة في ذلك ، فإذا وقع الانقسام وقع الانتقام .*(١) وهذه المعرفة العميقة لطبيعة الاستعمار الإنجليزي ، تدل على رؤية واضحة وتجربة عميقة ، ميزت محمد بيوم عن الرحالة الآخرين في هذا الإطار وان لم يكن سابقا للشدياق وخير الدين التونسي .

نظر الرحالة الجزائريان سليمان بن صيام ، وأحمد ولد فاد ، إلى الاستعمار الفرنسي ، نظرة مختلفة تماما ، على الرغم من أن بلادهما كانت تعاني تحت الاستعمار الفرنسي ، مما يجعل المرء يشك في أن إطاراً هم للمستعمر الفرنسي إنما جاء بسبب تواطئهم على أسوأ الاحتمالات ، أو خوفهم من بطش هذا المستعمر ، في أحسن الحالات فسليمان بن صيام يعدح ملوك فرنسا ، ويصفهم بالعدل والرفق بالرية (٢) ، ولم ينوه بهذا الصدد بأن هذا الرفق إنما هو مع الفرنسيين دون الجزائريين ، ولكنه عم الحكم ، ولم ير في فرنسا غير دولة يجب طاعة ملوكها ، كما صرح في مقدمة رحلته .*(٣) وأما أحمد ولد فاد ، صاحب الرحلة الفادية ، فقد كان أكثر تطرفاً من ابن صيام ، في أكباره للاستعمار الفرنسي لبلاده ، وهذا واضح من قوله : " فمما قريب يأتي زمن يمتزج فيه العرب مع الفرنسيين ويصيرون كذات واحدة .*(٤) ولم يجد أن هناك تناقضاً بين الطرفين غير مسألة الديانة ، ويرجو بمنتهاى الذل من الحاكم الفرنسي للجزائر " حسن التفاتة نحو العرب من رجال الدولة وأوتادها ، الذين ارتبطنا معهم زمناً طويلاً بسلسلتين متينتين وهما اختلاط الدماء في مواطن الحروب ، واختلاف الأيادي على الطعام .*(٥) على حد قوله ، ويصل إلى درجة مبالغ فيها من التملق عندما يقول إن قلوب العرب ازدادت " تعلقاً بحب الفرنسية لما علمناه من حريتنا نحن العرب ، ومساواتنا مع النجباء " أولاد فرنسة .*(٦) وهذا يتناقض مع قوله السابق ، فيما يتعلق بطلبه من حاكم الجزائر الفرنسي حسن الالتفات إلى العرب ، والذي يجدر ذكره في هذا المقام ، أن هذا الرحالة

-
- | | |
|-------|----------------------------------|
| (١) | صفوة الاعتبار ، ٥٢ / ٤ . |
| (٢) | انظر ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٤١ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٦٣ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٦٢ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٦٢ . |

قد زار فرنسا ثلاث مرات ، بناءً على رغبة المسؤولين الفرنسيين (١) ، مما يجعل المرء يشك بطبيعة علاقته مع المستعمر الفرنسي .

رؤى الرحالين للاقتصاد الأوروبي

رأت غالبية الرحالين ، أن من المواطن الأساسية المنمو الاقتصادى عند الأوروبيين ، حبهم للعمل وإقبالهم عليه ، وهذا ما لمس الطهطاوي في فرنسا ، إذ أن "المركز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة الكسب والشفقة به ، وصرف الهمة إليه بالكلية ، وممدح الهمة والحركة ، وذا كسل والتواني" (٢) وهذه الصفة يتساوى فيها "الفني والفيلسوف" (٣) من الفرنسيين ، وقد أشار سليمان بن عياض إلى الصفة نفسها عند الفرنسيين على الرغم من "رفاهية عيشهم" (٤) وقد صورهم المراسل تصويراً بارعاً في مجال الإقبال على العمل في قوله : "فهنالك الجميع يتسابقون في ميادين التقدم والفلاح" (٥) خاصة وأنهم يعرفون "أن التهاون يلد تأخراً ، والسكون قهقرة ، والبطو احتقاراً ، والبطالة فقرًا وفاقة" (٦)

وقد ذكر الشدياق أن دين الإنجليز العمل ، وأن لديهم من المواظبة والصبر عليه ، ما جعل الوضع الاقتصادي عندهم مزدهراً . (٧) وهذا ما أبداه محمد بيبرم ولكنه أخذ عليهم "عدم الإيمان بالقدر ، حتى إذا بنس أحدهم من المال قتل نفسه" (٨) ونتيجة لهذه القناعة فإن الإنجليز "يعتبرون الفقرياً ، بخلاف سائر الأمم ، ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل" (٩) وأضاف أحمد زكي إلى قوله هذا ، أن الإنجليز

- (١) انظر ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
- (٢) تخلص الإبريز ، ص ١٤٣ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
- (٤) ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٣١ .
- (٥) رحلة باريس ، ص ٣٤ ، سبقت الإشارة إلى ذلك في البحث ، ص ٢٣٩ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .
- (٧) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٦ .
- (٨) صفوة الاعتبار ، ٤ / ٥٨ .
- (٩) السفر إلى المؤتمر ، ص ٩٦ .

يتصفون بالجرأة والإقدام فهم يقتحمون كل الأخطار بحثاً عن فرص الثراء (١) وأما الشعوب الأوروبية الأخرى ، فقد وصفها محمد لبيب بالصفة ذاتها التي أطلقها الرحالة على الإنجليز والفرنسيين ، فالبلجيكي يتفوق على الفرنسي " بقوة الإرادة والمثابرة على العمل " (٢) وأما النمساويون ، فيتصفون أيضاً " انكبابهم على العمل ، وعدم اشتغالهم إلا بما يفيدهم " (٣) وكذلك أهل كولونيا حيث " لا فرق بين الرجل في ذلك والعراة (٤) من عوامل النمو الاقتصادي في الغرب ، الثورة الصناعية التي هي قوام الإنتاج الوفير (٥) ، ويكاد الرحالة يجمعون على هذا الرأي ، ونتيجة لاهتمامهم بهذا الجانب فقد أوردوا إحصائيات مختلفة عن مصادر الإنتاج التجاري والصناعي (٦) وأهم مصادر الإنتاج التي لفتت نظر الشدياق ، الصناعة المتقدمة ، ومنها صناعة التعدين ، وأثرها في تشجيع الأيدي العاملة ، وصناعة النسيج ، والجدوى الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن ذلك عند الإنجليز ، ويرجع كل هذا التطور والنمو إلى الثورة الصناعية (٧) ، لذلك اعتنى الأوروبيون بكل وجوه الترغيب الممكنة لرعاية وتشجيع المخترعين والمبدعين ، فصنعوا التماثيل للمخترعين ، ووضعوها في الميادين العامة ، وسمو الجسور والشوارع باسمائهم ويرجع خير الدين التونسي هذا التقدم أساساً إلى الآلة البخارية ، إذ تحدث عنها وعن مخترعها بإسهاب وإعجاب (٨) ، وامتدح الصناعات الفرنسية ، من حيث وفرة الإنتاج ورخص الأسعار ، وخاصة الصناعات النسيجية (٩) ، ويرجع سليمان بن صيام التقدم الصناعي عند الفرنسيين إلى عامل مهم ، هو امتثال الفرنسيين لأمرائهم (١٠) ، وإن كان هذا الرأي يمثل كلمة حق يراد بها باطل ، إذ يريد ابن صيام أن يصور للجزائريين ، أنه

-
- | | |
|------|-------------------------------------|
| (١) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ١٢٣ . |
| (٢) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٦٦ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٥٢ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٥٧ . |
| (٥) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٦ . |
| (٦) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٧ . |
| (٧) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٧ . |
| (٨) | انظر أقوم المسالك ، ص ٦٤ . |
| (٩) | انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٥ . |
| (١٠) | ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٣٣ . |

لا بد من طاعة الفرنسيين إذا أراد الجزائريون أن يصلوا إلى المستوى الصناعي الذي وصلت إليه فرنسا ، وهذا مناقض تماما لما قاله الشدياق عن الفرنسيين ، الذين يحبسون الفوضى والعناد (١) ، ويرى المراس أن التقدم الصناعي في فرنسا " نتيجة ما بلغ اليه العقل عندهم من التقدم والنجاح " (٢) وذلك " لأن العقل المستنير في هذه الديار قد استخدم نواحي الصناعة ، فقهر شرائع الطبيعة " (٣) لذلك لا يكاد البصر في فرنسا يقع إلا على " أفواه الآلات والأجهزة ، ولا تكف ألوف المعامل التجارية ، صافسرة بأبواقها النارية ، لتدعو فرسان العقول إلى مواصلة النزول في حومة الإبداع والاختراع " (٤) وهذا ما ذكره محمد بيرم التونسي عن باريس ، وكان شديد الاهتمام والإعجاب بمعامل النسيج وإنتاجها الثمين (٥) ، وأعجبه في إنجلترا الصناعة نفسها ، إذ " لهم فيها مهارة على سائر الممالك ، حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم " (٦) ولفت نظره ما لفت نظر الشدياق بصناعة التعدين ، وخاصة الفحم الحجري ، وذلك في إنجلترا إذ تتوقف " الأشغال الصناعية عليه ، لكثرة المعامل البخارية ، ولذلك اشتدت عنايتهم به " (٧)

أرجع محمد بيرم التونسي النمو الاقتصادي إلى عاملين متلازمين لاحظهما في أوروبا " العدل والعلم ، فعلى قدر اتقاء ذلك تنمو الثروة " (٨) ورأى أن هذين العاملين متوفران في إنجلترا ، التي أسهب محمد الطاهر الغاسي والباجوري في تعداد مصانعها (٩) ، وأضاف الباجوري حديثا عن الصناعة في إيطاليا ، وكان شديد الدهشة وهو يصف غسالة الملابس والمصعد ، وآلات مختلفة للخبز والطبخ والفريلسة وغسيل القمح (١٠) ، وكان أحمد زكي شديد الإعجاب بالمعارض الصناعية في باريس

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٥ ، ١٩٥ . |
| (٢) | رحلة باريس ، ص ٢٦ - ٢٧ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٣٦ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٣٣ . |
| (٥) | انظر صفوة الاعتبار ، ٨٤ / ٣ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ٦٥ / ٤ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ٦١ / ٤ ، انظر إحصائية مرفقة في الصفحة نفسها |
| (٨) | المصدر نفسه ، ٦٣ / ٤ . |
| (٩) | انظر الرحلة الإبريزية ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، انظر أيضا الدرر البهية ، ص ٤١ ، ٤٢ . |
| (١٠) | انظر الدرر البهية ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ . |

وبين الهدف الأساسي الذي تقوم من أجله مثل هذه المعارض، وأولها، بحث الشعب "على التقنيين والاختراع وثانيها، تعريف الأهالي بما ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد". (١) من مقومات الاقتصاد في أوروبا، التجارة، وقوام التجارة الشركات بأنواعها لذلك عمل الأوروبيون على تنمية هذا الجانب، لتيسير أسباب التجارة، لذلك أنشأ الفرنسيون الشركات، ومن هذه الشركات، شركات التأمين، التي سماها الطهطاوي شركات الضمان، وبين فوائدها الاقتصادية، ومهامها في التأمين ضد الحوادث بأنواعها على البيوت والحوادث (٢)، وشاركة الشدياق في الحديث عن مقومات التجارة، وفيمن دور المصارف والبنوك والشركات المساهمة، وخص منها بالاهتمام، شركات سكك الحديد في إنجلترا، التي تجني أرباحاً طائلة، وفي مجال التجارة الخارجية تحدث عن الشحن البحري في كل من إنجلترا وفرنسا، والموانئ التي يمتنون بها عناية فائقة، لتحقيق النمو المنشود في مجال التجارة. (٣) وخصص خير الدين التونسي جزءاً من صفحات كتابه للحديث عن نظام وقوانين الشركات في أوروبا، ونظام الفوائد والأسهم التي سماها الحصص، وعن المشاريع الجبارة التي تنفذها الشركات، فذكر منها "شق خليج السويس وطريق الحديد الجامع بين طرفي البحر المحيط بأمريكا، وثقب جبل الالب الكاسين بين إيطاليا وفرنسا، وقطع جبل البريني بين فرنسا وإسبانيا". (٤) وأفاد أن دور هذه الشركات قد تعدى ذلك، حتى عم "سائر المعاملات المدنية والتجارية". (٥) وأضاف محمد بيرم إلى كل ذلك حديثاً عن نشاط هذه الشركات في مجال الدعاية والإعلان عن نشاطها، فذكر الإعلان عن ذلك في الصحف، وإرسال مندوبين لاكتشاف تجارات البلدان والقطار (٦)، وهو في حديثه يعني إيطاليا وشركاتها، ولغت نظراً أحمد زكي المنافسة الشريفة بين هذه الشركات، التي تعتمد على "المناظرة المحمودة". (٧) مما جعل الحكومات الأوروبية تثق بهذه الشركات، وما عليها "سوى المراقبة العالية التي

- | | |
|-----|----------------------------------|
| (١) | السفر إلى المؤتمر، ص ٣٢٥. |
| (٢) | انظر تخلص الإبريز ص ١٤٤. |
| (٣) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ٢٠٨. |
| (٤) | أقوم المسالك، ص ٧٨. |
| (٥) | المصدر نفسه، ص ٧٧. |
| (٦) | انظر صفوة الاعتبار، ٣٠/٤٨. |
| (٧) | السفر إلى المؤتمر، ص ٨٤. |

تجعل الجمهور في أمان من اغتيال هذه الشركات . (١) وشارك محمد لبيب أحمد زكي في ذكر أنواع مختلفة للشركات ، مثل شركة الاستفاعة بالبوليس والأطباء والمطافئ (٢) وشركة البوستة والتلفراف التي استفرب أحمد زكي ، أنها خاضعة لنظام الشركات (٣) .

أجمع الشدياق وخير الدين التونسي على أهمية المصارف والبنوك في الأعمال التجارية ، فهي بالإضافة إلى أنها تسهل المعاملات وتختصر الوقت (٤) ، فإنها تساهم في تسهيل المعاملات التجارية في خارج الدولة الواحدة ، وذلك لانتشار الفروع البنكية (٥) ، وأضاف خير الدين التونسي حديثاً وصف فيه نظام الودائع البنكية والقروض الداخلية والدولية (٦) ، وهذا ما رآه محمد بيرم في إيطاليا (٧) ، وما رآه الباجوري في المستعمرات الانجليزية (٨) حيث تنشط التجارة بين إنجلترا من جهة ومستعمراتها ودول المشرق وإفريقيا ودول البحر الاسود من جهة أخرى (٩) .

ربط بعض الرحالين بين الوضع الإقتصادي في بعض دول أوروبا والاستعمار فبينوا الجدوى الاقتصادية لهذا الاستعمار ، ومنهم الشدياق ، فقد تحدث عن الهندس والدور الذي تلعبه إنجلترا في مجال التسويق التجاري في هذه المستعمرة الواسعة (١٠) وهي المستعمرة نفسها والأهداف نفسها التي أشار إليها محمد بيرم التونسي ، إذ رأى أن هذه المستعمرات تسهم في " زيادة التقدم والغنى " (١١) في إنجلترا ، وذلك من خلال تجارة الانجليز في مستعمراتهم وغيرها (١٢) ، وقد ربط أحمد زكي بين الاستعمار الانجليزي والأهداف الاقتصادية ، عندما ذكر أن استعمار الهند يعود إلى شركة تجارية (١٣) .

- | | |
|--------|---|
| (١) | السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٤ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ١٠٠ ، وانظر أيضاً رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٤٢ . |
| (٣) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٥ . |
| (٤) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٨ . |
| (٥) | انظر أقوم المسالك ، ص ٨٩ . |
| (٦) | انظر المصدر نفسه ، ص ٨٩ . |
| (٧) | انظر صفوة الاعتبار ، ٧ / ٣ ، ص ٤٨٠ . |
| (٨) | انظر الدرر البهية ، ص ٥٣ . |
| (٩) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٨ . |
| (١٠) | انظر كشف المخبا ، ص ٣٤٧ - ٣٤٩ ، وانظر أيضاً البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٩ . |
| (١١) | صفوة الاعتبار ، ٤ / ٤٤ . |
| (١٢) | انظر المصدر نفسه ، ٤ / ٦١ . |
| (١٣) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٥ . |

انفرد محمد لبيب في التنبيه إلى القوانين الجمركية ، والجدوى الاقتصادية لهذه القوانين ، فقال إن بعض الدول الأوروبية " ترفع قيمة الجمارك على البضائع التي تردّها من الخارج ، إلى الحد الذي لا يكون ربح لأربابها ، وربما كانت فيه الخسارة عليهم . . . وهذا هو أكبر عامل على ترويح تجارتهم وصناعاتهم " (١) ولفت نظره المعاهدات التجارية بين الدول الأوروبية ، وأعجب كثيرا بالتزام الشعوب بهذه الاتفاقيات ، مستشهدا لذلك ، برجل رفض بيع العا* المعدني النمساوي في القطار ، لأنه كان في الأراضي الألمانية ، متذعرا بالمعاهدة الاقتصادية بين النمسا وألمانيا . (٢)

من الجوانب المتعلقة بالاقتصاد في دول أوروبا ، الجانب الزراعي فذكر الطهطاوي أن الفرنسيين ، يهتمون بالزراعة ، واتباع الأساليب العلمية ، ومن ذلك " تطبيع النباتات كالحيوانات الغربية ببلادهم " (٣) وهي الملاحظات نفسها التي رآها الشدياق في كل من إنجلترا وفرنسا ، وزاد عليها ما رآه من الأساليب ، مثل الزراعة في البيوت الزجاجية ، لإنتاج محاصيل البلاد الداخلية والحارة ، واستعمال المبيدات الحشرية ، وكان شديد الإعجاب بالإنجليز الذين لا يتركون الأرض بورا ، بالإضافة إلى اهتمامهم الشديد بتربية المواشي (٤) ، وانفرد خير الدين التونسي في حديثه عن دور المرشدين الزراعيين في فرنسا ، المعارفين بقواعد الفلاحة ، المتوزعين في جميع أنحاء فرنسا (٥) ، ولم ير سليمان بن صيām في فرنسا " موعضا خاليا من الفراسة والحراشة وكثرة الأشجار والظل " (٦) وهو ما رآه المراسل أيضا بين مرسيلية وليون ، إذ كانت الأرض كأنها بستان واحد (٧) ، وقال شعرا في هذا المنظر الخلاب ومنه :

وأقفاهم ذات الوحوش مزارع بها تأنس القطعان والذيب نافر (٨)

- | | |
|-------|--|
| (١) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٤٣ . |
| (٢) | انظر المصدر نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ . |
| (٣) | تخليص الإبريز ، ص ٥٣ . |
| (٤) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢٠٩ . |
| (٥) | انظر أقوم المسالك ، ص ٦٩ . |
| (٦) | ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٣٢ ، انظر أيضا المصدر نفسه ، ص ٣٣ . |
| (٧) | انظر رحلة باريس ، ص ٢١ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٢٥ . |

وهو في هذا يشير إلى الثروة الحيوانية أيضا ، وفي إنجلترا رأى محمد بېرم الفلاحية لديهم " متقدمة للغاية " (١) ومن مظاهر هذا الرقي ، أسلوب الري بالتنقيط (٢) ، الذي رآه محمد الطاهر الفاسي في إنجلترا ، وأعترف أن ملكة إنجلترا نفسها تشجع الزراعة وذلك بتقديم الجوائز والعطايا " إذا رأت أن أحدا ثماره جيدة ، سالمة من العاهات (٣) " وقد انفرد محمد ليبب في الحديث عن الزراعة في رومانيا وأهم ما ذكره " أن ملكية جميع أراضيها مضمونة في شخص أهلها " (٤)

رؤى الرحالين للثقافة والعلوم والمختراعات في أوروبا

من مقومات الثقافة التي لفتت نظر الرحالين في الغرب ، المدارس ، إذ أفاض الطهطاوي في الحديث عنها ، وعن الجامعات الفرنسية الحكومية والأهلية (٥) ، وقد أيد الشدياق في حديثه عن كثرة المدارس في فرنسا ، وأضاف أنها عند الفرنسيين أكثر وأفضل من الإنجليز إلا أن مدارس لينكولن في إيطاليا أفضلها على الإطلاق ، ويضيف الشدياق أن المدارس في أوروبا ، ليست من صنع الحكومات وحدها ، بل يساهم الأهالي في بنائها ، ولفت نظره مجانية التعليم في المراحل التعليمية المختلفة (٦) ، وتحدث خير الدين التونسي حديثا مفصلا عن مراحل التعليم في فرنسا ، الابتدائي والمتوسط والمنتهي على حد تعبيره ، وتحدث عن كل مرحلة من هذه المراحل ، ومواد الدراسة فيها ، والقائمين عليها من الأهالي والحكومة ، والتخصصات التي تدرس في المرحلتين الأخيرتين (٧) ، إذ تشتمل على العلوم جميعها بما في ذلك التصوير والموسيقى

- | | |
|-------|-------------------------------------|
| (١) | صفوة الاعتبار ، ٤٠ / ٦٥ . |
| (٢) | انظر الرحلة الإبريزية ، ص ٣٣ . |
| (٣) | المصدر نفسه ، ص ٣٣ . |
| (٤) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٠٣ . |
| (٥) | انظر تخليص الإبريز ، ص ١٦٢ - ١٧٠ . |
| (٦) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٠ . |
| (٧) | انظر أقوم المسالك ، ص ٦٥ . |

والتعشيل الصرحي ، وكل هذه النظم ومتعلقاتها منوطة بوزير المعارف (١) وحديث خير الدين المفصل في هذا الموضوع ، يشير إلى أنه يود نقل صورة ناصعة للتعليم ونظمه في الغرب ، إلى أبناء وطنه ، ويعرفهم بالأساليب السليمة لنشر التعليم والثقافة .

تحدث سليمان بن صيام ، عن النتائج الإيجابية لوجود المدارس في فرنسا ، ولفت نظره الحد الأدنى من التعليم ، فذكر أن الناس في فرنسا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم في الأمور الغميقة ، كل إنسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد ، كعامة غيرها من البلدان . (٢) وكان أكثر ما لفت نظر المراسل في مدينة ليون ، كثرة مدارسها في " كل علم وفن ، وخاصة مدرسة اللاهوت " (٣) وربط بين تمدن فرنسا وهذا المظهر بالقول " ولم يصعد العقل إلى هذه القمة العالية إلا بدرج المدارس ، التي لا يفتر تشييدها ولا يكف نظامها . " (٤) وقوام نجاح المدارس في مهمتها ، معلمون " مهرة في فنونها ، ويضعون لها نظمات وشرائع تجري بدون خلل . " (٥) وقد قام محمد بيرم التونسي بإجراء مقارنة بين مدارس بلدان أوروبية مختلفة ، وخلص منها إلى أن مدارس إيطاليا " لم تناكب مكاتب فرنسا وألمانيا . " (٦) وإن كان فيها " من أسباب تيسير المعارف كل اللوازم . " (٧) ، وأطرف ما ذكر عن التعليم ، ما ذكره أحمد زكي عن التعليم في فرنسا ، إذ شمل الخرس والعمى ، وتحدث عن قوانين هذه المدارس والمواد التعليمية والمهنية التي تدرس فيها (٨) ، والمظهر الذي أعجب به محمد لبیب بالإضافة إلى تكاتف الأهالي مع الحكومات في أوروبا في إنشاء المدارس ، وسائل التشجيع العلمي والثقافي للأطفال ، إذ رأى في جنيف حفلا يكرم فيه المتفوقون من الأطفال " بحضور رجال الحكومة ، وسراة الامة ، وأهلهم وذوهم . " (٩) ومن مظاهر التعليم

- | | |
|-------|--|
| (١) | انظر أقوم المسالك ، ص ٦٦ ، ٦٧ . |
| (٢) | ثلاث رحلات جزائرية ، ص ٣٥ . |
| (٣) | رحلة باريس ، ص ٢٧ . |
| (٤) | المصدر نفسه ، ص ٢٧ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٢٧ . |
| (٦) | صفوة الاعتبار ، ٣ / ٥٥ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ٣ / ٥٥ . |
| (٨) | انظر السفر إلى الموقصر ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٤ . |
| (٩) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ١٤٤ . |

المتطور في سويسرا ، ما ذكره محمد لبیب عن اهتمام القوم بتعليم العلوم والفنون والصناعات ، وآداب السلوك ومسالك الآداب الدينية والمعاشية ، ما يقوم الطبــــــــــــــــاع ويكمل الأخلاق . (١)

قليل هم الرحالون الذين تنبهوا إلى سلبیات التعليم في أوروبا ، وكان على رأس المتنبهين الشدياق (٢) ، وقد شاركه في بعضها كل من المراش ، ومحمد بیـــــــــرم التونسي ، ومن هذه السلبیات ، انصراف طلبة الجامعات إلى اللهو وارتكاب الكبــــــــائـــــــــر على حد تعبير المراش (٣) ، وهذا ما لاحظته الشدياق على الطلبة والاساتذة فــــــــــــي كمبريدج وأكسفورد ، وأضاف إليها صفة الكبر عند هذه الفئة (٤) ، بذكر محمد بیرم أن التعليم في هاتين الجامعتين ، جكر على أبناء الاغنياء . (٥)

تعد المكتبات عاملاً أساسياً من عوامل نشر التعليم والثقافة في أوروبا ، لذلك اعتنى الرحالون بها ، باعتبارها واحدة من المقومات الضرورية التي تكتمل بها ومعها الصورة التعليمية والثقافية ، ولذلك فصل الرحالون الحديث عن المكتبات ، من حيث نظمها وقوانينها المتعلقة بالمطالعة والإعارة ، وقاموا بوضع إحصائيات لأعداد الكتب في المكتبات المشهورة في أوروبا ، أما الطهطاوي ، فأضاف إلى كل ذلك حديثاً عن الدكاكين المتخصصة في بيع الكتب في باريس ، فهي بالإضافة إلى فائدتها الثقافية تعد " من التجارات الرابحة " (٦) لإقبال القوم على الكتاب ، وتحدث الشدياق عن مكتبة لندن وما تحويه من المخطوطات ، ورجح كفة المكتبات الفرنسية على المكتبات الإنجليزية ، في مسألة إبادة استعارة الكتب لمطالعتها في البيوت ، ولا يحتاج ذلك في لندن (٧) ، ورصد خير الدين التونسي ، ضمن إحصائيات دقيقة ، أعداد الكتب

-
- | | |
|-------|---|
| (١) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ١٤٣ . |
| (٢) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٢ . |
| (٣) | انظر رحلة باريس ، ص ٤٣ ، نسب المراش هذه الصفة السيئة إلى طلاب الطب والشریعة . |
| (٤) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٢ . |
| (٥) | انظر صفة الاعتبار ، ٦٣ / ٤ . |
| (٦) | تخليص الإبريز ص ١٢٩ . |
| (٧) | انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١١ . |

في مكاتب إيطاليا وإنجلترا والنمسا، وبروسيا، وروسيا، وبلجيكا، وفي باريس، إذ ذكر أن بها " ثلاث العدر الموجود بمملكة فرنسا كلها " (١) وتحدث عن هذه المكاتب من حيث الخدمات التي توفر للمطالعين من " نظار وخدمة بقدر الكفاية، وحولها بيوت للتعليم تسخن في الشتاء " (٢).

وفي إطار الحديث عن المكاتب المنزلية، فقد ذكر الطهطاوي عن الباريسيين، أنه يندر وجود إنسان منهم " من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب " (٣) وفي صدر المقارنة بين مكاتب المدن الأوروبية، قام محمد بيرم التونسي بعمل مقارنة مدعمة بالأرقام، خلص منها أن أكبرها مكتبة الأمة في باريس وتليها مكتبة لندن (٤)، ففي الوقت الذي رأى فيه أحمد زكي أن لندن تكاد تكون أقل المدن الأوروبية اهتماماً بالمكاتب، حتى أن ما هو موجود فيها، ليس للحكومة يد فيها، بل هي من إنشاء الشركات التجارية (٥)، ولكنه أعجب بالخدمات التي تقدمها هذه الشركات وتتمثل في إرسال " الكتب اللازمة إلى منازل المشتركين، فلا تكلفهم التوجه إلى مركزها " (٦) وتحدث عن نظام الإنعارة في مكتبة مدينة بيزا الإيطالية، حديث المعجب بدقّة هذا النظام، ومظاهر الابتكار فيه (٧).

اعتبر الرحالون الطباعة والصحافة أمرين متلازمين، يكمل كل منهما الآخر فيكونان عنصراً هاماً في ثقافة الشعوب الأوروبية، وأدركوا إلى أي مدى ساهمت الطباعة المتطورة في انتشار الصحافة من جهة، وتعميم الثقافة من جهة أخرى، وأضاف الطهطاوي إلى هذه الفوائد، أن الصحافة تغيد في ترغيب أصحاب الأعمال الطيبة أن يزيدوا من هذه الأعمال، وتردع صاحب الفضلة، وتنصف المظلومين برفع مظالمهم إلى الحكومة (٨)، وذكر دور الصحافة في ترويج التجارة (٩)، وهو يعني

- | | |
|-----|---|
| (١) | أقوم المسالك، ص ٧٠، انظر الإحصائية في المصدر نفسه، ص ٦٩-٧٠. |
| (٢) | المصدر نفسه، ص ٧١. |
| (٣) | تخليص الإبريز، ص ١٥٧. |
| (٤) | صفوة الاعتبار، ٦٤/٤. |
| (٥) | انظر السفر إلى المؤتمر، ص ١٠٢. |
| (٦) | المصدر نفسه، ص ١٠٢. |
| (٧) | المصدر نفسه، ص ٣٥. |
| (٨) | انظر تخليص الإبريز، ص ٩٣. |
| (٩) | انظر المصدر نفسه، ص ١٤٦. |

الإعلان التجاري في الصحف والذي أشار إليه الشدياق أيضا ، وبين الفوائد التي تجنيها الصحف من هذه الاعلانات (١) ، لذلك اعتبرها الإنجليز أهم من الأخبار ، فقد موها في صفوفهم ، فغالبا ما تكون هذه الاعلانات في الصفحتين الأولى والاخيرة (٢) ، وفي إطار تقدم وسائل وأدوات الطباعة ، فقد تحدث الشدياق بإعجاب شديد عن المطبعة الحكومية في باريس ، ليبين مدى التطور الذي طرأ على آلات الطباعة بعد الثورة الصناعية مبينا قدرتها الفائقة على إخراج الأعداد الهائلة من الصحف والكتب (٣) ، فإذا ما أضيف إلى ذلك الحرية التي يتمتع بها أصحاب المطابع في إخراج " الورقات اليومية " (٤) فإن الطباعة والصحافة تسبحان قادرتين على الاضطلاع بالمهمة الثقافية في بلاد أوروبا ولا بتوقف دور المطابع على إخراج الورقات اليومية فحسب بل " تطبع كل ما من شأنه تيسير نشر المعارف " (٥) وقد رأى خير الدين التونسي ، أن المطابع عند الإنجليز " تطبع سائر المفاوضات " (٦) السياسية ، الخارجية والداخلية ، وتحدث محمد بيوم عن المطبعة الحكومية في باريس التي تحدث عنها الشدياق ، وأضاف إليها مقالته الشدياق أن هذه المطبعة ليست الوحيدة ، بل " هناك مطابع أخرى كثيرة " (٧) وعن حريسة الصحافة في إيطاليا ذكر محمد بيوم أنه حضر مناقشة البرلمان الإيطالي للأمور المالية حيث " كان مكاتبو الصحف ، جالسين يحصون جميع ما يقال وما يقع ، حتى كتبوا نفس حضورنا لأننا كنا بلباسنا التونسي " (٨) وأورد إحسانية عن أعداد المطابع في إنجلترا (٩)

وضع الطهطاوي والشدياق اليد على بعض الثغرات على قلتها فـــــــي الصحافة الأوروبية ، فتحدث الاثنان عن كذب الأخبار وتناقضها (١٠) ، وإن كان الطهطاوي

-
- (١) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٣ .
 - (٢) انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ١١٨ ، ١١٩ .
 - (٣) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٣ .
 - (٤) أقوم المسالك ، ص ٢٠٤ ، الورقات اليومية هي الصحف اليومية .
 - (٥) صفوة الاعتبار ، ٦٣/٤ .
 - (٦) أقوم المسالك ، ص ٢٠٤ .
 - (٧) صفوة الاعتبار ، ٨٦/٣ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ١٢/٣ .
 - (٩) انظر المصدر نفسه ، ٦٣/٤ .
 - (١٠) انظر تخلص الإبريز ، ص ١٦٢ ، ١٦٩ ، انظر أيضا البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٤ .

قد رجح كفة الفرنسيين على غيرهم في كثرة الكذب في الاخبار الصحفية (١). وزاد الشدياق بأن هذه الصحف، وكيفية الأسلوب، ولا تهتم بالأخبار المشرقية. (٢) وقد لفتت فنون العمارة والرسم والتصوير نظر رحالينا، وإن لم يبحثوا فيها بحث الخبير، وكانت ملاحظاتهم وصفية، تتم عن مدى إعجابهم بهذه الفنون، وتنقسم أحاديثهم عن هذه الجوانب، بأن الفن بأشكاله ضرب من ضروب الثقافة في الغرب وعلى رأسهم الطهطاوي إذ يقول في هذا الممدد: "من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبمعددها عن حالة الخشونة والتوحش، والبيوت والإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب، التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران". (٣) وخص الفرنسيين بذلك في قوله: "إن العلة الفرنسية ممتازون بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف، فهي أعظم أربابا وعمرانا". (٤) وهذا ما أشار إليه الشدياق أيضا، إذ رأى أن الفرنسيين متفوقون على الإنجليز في هذا المجال (٥)، ويعود سبب هذا التفوق إلى وجود الكثير من المدارس لتعليم كيفية التصوير وأعمال اليد. (٦)، ولكن الباجوري عمن هذه الصفة على الشعوب الأوروبية إذ رأهم مطبوعين على "رؤية الأشياء" والبحث عن أسبابها، واعتبار قيمة المعلوم والفنون لما علموا أن التقدم والسعادة لا يكونان إلا بهما. (٧) بينما قدم أحمد زكي الطليان على الشعوب الأوروبية في حقل الفنون، إذ "أن كل طلياني لا بد أن يخلق نابغا بالطبع في الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير". (٨)

-
- | | |
|-----|----------------------------------|
| (١) | انظر تخلص الإبريز، ص ١٦٩. |
| (٢) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ٢١٤. |
| (٣) | تخليص الإبريز، ص ٩٦. |
| (٤) | المصدر نفسه، ص ٩٦. |
| (٥) | انظر البحث، الفصل الثالث، ص ٢١٤. |
| (٦) | أقوم المسالك، ص ٦٩. |
| (٧) | الدرر البهية، ص ٣٦. |
| (٨) | السفر إلى المؤتمر، ص ٣٠. |

وفي هذا الإطار وصف الرحالون ما رأوه من مظاهر الفنون في أوروبا
في مجال العمارة (١) ، وتناول الوصف هذا الفن في كل من فرنسا ، وإنجلترا
 وإيطاليا والنمسا ، وفي مجالي التصوير والنحت (٢) ، في البلاد نفسها .
كان الطهطاوي واحداً من الرحالين الذين لم يهتموا اهتماماً ملحوظاً للنظر
بهذا الجانب الحضاري ، وهذا رَأْب الرحالين الذين لم يمضوا فترة كافية في الغرب
أما الطهطاوي فربما لم يجد سمة من الوقت ليطلع على هذه القضايا ، وربما كان لموروثه
الثقافي أثر في ذلك ، لذلك جاءت إشارات مقتضبة لا تغني بالغرض حتى مــــن
الناحية الوصفية .

أشار كل من الشدياق، والمراش وأحمد زكي ، ومحمد لبيب إلى المعارض والمتاحف
التي تعرض فيها نتاجات هذه الفنون ، في كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا (٣)
وذكر الشدياق أن الفرنسيين هم أصحاب فكرة إقامة المعارض ثم تبعتهم البلاد
الأوروبية الأخرى (٤) .

وفي مجال المسرح ، اهتم الطهطاوي والشدياق بهذا الجانب اهتماماً ملحوظاً
للنظر ، وكان مدار حديثهما عن عناصر المسرح الغربي ، وفوائده الاجتماعية ، وسلبياته
وفنونه ، وأشار الاثنان إلى المسرح الصامت ورقص الباليه (٥) ، وكان حكمهما على المسرح
الغربي من منطلقات خلقية ، فقد ذكر الطهطاوي أن المسرحيات لولم تشتمل * على كثير

(١) انظر تخلص الإبريز ص ٩٦ ، ٩٧ ، وأتوم المسالك ، ص ٦٩ ، ورحلة باريس
ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، والدرر البهية ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، وثلاث رحلات
جزائرية ، ص ٢٩ ، والسفر إلى المؤتمر ، ص ٢٤٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ورحلة
الصحف إلى أوروبا ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، والبحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر أتوم المسالك ، ص ٦٩ ، ورحلة باريس ، ص ٢٩ ، وثلاث رحلات جزائرية
ص ٣٠ ، والدرر البهية ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، والسفر إلى المؤتمر ، ص ٢١ ، ٢٣ ، ٤٢
ورحلة الصحف إلى أوروبا ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، والبحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٤ .

(٣) انظر رحلة باريس ، ص ٣١ ، ٣٨ ، والسفر إلى المؤتمر ، ص ٨١ ، ٢٠٦ ، ٢٨٣ ، ٣٢٥
ورحلة الصحف إلى أوروبا ، ص ٩٤ ، والبحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٤ .

(٤) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٤ .

(٥) انظر تخلص الإبريز ص ١٠٨ - ١١١ ، والبحث ، الفصل الخامس ، ص ١٣٥ - ١٤٣ .
لم يقتصر الحديث عن المسرح على الشدياق والطهطاوي ، ولكنهما أكثر
اهتماماً من غيرهما في هذا الجانب .

من النزعات الشيطانية لكأنت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة . (١) ورأى الشدياق أن المسرحيات تعلم النساء بعض الحيل في مجال العشق (٢) ، وشبه الطهطاوي الممثلين والممثلات بـ " العوالم في مصر " . (٣) من باب عدم وجود مصطلح يساهم في توصيل الصورة ، وليس من باب الهبوط بقيمة هذا الفن .

اتفق الشدياق مع الطهطاوي ، على أن الطليان أفضل من غيرهم من الأوروبيين ، وفي مجال الموسيقى التي تشد بمصاحبتها الأشعار المنظومة باللغة الطليانية (٤) ، وزاد الشدياق على الطهطاوي في حديثه عن المسرح الغربي أمرين هامين :

الأول : أنه جاء بمثال حي من التراث الغربي ، لتقريب صورة هذا الفن للقارىء العربي .
والثاني : أنه قام بنقد المسرح الغربي من جوانب أخرى كالموسيقى ، وتوزيع الأدوار ، والتوقيت السيء للعرض المسرحي ، وغلاء الكراسي ، التي لا يقدر على أجرتها غير الأغنياء . (٥)
أشار محمد بيرم التونسي إشارة سطحية إلى الفن المسرحي في الغرب ، وذلك بأن ذكر الفوائد الاجتماعية لهذا الفن (٦) ، وقدّم أحمد زكي إحصائية لأعداد المسارح في باريس ولندن (٧) ، وأضاف أن هذا الفن لديهم قد أصبح من " الكماليات الحاجية التي لا غناء لأهلها عنها " . (٨) وتحدث محمد لبيب عن شكل المسارح وجمالها وفوائدها الاجتماعية ، حديثاً مقارناً لحديث محمد بيرم التونسي . (٩)
لم تكن الموسيقى من القضايا التي شغلت الطهطاوي ، وكل ما ذكره فـسـي هذا الصدر ، أن المرء يسمعها ليلاً في كل بيت من بيوت أغنياء وأكابر باريس . (١٠)

-
- | | |
|--------|--|
| (١) | انظر تخلص الإبريز ، ص ١١٠ - ١١١ . |
| (٢) | انظر البحث - الفصل الثاني ، ص ١٣٩ . |
| (٣) | تخلص الإبريز ، ص ١٠٩ . |
| (٤) | انظر المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، انظر أيضاً البحث الفصل الأول ، ص ٩٢ . |
| (٥) | انظر البحث ، الفصل الثاني ، ص ١٤٠ . |
| (٦) | انظر صفوة الاعتبار ، ٨٢/٣ . |
| (٧) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ١٠٧ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ . |
| (٩) | انظر رحلة الصيف ، إلى أوروبا ، ص ٣٣ . |
| (١٠) | انظر تخلص الإبريز ، ص ١١١ . |

ولكن الشدياق اعتنى بهذا الفن عناية فاقته جميع الرجالين ، حيث عقد من أجل ذلك فصلاً خاصاً في "الواسطة" ، ولعل اعتناؤه هذا قد جاء نتيجة طبيعية لميلاته الفطري لهذا الفن ، فقام بمقارنة الموسيقى العربية مع الموسيقى الإفرنجية ، والموسيقى والفن الطليانيين مع مثليه عند الإنجليز وبين علاقة اللغة بكل ذلك . (١) وتحدث محمد بيرم التونسي عن الآلات الموسيقية في إيطاليا ، فذكر أنواعها ، وبين أن الإيطاليين يارعون فيها ، والحنانهم هي الحان الأوروبيين ، ومخالفة لألحان المشرقيين (٢) ، ورجح محمد لبیب تفوق الموسيقى النمساوية على غيرها من الموسيقى في بلاد أوروبا ، وذلك لأنهم وصلوا " في علم الموسيقى إلى حد لم يصل إليه غيرهم " . (٣)

نظر الرجالون إلى فن الرقص من الجانب الخلقي ، والغريب أن الطهطاوي هو الوحيد الذي اعتبره عند الفرنسيين نوعاً " من العياقة والشبهة لا من الفسق " وقال محمد بيرم التونسي قولاً مشابهاً لقول الطهطاوي ، ولكن عن الرقص في إيطاليا معبراً عن وجهة نظرهم وليس عن وجهة نظره ، إذ يعتبرون أنه " لا تأثم في ذلك ويرونه إكراماً للمرأة " . (٥) والحوارية التي قامت بين الغاريق والغاريقية في " الساق على الساق " حول الرقص تدل على استمجان الشدياق وزوجته لهذا الفن لعافيه من التأثير الجنسي بين المتراقصين رجالاً ونساءً . (٦)

يكاد الطهطاوي والشدياق يتفردان في الحديث المتعمق عن اللغة والأدب في الغرب ، وإن كانت هناك إشارات ضئيلة حول اللغة من خير الدين التونسي ، الذي قال إن اللسان الفرنسي " مشهور بحسن التنظيم والإيضاح ، حتى كاد يستعمل

-
- | | |
|-------|--|
| (١) | انظر الواسطة ، ص ٧٩ - ٨٧ ، والبحث الفصل الأول ، ص ٩٢ . |
| (٢) | انظر صفوة الاعتبار ، ٤٧/٣ . |
| (٣) | رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٣٢ . |
| (٤) | تخليص الإبريز ، ص ١١٢ . |
| (٥) | صفوة الاعتبار ، ٤٦/٣ . |
| (٦) | انظر الساق على الساق ، ص ٤٥٤ - ٤٥٦ . |

في سائر جهات أوروبا . (١) وتحدث المراسل عن المعاجم اللغوية الفرنسية ، وكيف يهتمون بها ، فيسوظفون لها كل شخص ازداد " معرفة وتمعقا في لغته . " (٢) وتحدث محمد بيرم حديثا مقتضيا عن أصل اللغة الإيطالية وتوقعها في " النشر والنظم على بحور عند هم معلومة . " (٣) وبين محمد لمبيد مقدار احترام النمساويين للغتهم ، بحيث لا يتحدثون إلا بها ، ولا تكون مناهجهم التعليمية إلا بها أيضا (٤) ، وتظل هذه الملاحظات متواضعة بالمقارنة مع ما ذكره الطهطاوي والشدياق ، إذ رأى الاثنان ، أن اللغات الغربية وخاصة الفرنسية سهلة لا تحتاج إلى المعاجم ، وهي بهذه الصفة ، تسهم في التقدم والمدنية في مجالات العلوم والفنون (٥) ، وذكر كل منهما أن اللغة الفرنسية تختلف عن العربية في مسألة التصريف ، وأعجب الاثنان بجوس هذه اللغة ، فعبر عنه الطهطاوي بشرح واف متعلل في بقاء " الهمزة ، وسكون الغين ، وفتح الراء ، وتشديد الميم ، كسر التاء ، وفتح القاف . . . " (٦) وعبر عنه الشدياق ، بالغنة والخنة (٧) ، واتفق الشدياق مع الطهطاوي على خلو اللغة الفرنسية من المحسنات اللفظية ، وهي صفة عامة للغات الغربية ، ومن ضمنها الفرنسية ، التي تطفح بالاستعارات والكنايات (٨) كما عرفها الشدياق . وفي مجال الشعر ، لاحظ الطرفان خلو الشعر عند الفرنسيين من التشبيب بالفلمان والاحداث (٩) ، وعم الشدياق ذلك على الشعر الأوروبي ، وذكر الطهطاوي بأن الشعر الفرنسي يخلو من الخمرية لأنه يحتاج لهم شرب الخمر بحرمة في كل وقت ، لذلك " فهم يتلذذون بالذات والصفات ، ولا يتخيلون في ذلك معانسي ولا تشبيهات ولا عبارات . " (١٠) ونفى الشدياق وجود المعجون في الشعر الفرنسي

- | | |
|--------|---|
| (١) | أقوم المسالك ، ص ١٣٦ . |
| (٢) | رحلة باريس ، ص ٤١ . |
| (٣) | صفوة الاعتبار ، ٦٢ / ٣ . |
| (٤) | انظر رحلة الصيف إلى أوروبا ، ص ٢٨ . |
| (٥) | انظر تخليص الإبريز ، ص ١٥٣ ، وكنز الرغائب ، ١٧٩ / ١ . |
| (٦) | المصدر نفسه ، ص ٦٩ . |
| (٧) | انظر الساق على الساق ، ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ . |
| (٨) | انظر كشف المخبا ، ص ٢٧٣ . |
| (٩) | انظر تخليص الإبريز ، ص ٦٤ ، انظر أيضا البحث ، الفصل |
| | الثاني ، ص ١٣٠ . |
| (١٠) | المصدر نفسه ، ص ١٠٤ . |

وعزا ذلك لوجود المرأة مع الرجل في كل وضع ووقت. (١)

كانت مسألة الاستشراق محور اهتمام الطهطاوي والشدياق وأحمد زكي فتحدث الطهطاوي عن دي ساسي Silvestre de Sacy واعتبره " من أكابر باريس " وشاع فضله في اللغة العربية. (٢) وأفاض الشدياق في حديثه عن المستشرقين إذ أتاحت له فرصة التعرف على عدد منهم ، أثناء عمله في الترجمة والطبع في مالطا وإنجلترا فاحتك ببعضهم احتكاكا مباشرا (٣) ، وتحدث أحمد زكي عن علماء العربية من الانجليز فذكر أسماءهم ونتاجهم الأدبي واللغوي (٤) ، وربما جاء اهتمام أحمد زكي بهذه القضية ملائما لطبيعة مهمته ، باعتباره مشاركا في المؤتمرات الثقافية ، التي كانت تعقد في أول الأمر " لقلعة المستشرقين " ، وأما الآن فقد انتشروا ، حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون. (٥) كما رأى هو نفسه أثناء حضوره لهذه المؤتمرات .

كانت المخترعات والتقدم العلمي من أهم المظاهر الحضارية التي لفتت نظر الرحالين ، وقد رأى الطهطاوي أن الفرنسيين يختلفون عن الأوروبيين في مضمون المخترعات والعلوم وذلك بأنهم دائما سباقون إلى ذلك و " يحبون دائما معرفة أصل الشيء " والاستدلال عليه. (٦) ونتيجة لكثرة المخترعات في فرنسا ، فقد جعل لكل عليم " قاموس مرتب على حروف المعجم في ألفاظ العلم الاصطلاحية. (٧) وأصبح عندهم بحكم العادة أن " كل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع في فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ما ابتدعه غيره. (٨)

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | انظر البحث ، الفصل الثاني ، ص ١٣٠ . |
| (٢) | تخليص الإبريز ، ص ٧١ . |
| (٣) | انظر عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، ص ١٤٩ - ١٥٧ . |
| (٤) | انظر السفر إلى المؤتمر ، ص ٧٤ . |
| (٥) | المصدر نفسه ، ص ٧٥ . |
| (٦) | تخليص الإبريز ، ص ٦٠ . |
| (٧) | المصدر نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ . |
| (٨) | المصدر نفسه ، ص ٦٠ . |

استعرض الشدياق مظاهر التقدم العلمي في مجالات الطب والصيدلانية والكيمياء ، وبين كل ما من شأنه النهوض بهذا الجانب ، من جمعيات علمية ، وجامعات متخصصة ، ومتاحف علمية ، وأكاديميات ، وذكر جانباً من المخترعات الملقاة للنظر ، ومنها التلغراف والبالون ، وأرجع النجاح في كل هذه المخترعات والعلوم ، إلى تيسير أسباب العلم المادية والمعنوية ، من قبل الحكومات والمجتمعات الغربية . (١)

أرجع خير الدين التونسي ، التفوق العلمي في أوروبا ، إلى كثرة " مجامع العلوم وجمعيات المحسنين " . (٢) وذكر وجوه ترغيب مشابهة لما ذكره الشدياق ، تدفع المبدعين والمخترعين ، وقد أسند هذا الأمر في فرنسا إلى " أمير من البيت الملكي ، إظهاراً لمزيد الاعتبار " . (٣) لهؤلاء العلماء .

أعجب المراش بالمخترعات الفرنسية ، والتقدم العلمي ، وأرجع كل هذا التقدم إلى " ما بلغ إليه العقل عندهم " . (٤) فنجح في استخدام " نواميس الصناعة فقهـر شرائع الطبيعة ، بنفس اسلحتها ، فكون من العناصر كواكب وشموسا ، ومن المعـادن أضواءً وأنواراً " . (٥) وسهر بخاسية البخار انبهار الشدياق وخير الدين التونسي (٦) بونظم في ذلك شعراً ومنه قوله :

وعهدي أن الماء يضعف إن غدا بخارا فكيف الآن ذا الضدُ صائِرُ (٧)

-
- (١) انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص ٢١٦ .
 - (٢) اقوم المسالك ، ص ٧٧ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٨١ .
 - (٤) رحلة باريس ، ص ٢٦ - ٢٧ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .
 - (٦) انظر اقوم المسالك ، ص ٢٦٤ ، والبحث الفصل الثالث ، ص ٢١٧ .
 - (٧) رحلة باريس ، ص ٣٧ .

جدول بأسماء الرحالة العرب ، الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر ، وخلفوا آثارا مكتوبة ، مرتبين حسب السنوات التي نشرت فيها كتبهم (١) .

اسم الرحالة	أثره المنشور	سنة النشر
رفاعة رافع الطهطاوي	تخليص الأبريز في تلخيص باريز	١٨٣٤م
أحمد فارس الشدياق	الساق على الساق في ماهو الغارياق	١٨٥٥م
سليم بطرس	النزهة الشهية في الرحلة السليمية	١٨٥٦م
أحمد فارس الشدياق	كشف المخبا عن فنون أوروبا	١٨٦٦م
فرنسيس فتح الله مراه	رحلة باريس	١٨٦٧م
سليمان الحرايري	عرض المضائق المعاصرة	١٨٦٧م
خير الدين التونسي	أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك	١٨٦٧م
لويس صابونجي	الرحلة النحليبية	١٨٧٤م
محمد بهيم التونسي	صفوة الاعتبار بمستودع الأضمار والأقطار	١٨٧٤م
نخلة صالح	الكنز المخبا للسياحة في أوروبا	١٨٨٦م
محمد شريف سليم	رحلة إلى أوروبا	١٨٨٨م
ديمتري خلاط	سفر السفر إلى معرض الحضرة	١٨٩١م
حسن توفيق	رسائل البشرى في السياحة بالمانيا وسويسرة	١٨٩١م

(١) انظر أنور الجندي ، معالم الأدب العربي المعاصر ، القاهرة ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٦٤ ، ص ١٤٩ - ١٦٥ ، انظر أيضا ، محمود السمرة ، انفتاح العرب على الغرب في العصور الحديثة ، العربي ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .
وقد أضفت إلى الجدول ، كتب الرحلات التي نشرت مؤخرا ، وهي التي لم يذكرها المرجعان السابقان .

اسم الرحالة	أثره المنشور	سنة النشر
محمد أمين فكري	إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا	١٨٩٢ م
أحمد زكي	السفر إلى المؤتمر	١٨٩٣ م
خليل سركيمس	رحلة مدير اللسان إلى الاستانة وأوروبا وأمريكا	١٨٩٣ م
علي أبو الفتوح	سياحة مصر في أوروبا	١٩٠٠ م
أحمد زكي	الدنيا في ماريوس	١٩٠٠ م
محمد لبیب البنتوني	رحلة الصيف إلى أوروبا	١٩٠١ م
محمد الطاهر الفاسي	الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية *	١٩٦٧ م
سليمان بن صيham	الرحلة الصيامية *	١٩٧٩ م
أحمد ولد فار	الرحلة الفادية *	

- * تمت الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة ١٨٦٠ م.
- * تمت الرحلة الصيامية سنة ١٨٥٢ م.
- * تمت الرحلة الفادية سنة ١٨٧٨ م.

- الخاتمة -

تمثلت أهمية الشدياق في مجموعة من القضايا ، أولها في مجال الأرب ، إذ كان أسلوبه فاتحة لعهد جديد من التحرر والتجديد ، وظهر هذا جليا في نشره ، وأما المضامين فقد تلحست المشاكل الاجتماعية في المجتمعات التي عاش معها ، في الشرق والغرب على السواء ، وقد جاء اهتمامه بالجانب الاجتماعي ، أكثر من اهتمامه بالجوانب الأخرى ، ويعود هذا التطور في أسلوب الشدياق وفكره ، إلى رغبته الأكيدة فـسـي ذلك ، إنطلاقا من الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السيئة في بلاده ، متأثرا بالمفكرين الفرنسيين والحركة الرومانتيكية .

وفيما يتعلق بالحضارة الغربية ، فقد كان حديثه عنها ، يدل على عدم الانبهار التام ، فصور جوانب هذه الحضارة ، من الناحيتين الإيجابية والسلبية ، وظل في كـل الأحوال متمسكا بهويته الشرقية ، معتزا بقوميته ، أمينا في نقل المعلومات إلى أبنائه وطنه .

كان الشدياق شديد الإعجاب بالجانبين السياسي والاقتصادي في الغرب ، وقد كان مصدر إعجابه بهما ، ما يحققانه للفرد من عدالة وتكافؤ الفرص ، وهذا ما كان الشدياق يفتقده في بلاده تحت الحكم العثماني ، كما صور ذلك في " الساق على الساق " وقد نالت إنجلترا وفرنسا اهتمام الشدياق أكثر من البلاد الأوروبية الأخرى ، وقد رجح كـفـة الفرنسيين على الإنجليز في المجالين السياسي والاجتماعي في أغلب الأحيان ، وفي الوقت نفسه ، استطاع أن يصورها تصويرا متكاملا من جميع الجوانب ، وقد مكنته من ذلك ، ظروفه الخاصة ، وتحرره من القيود الرسمية ، بالإضافة إلى الفترة الطويلة التي قضاها في الغرب ، في الوقت الذي دأب فيه الرحالون ، على إبراز الجوانب الإيجابية للحضارة الغربية في أغلب الأحيان .

اشترك الرحالون بما فيهم الشدياق ، بالاهتمام الشديد بالجوانب الثقافية في الغرب ، وما تحققة المدارس والجامعات هناك من تقدم علمي وثقافي ، وكان الهيكل السياسي للبلاد الأوروبية ، وما تحققة هذه الهياكل من حرية ومساواة ، محور اهتمام أغلب الرحالين ، كما ابرزوا الدور الرسمي والشعبي في مجال تشجيع العلم والثقافة . غطت ملاحظات الرحالين مساحة مكانية واسعة من أوروبا ، وكانت فرنسا

هي محور اهتمامهم في أغلب الأحيان ، خاصة فيما يتعلق بالقانون والسياسة ، ومما تحققه في الحياة الاجتماعية والاقتصادية من تفوق ، وقد كان لتنوع اهتماماتهم واختلاف مشاربهم الثقافية ، وظروفهم الخاصة ، أثر واضح على رؤاهم ، ولكنهم جميعا كانوا يهدفون إلى فتح عيون أبناء وطنهم ، على الأسباب الكامنة وراء التفوق الحضاري في الغرب وإن رأوا في أغلب الأحيان على تأكيد هويتهم العربية ، وإبراز مزايا الحضارة العربية الإسلامية السالفة ، والقيم العربية السائدة .

اتفق الرجال العرب ، على أن المرأة الغربية ، اتاحت لها الفرصة لإشبع ذاتها في مجال العمل ، وممارسة إنسانيتها من خلال علاقتها بالرجل ، وبينوا أن الرجل الأوروبي قد ساهم في إعطاء المرأة هذه الامتيازات ، دون أن يحس بالامتياز ، ولكن الشدياق وحسده وضع يده على بعض الثغرات المترتبة على مثل هذا الوضع ، خاصة وأنه كان منزعج الحرية المقيدة (التي تتنافى مع الفوضى) في أغلب الأحيان باستثناء إعجابه المطلق بحرية الأديان ، انطلاقا من أزمته الخاصة في هذا المجال عندما كان في بلادهم .

إن هذه الدراسة التي حاولت أن تستوعب رؤية مفكر عربي ، امتد عطاؤه الصحفي والأدبي على مدى عقود طويلة من القرن التاسع عشر ، تأمل أن تكون جزءا من الحوار حول رؤى مفكرين آخرين من أبناء الأمة ، في موضوع العلاقة الحضارية مع الغرب ، خاصة أولئك الذين مهدوا الطرق لدخول تلك الحضارة إلى عالمنا العربي ، الطالع من جديد من ثوب الدولة العثمانية ، وبهروا بما نقلوا إلى شعوبهم ، حتى كادت صورة الغرب الاستعماري البشعة ، تبدو خافتة أمام ما قدم بعض هؤلاء المفكرين من رؤى وآراء .

إن الشدياق هذا المفكر الذي لم ينكسر أمام الحضارة الغربية ، على الرغم من ظروف وطنه وأمه والشرق ، يعتبر نموذجا للمواجهة الحضارية السليمة ، التي ترى السلبى سلبيا ، والإيجابى إيجابيا ، وتأخذ باعتبارها واقع الأمة وطموحاتها في ذلك الوقت .

الفهرس

- أولا : المصادر والمراجع .
- ثانيا : المحتويات .

المصدر -

- ٠١ أحمد زكــــــــــــــي : السفر إلى الصومر ، بولاق ، ١٨٩٣ م .
- ٠٢ أحمد فارس الشدياق : الساق على الساق في ما هو الغاريق ، بيروت منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٦ م .
- كشف المخبا عن فنون أوروبا ، تونس ، مطبـــــــــــــعة الدولة ، ١٨٦٦ م .
- كنز الرغائب في منتجات الجوائب ، الآستانة ، مطبعة الجوائب ، الجزء الاول ، ١٢٨٨ هـ ، والجزء الثاني ١٢٨٩ هـ .
- الوساطة في معرفة أحوال مالطة ، دار الوحدة ١٩٧٨ م .
- ٠٣ أحمد بن فضلان : رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهــــــــــــان دمشق المطبعة الهاشمية ، ١٩٥٩ م .
- ٠٤ الادريسي : محمد بن إدريس ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق روما ، ١٩٧٢ م .
- ٠٥ أسامة بن منقـــــــــذ : الاعتبار ، تحقيق فليب حتي ، الولايات المتحدة مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠ م .
- ٠٦ الاسطخــــــــري : ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، مصر ، دار القلم ١٩٦١ م .
- ٠٧ ابن بطوطــــــــه : محمد بن ابراهيم اللواتي ، رحلة ابن بطوطــــــــة تحقيق المنتصر الكتاني ، بيروت ، مؤسســــــــة الرسالــــــــة ، ١٩٨٥ م .
- ٠٨ التهامي الأندلســــــــي : علي بن محمد ، ديوان أبي الحسن التهامــــــــي تحقيق ، علي نجيب ، دمشق ، المكتب الاسلامــــــــي ١٩٦٤ م .

- ٩٠ ثلاث رحلات جزائرية ، تحقيق خالد زياده ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧١م .
- ١٠٠ ابن حوقل : محمد بن حوقل ، صورة الأرض ، بيروت ، منشورات دار الحياة ، ٢٠٠٠ .
- ١١٠ ابن خلكان : أحمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨م .
- ابن خلكان ، أحمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ٢٠٠٠ .
- ١٢٠ خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تونس مطبعة الدولة ، ١٢٨٤هـ .
- ١٣٠ ابن رحيمة : عمر بن الحسن ، المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق إبراهيم الإبياري وآخرون ، مصر ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٥م .
- ١٤٠ ابن رستق : أحمد بن عمر ، الأعلام النفيسة ، لندن ، مطبعة بريسل ، ١٨٩١م .
- ١٥٠ رفاعه رافعة : بدوى الطهطاوي : تخلص الإبريز في تخلص باريز ، القاهرة دار التقدم ١٣٢٣هـ .
- مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية القاهرة ، دار الطباعة ، ١٢٨٦هـ .
- ١٦٠ صاعد بن أحمد التفليسي : طبقات الأمم ، النجف ، المكتبة الحيدرية ومطبعته ، ١٩٦٧م .
- ١٧٠ فرنسيس فتح الله مراد : رحلة باريس ، بيروت ، المطبعة الشرقية عند حنا النجار ، ١٨٦٧م .

- ١٨٠ الفيروز آبادي : محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، بيروت دار الفكر ، ١٩٧٨ م .
- ١٩٠ القزويني : محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر ، ٢٠٠٠ .
- ٢٠٠ لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مصر ، دار المعارف ، ٢٠٠٠ .
- ٢١٠ محمد بيرم التونسي : صفوة الاعتبار ، مستودع الأمصار والأقطار ، مصر المطبعة الاعلامية ، ١٣٠٤ هـ .
- ٢٢٠ محمد الطاهر الفاسي : الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، تحقيق محمد الفاسي ، فاس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٧ م .
- ٢٣٠ محمد بن عثمان : الأكسير في فكاك الأسير ، تحقيق محمد الفاسي الرباط ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، ١٩٦٥ م .
- ٢٤٠ محمد لبيب البنتوني : رحلة الصيف إلى أوروبا ، مصر ، مطبعة اللـواء ، ١٩٠١ م .
- ٢٥٠ محمود الباجوري : الدرر البهية في الرحلة الأوروبية ، ٢ ، ٢ ، ١٨٩١ م .
- ٢٦٠ المقدسي : أحمد بن أبي بكر ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ م .
- ٢٧٠ ابن منظور : محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، ٢٠٠٠ .
- ٢٨٠ ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، طهران ، ١٩٦٥ م .

- المراجع العربي -

- ٠١ ابراهيم أحمد المدوي :
السفارات الإسلامية إلى أوروبا في المصور الوسطى
مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٧م
- ٠٢ ابراهيم أنيس وآخرون :
المعجم الوسيط ، القاهرة ، ١٩٦٠م
- ٠٣ ابراهيم عبده :
أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٤٤م
- ٠٤ أحمد أحمد بدوي :
رفاعة رافع بدوي الطهطاوي ، القاهرة ، لجنسة
البيان العربي ، ١٩٥٩م
- ٠٥ أحمد حسن الزيات :
تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار النهضة ، ٢٠
- ٠٦ أريب مرويه :
الصحافة العربية - نشأتها وتطورها ، بيروت ، دار مكتبة
الحياة ، ١٩٦١م
- ٠٧ أنور الجندي :
أحمد زكي الملقب بشيخ الصروبة ، حياته وآراءه ، آثاره
القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة
والنشر ، ١٩٦٤م
- معالم الأدب العربي المعاصر ، القاهرة ، دار النشر
للجامعيين ، ١٩٦٤م
- ٠٨ أنيس المقدسي :
الفنون الأدبية وأعلامها ، بيروت ، دار العلم
للملايين ، ١٩٨٠م

- ٠٩ بطرس البستاني :
- دائرة المعارف ، بيروت ، دار المعرفة ، ٢٠ .
- ٠١٠ جورجى زيدان :
- بناء النهضة الأدبية الحديثة ، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠ .
- تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٣٧م .
- تراجم مشاهير الشرق ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٢٢م .
- ٠١١ حسن السندويى :
- أعيان البيان ، مصر ، المطبعة الجمالية ، ١٩١٤م .
- ٠١٢ حسين فوزى :
- حديث السندباد القديم ، القاهرة ، مطبعة لجنسة
- التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣م .
- ٠١٣ حنا فاخوري :
- تاريخ الأدب العربي ، بيروت ، المطبعة البولسية ، ٢٠ .
- ٠١٤ خالد زياد :
- تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا ، بيروت ، معهد الإنماء
- العربي ، ١٩٨٣م .
- ٠١٥ رثيف خوري :
- عصر الإحياء والنهضة ، بيروت ، ٢٠ ، ١٩٥٧م .
- ٠١٦ زكي محمد حسن :
- الرحالون المسلمون في العصور الوسطى ، مصر
- دار المعارف ، ١٩٤٥م .
- ٠١٧ سامي الكيال :
- محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب ، (١٨٠٠ - ١٩٠٥)
- القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧م .
- ٠١٨ شفيق جبرى :
- أحمد فارس الشدياق ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٨م .

- ٠١٩ شوقي ضيف :
الرحلات ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م.
- ٠٢٠ عبد الرحمن ياغسي :
مقدمة في الأدب العربي الحديث ، ٢ ، ٢ ، ١٩٧٥ م.
- ٠٢١ علي مدسن مال الله :
أدب الرحلات عند العرب في المشرق ، بغداد
مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨ م.
- ٠٢٢ عماد الصلح :
أحمد فارس الشدياق ، بيروت ، دار النهار ، ١٩٨٠ م.
- ٠٢٣ عمر الدسوقي :
في الأدب الحديث ، بيروت ، دار الفكر العربي ، ١٩٦١ م.
- ٠٢٤ عمر رضا كحالة :
معجم المؤلفين ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ٢٠٠٠ م.
- ٠٢٥ فهمي جدعان :
أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي
الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
١٩٨١ م.
- ٠٢٦ فليبي طرازي :
تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، المطبعة الأدبية
١٩١٣ م.
- ٠٢٧ كمال اليازجي :
رواد النهضة في لبنان الحديث ، بيروت ، مكتبة رأس
بيروت ، ١٩٦٢ م.
- ٠٢٨ لويس عوض :
— تاريخ الفكر المصري الحديث ، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠٠٠ م.
— المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث
الفكر السياسي والاجتماعي ، القاهرة ، مطبعة المعرفة ، ١٩٦٦ م.

— المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث —
قضية المرأة ، مطبعة المعرفة ، ١٩٦٦ م .

٢٩ . مارون عبود :

- دمشق وأرجوان ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٦ م .
- رواد النهضة ، بيروت ، دار الثقافة ، ٢ .
- صقر لبنان ، بيروت ، دار مارون عبود ، ١٩٧٥ م .
- مجدرون ومجترون ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦١ م .

٣٠ . محمد أحمد خلف الله :

أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية —
مصر ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٥ م .

٣١ . محمد راغب هاشم :

أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ، حلب ، المطبعة
العلمية ، ١٩٢٦ م .

٣٢ . محمد عبد الفني حسن :

أحمد فارس الشدياق ، القاهرة ، الدار المصرية
للطباعة ، ٢ .

٣٣ . محمد عمارة :

رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث —
بيروت ، دار المستقبل العربي ، ١٩٨٤ م .

٣٤ . محمد غنيمي هلال :

الرومانتيكية ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٣ م .

٣٥ . محمد كرد علي :

غرائب الغرب ، دمشق ، مطبعة المقتبس ، ١٩١٠ م .

٣٦ . محمد مرسي الحريري :

الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته ، الإسكندرية
دار المعرفة الجامعية ، ٢ .

- ٠٣٧ محمد يوسف نجم :
القصة في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، دار الثقافة
٠١٩٦٦ م
- المسرحية في الأدب العربي الحديث (١٨٤٧-١٩١٤)
بيروت ، دار الثقافة ٠١٩٦٧ م
- ٠٣٨ مخيم صالح :
— رثاء الأبناء في الشعر العربي ، ٢ ، ٢ ، ٢
- ٠٣٩ منير بعلبكي :
المعورد ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ٠١٩٨٧ م
- ٠٤٠ نازك سابا ياراد :
الرحالون العرب وحضارة الغرب ، بيروت ، دار الكتاب
الليبناني ، ٠١٩٧٩ م
- ٠٤١ نقولا زباد :
الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، دار الكتاب
الليبناني ، ٠١٩٦٢ م
- ٠٤٢ يوسف أسعد داغر :
مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ، جمعية أهل القلم
٠١٩٥٥ م

— المراجع المترجم —

- ٠١ أنست فيشر ، ضرورة الفن ، ترجمة أسعد حليم ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ م.
- ٠٢ البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ، دار النهار ، ١٩٦٨ م.
- ٠٣ جان جاك روسو ، العقد الاجتماعي ، ترجمة زوقان قرقوط ، بيروت ، دار القلم ، ٢٠٠٠ م.
- ٠٤ ز . أ . ليفين ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ، ترجمة بشير السباعي ، بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٨ م.
- ٠٥ فولتير ، كنديد ، ترجمة عادل زعيتر ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٥ م.
- القدر ، ترجمة طه حسين ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ م.
- ٠٦ ف . ل . سولنييه ، الرومانطيقية في الأدب الفرنسي ، ترجمة أحمد دمشقية ، بيروت ، مطبعة عويدات ، ١٩٧١ م.
- ٠٧ وليام . ك . ويمزات ، وولكيانت بروكس ، النقد الأدبي ، تاريخ موجز النقد الرومانتي ، ترجمة حسام الخطيب ، دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٧٥ م.

— الرسائل الجامعية العربية —

- ٠١ خليل محمد الشيخ ، "البطل الروائي العربي في مواجهة الحضارة الغربية" رسالة ماجستير ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٧٩ م.
- ٠٢ علي أحمد حسين ، "فرنسيس فتن الله مرآش ، دوره في النهضة العربية" الحديثة "رسالة ماجستير ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٧٦ م.

— الرسائل الجامعية الاجنبية —

1. Alwan, Mohammed Bakir, "Ahmad Faris Ashidyaq and the west", Ph.D, Thesis: Indiana University, 1970.

— المراجع الاجنبية —

1. The Encyclopadia of Islam, Vol **II**, E.J. Brill, Lieden, London, 1965.(Paris)
2. Kindlen literature, Lexjkon, 13, Munchen, 1986.

- ٥١ الياس حنا الموصلي " أول سائح شرقي إلى أمريكا " نشرت تباعاً في المشرق
المجلد الثامن ، بيروت ، الأعداد من ١٩ - ٢٤ .
- ٥٢ جورج هارون " الشدياق رائد الحريات في فكرنا الحديث " ، حوار ، العدد
السادس ، بيروت ، ١٩٦٣ م .
- ٥٣ خالد الكركي " صورة الإنجليز في أدب أحمد فارس الشدياق " دراسات ، العدد
الثالث ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٥ م .
- ٥٤ سامي الدهان " أول سفارة للعرب لدى الروس من عشرة قرون " ، العربي ، العدد
الثالث ، الكويت ، ١٩٥١ م .
- ٥٥ محمود السمرة " انفتاح العرب على الغرب في العصور الحديثة " ، العربي ، العدد
التاسع والستون ، الكويت ، ١٩٦٤ م .
- ٥٦ محمود السمرة " أول سفير عربي إلى بلاط ملوك أوروبا " العربي ، العدد الحادي
والخمسون ، الكويت ، ١٩٦٣ م .
- ٥٧ محمود الفول " اللسان المالطي لفظة عربية عامة " العربي ، العدد العشرون
الكويت ، ١٩٥٩ م .
- ٥٨ محمود الفول " اللسان المالطي لفظة عربية عامة " أبحاث اليرموك ، المجلد الثاني ،
العدد الأول ، جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٤ م .
- ٥٩ ؟ ، " أشهر الحوارات وأعظم الرجال " الهلال ، العدد الرابع عشر
القاهرة ، ١٨٩٤ م .

1. Beeston . A.F.L, "Idrrisi's Account of the British Isles"
Bulletin of the school of oriental and African studies,
Vol, XIII, London, 1949,- 1950.
2. Chejine, Anwar, "Travel books in modern Arabic Literature"
The Muslim World, VolLII, No3, Hartford, 1962.
3. Lewis Bernard "The Muslim Discovery of Europe" Bulletin
of the school of oriental and African studies, Vol, XX,
London, 1957.
4. Mattityahupeled, "Al-Saq Al a - Saq A Generic Defintion"
Arabica, Tome, XXXII, Netherland, 1985.
5. Zolondek, "Nineteenth Century Arabic Travelers to Europe"
The Muslim World, Vol XLI, Hratford, , 1971.

المفحمة :

الموضوع :

المقدمة :	١ - ٤
الفصل الأول :	(٥ - ٢٥)
التقاء العرب بالفرنجة منذ القرون الوسطى وحتى	
بداية القرن التاسع عشر	
١. التقاء العرب بشرق أوروبا	٦ - ١٢
٢. التقاء العرب بغرب أوروبا	١٣ - ٢٠
٣. تعليق	٢١ - ٢٥
الفصل الأول :	دراسة نقدية تحليلية لآثار الشدياق (٢٦ - ١٢٥)
أولاً :	الساق على الساق في ماهو الغاريق
١-	الأوضاع الثقافية
٢-	الأوضاع الاجتماعية
٣-	القضايا الدينية
٤-	الأوضاع السياسية
٥-	الأوضاع الاقتصادية
٦-	اللغة المعجمية في الساق على الساق
٧-	الشعر في الساق على الساق
٨-	اللغة والأسلوب في الساق على الساق
٩-	فكرة القص في الساق على الساق
ثانياً :	الواسطة في معرفة أحوال مالطة
١-	مالطة في التاريخ والجغرافية وعند
	الشدياق
٢-	الأحوال الاجتماعية في مالطة
٣-	الأحوال الاقتصادية في مالطة

٨٩ - ٨٧	٤- الأحوال الدينية والسياسية والأدبية في مالطة
٩١ - ٩٠	٥- الأحوال الثقافية في مالطة
٩٣ - ٩١	٦- اللغة والموسيقى
١٠٠ - ٩٣	٧- اللغة والأسلوب
١٠٢ - ١٠١	ثالثا : كشف المخبا عن فنون أوروبا
١١٠ - ١٠٣	١- اللغة والأسلوب
١١٤ - ١١١	٢- المصطلحات والكلمات المترجمة ...
١٢٥ - ١١٥	رابعا : الجوائز والمقالة الشريافية
(١٥٩ - ١٢٦)	الفصل الثاني : الشدياق والأدب الغربي
١٣١ - ١٢٧	١- تفاعل الشدياق مع الأدب الغربي
١٣٥ - ١٣١	٢- الشدياق والترجمة من الأدب الغربية
١٤٢ - ١٣٥	٣- الشدياق والمسرح الغربي
١٤٧ - ١٤٢	٤- تأثير الشدياق بالأدب الغربي
	٥- العلاقة الفكرية بين الشدياق
١٥٤ - ١٤٧	و الأدب الغربي
١٥٩ - ١٥٤	٦- الشدياق والرومانتيكية
(٢١٨ - ١٦٠)	الفصل الثالث : الشدياق والحضارة الغربية
١٩١ - ١٦١	١- الأحوال الاجتماعية في أوروبا
٢٠٥ - ١٩١	٢- الدين والسياسة
٢١٠ - ٢٠٦	٣- الأحوال الاقتصادية
٢١٨ - ٢١٠	٤- الثقافة والعلوم والمخترعات

الفصل الرابع : رؤية الشدياق زوروي معاصرة للمغرب (٢١٩ — ٢٧٥)

- ١- دوافع الرحلة في القرن التاسع عشر ٢١٩ — ٢٢٢
- ٢- الرؤى الاجتماعية ٢٢٣ — ٢٤٠
- ٣- رؤى الرحالين لأوروبا في مجالسي الدين والسياسة ٢٤٠ — ٢٥٥
- ٤- رؤى الرحالين للإقتصاد الأوروبي ٢٥٥ — ٢٦١
- ٥- رؤى الرحالين للثقافة والتعليم والمخترعات في أوروبا ٢٦١ — ٢٧٣
- ٦- جدول بأسماء الرحالين العرب الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر وخلفوا آثارا مكتوبة ٢٧٤ — ٢٧٥

الخاتمة : ٢٧٦ — ٢٧٧

المصادر والمراجع : ٢٧٨ — ٢٨٩

المحتويات : ٢٩٠ — ٢٩٢

✱ ✱ ✱ ✱

✱ ✱ ✱

✱ ✱

✱

periodicals in Arabic and English Languages, as well as some unpublished academic theses which the scholar resorts to in this research.

his influence by Western concepts, schools of thought and the Romantic Movement. Furthermore, the scholar touches on how such concepts reflected on al-shidyāq's concepts of religion, politics, liberty, and equality. In the Third Chapter, the Scholar portrays the Various aspects of the Western Civilisation from al-shidyāq's point of view. In the Fourth and last Chapter, the scholar conducts a comparative study between al-shidyāq's perspective and the perspective of some of his contemporaries of the West from the social, political, religious, cultural, scientific, and economical dimensions. al-shidyāq's perspectives constitute the bases for this comparison.

The scholar manages to gain access to precedent similar studies that touch on the subject but do not conduct an indepth study of the various aspects of the West, as portrayed by al-shidyāq. Some of these studies include Arab Travellers and Western Civilisation by Nāzik Saba Yārd, a study by Moḥammad 'Alwān entitled: Ahmad Faris al-shidyāq and the West, and a study by Khālīd Al-Karakī: The Portrait of the English in the Works of Ahmad Faris al-Shidyāq.

In addition to the Abstract, Introduction and Four Chapters, this research includes a Conclusion which sums up the results and dimensions of this research as well as a Bibliography covering all primary and Secondary sources, publications,

Abstract

One of the objectives of this research is to criticise and analyse thoroughly the literary Works of al-shidyāq due to the inavailability of an integrated study for each of his independent works. Another objective is to reach a general perspective for the Western Civilisation coming at a very critical juncture of Arab History through al-shidyāq's personal standpoints as well as those of his contemporary scholars. Actually, al-shidyāq is the spearhead since his personal circumstances and the length of time he spent in the West enabled him to get acquainted with many aspects of the Western Civilisation, besides possessing a multi-talented character.

The scholar seeks to pinpoint the differences in viewpoints between al-shidyāq and some of his contemporaries like al-ṭaḥṭāwī, Khayr al-Dīn al-Tunisi, Marrāsh, Moḥammad Bayram and Aḥmad Zakī. He paves the way for his research by an Introduction that touches on the relationship between East and West ever since the Middle Ages and until the beginning of the Nineteenth Century by resorting to documents that were available to travellers, geographers, and political missions. In the First Chapter, the scholar criticises and analyses al-shidyāq's Literary Works artistically. In the Second Chapter, he discusses al-shidyāq's interaction with Western literature, thus shedding light on his role in translating from Western Literature and on

University of Jordan
Faculty of Graduate Studies
Arabic Department. - (M.A)

A STUDY IN AHMAD FARIS ASHIDYAQ'S
LITERATURE, AND THE IMAGE OF THE
WEST INCLUDED .

Prepared By:

Ahmad 'Arafat Hamed Al-Dawi

Supervised By:

Prof. Mahmud Al-Samrah.

(Submitted in Partial Fulfilment of the requirements for the
(M.A) of Philosophy by Degree in the Arab Literature at the
Faculty of Graduate Studies, University of Jordan).